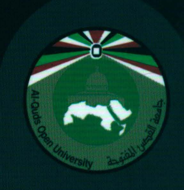
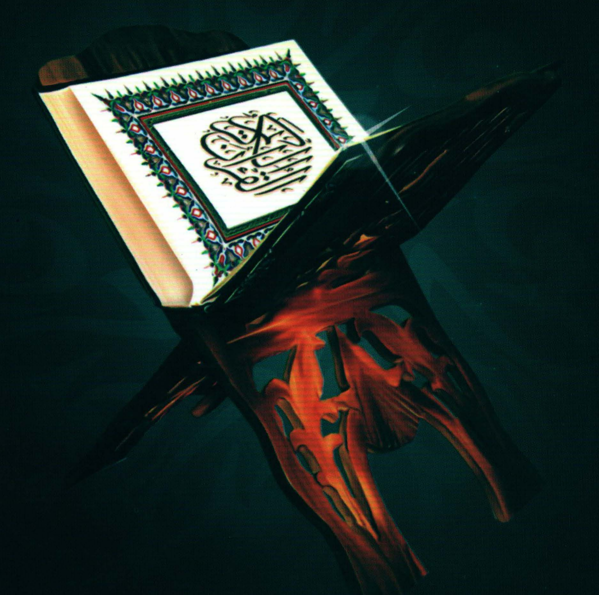




برنامج التربية

رقم المقرر
5224

التفسير



جامعة
القدس
المفتوحة



برنامج التربية

رقم المقرر 5224

التفسير

اعداد

د. صلاح عبد الفتاح الخالدي د.احمد فريد عبدالله

د. فايز الخطيب

2009

جامعة القدس المفتوحة

مقدمة المقرر

عزيزي الدارس، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أهلاً بك في رحاب مقرر التفسير ذي الظل الظليل الذي يُعنى بالبحث عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى، لذا فهو بمثابة الدوحة الفينانة التي تظلل التائه المتعب، الذي أنهكته وعثاء الترحال في فيافي الدنيا المتخمة بالماديات: لذا فإن أهمية التفسير تبدو واضحة في إبراز هداية الله تعالى في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات لتحقيق فوز الإنسان والجماعات بسعادة الدارين: الدنيا والآخرة.

عزيزي الدارس، لن تستطيع الاستغناء باعتبارك طالباً جامعياً متخصصاً في المرحلة الجامعية عن دراسة مادة التفسير، وما يتعلق بذلك من بيان معاني المفردات الغريبة، وذكر المعنى الإجمالي فالتفصيلي للآيات، وما تشير إليه وما تتضمنه تلك الآيات من أسرار بيانية وأحكام شرعية وغيرها من أحوال الكتاب الكريم.

الأهداف العامة للمقرر:

يتوقع منك، عزيزي الدارس، بعد دراستك لهذا المقرر أن تكون قادراً على أن:

1- تعرف سبب تسمية السور بأسمائها، مع معرفة مناسبة الآيات في السورة، وسبب نزول بعض الآيات.

2- تحدد الألفاظ الغريبة، وتحفظ معناها.

3- تتعرف معنى الأحكام الشرعية الموجودة في السور المقررة.

4- تفيد من المعاني التفسيرية التي تضفيها وجوه القراءات في بعض الألفاظ.

5- تتبين أسلوب القرآن الكريم الواقعي في معالجة القضايا.

6- تتلمس تتبع القرآن الكريم لأحوال المنافقين وكشف أضرارهم كي يتمكن المسلمون من بناء مجتمع سليم صالح.

7- تستخلص بعض الدروس والعبر من السور الثلاث المقررة.

8- تربط ما تعلمته من أحكام وعبر بالواقع الحالي ليوجهك وجهة إسلامية.

9- تتذوق بعض الصور البيانية الواردة.

10- تقدر على إعطاء المعنى الإجمالي والتفصيلي للسور الثلاث المقررة.

11- تحفظ السور الثلاث غيباً.

ولتحقيق الأهداف المشار إليها يتناول مقررنا هذا السور التالية: «محمد والنور ويوسف» تفسيراً وحفظاً وقد تبلور تناوله ذاك في خمس وحدات رئيسة هي:

الوحدة الأولى: التفسير ومناهجه.

الوحدة الثانية: خصصت لتفسير سورة محمد، وحفظها غيباً.

الوحدة الثالثة: تفسير الآيات (34-1) من سورة النور على أن تحفظ غيباً.

الوحدة الرابعة: وفيها تفسير ما تبقى من سورة النور (64-35) مع حفظها غيباً.

الوحدة الخامسة: تفسير سورة يوسف عليه السلام وحفظها غيباً.

عزيزي الدارس: رغبة منا في استيفاء عناصر المقرر وتعميماً للفائدة حرصنا على أن تشتمل الوحدات على التدريبات والأنشطة وأسئلة التقويم الذاتي، وستجد إجابات التدريبات في نهاية كل وحدة، آملين ألا تستعين بها إلا حينما تستعصي عليك الإجابة بعد مراجعة متأنية لمفردات المضمون. أما الأنشطة فعليك أن تؤدي مستلزماتها ولا بأس من اتصالك بالمشرف الأكاديمي حين يعترض جهدك عائق ما.

وستجد في أسئلة التقويم الذاتي منفذاً رحباً للحصول على متعة شائقة وتغذية راجعة ذاتية.

وستجد في نهاية كل وحدة مسرد مصطلحات يساعدك على فهم ما قد صعب فهمه من مصطلحات وسيكون الختام مثبتاً بالمراجع التي توفر عليك البحث والجهد عندما تقرر أن تسعف معلوماتك وأن ترفدها وتغذيها بمعلومات جديدة.

نسأل الله أن يوفقك -عزيزي الدارس- في تدبر مقرر التفسير وتفهمه، وأن يجعلك من النافعين المنتفعين بما يجنون من معارف وعلوم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

محتويات المقرر

رقم الوحدة	عنوان الوحدة	الصفحة


الوحدة الأولى
التفسير ومناهجه

محتويات الوحدة

الموضوع **الصفحة**

1 المقدمة

1.1 تمهيد

الحمد لله الذي أنزل الكتاب تبياناً لكل شيء ففتح به أعيناً عميا، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفا، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور، إلى صراط العزيز الحميد.

والصلاة والسلام على إمام المرسلين المؤيد بالقرآن رحمة للعالمين، وبعد:

فإنّ تعلم العلم لله خشية، وطلبه عبادة، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، فهو منار سبيل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وأئمة تقتص آثارهم ويقتدى بفعالهم. إن العلم حياة القلوب، ومصابيح الأبصار في الظُّلم، وإن العلماء يستغفر لهم كل رطب ويابس؛ يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العليا في الدنيا والآخرة.

يقول ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة» (مسلم، صحيح مسلم، رقم (2699) (4 / 2074)).

وإنّ أشرف علم هو علم التفسير، ومن هنا فقد جاءت هذه الوحدة بين يدي كتاب التفسير لتعرف بالتفسير ومناهجه، وقد مر معك، عزيزي الدارس، في الوحدة الرابعة من مقرر علوم القرآن (5121) معنى التفسير والفرق بينه وبين التأويل، ونعيد هنا إلى ذاكرتك بعض ما ورد باختصار، مع تتمة لمواضيع أخرى في التفسير ومناهج المفسرين، ونبين لك ما السبيل الذي يجب أن تسلكه، وما الأمور التي يجب أن تلتفت إليها قبل النظر في تفسير القرآن الكريم، كما نعرفك بأهم كتب التفسير وأشهرها حتى تكون مرجعاً لك في تفسير القرآن الكريم، فتتعرف من خلالها أقوال المفسرين ومناهجهم.

ومن أجل رفع المستوى العلمي في هذا المجال، فقد وضعنا لك -عزيزي الدارس- مجموعة من التدريبات لتوضيح موضوعات الوحدة، ونوكل إليك الإجابة عنها بنفسك، ثم عليك أن تقارن إجابتك بالإجابة التي وضعناها في نهاية الوحدة، حتى تطمئن إلى إجابتك وتستدرك جوانب الضعف إن وجدتها غير صحيحة.

وقد ضمّنا لك في هذه الوحدة أيضاً عدداً من الأنشطة التي ستساعدك على الاتصال الذاتي بعدد من المراجع ذات الصلة بموضوع الوحدة.

وستجد بعد دراستك لأجزاء الوحدة أسئلة التقويم الذاتي، وعليك أن تجيب عنها وحدك، وتقوم بتصحيحها ذاتياً بعد عودتك إلى المادة العلمية لتتأكد من صحة إجابتك بنفسك.

والله تعالى نسأل أن يوفقنا وإياك لما يحب ويرضى، وأن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، وأن يعلمنا منه ما جهلنا، ويذكرنا منه ما نُسِّينا، ويجعله حجة لنا لا علينا، وأن يتقبل منا خطانا في العلم، وأن نكون من الذين يرفعهم الله به درجات «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» (المجادلة/11).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

2.1 أهداف الوحدة

عزيزي الدارس، بعد الانتهاء من دراسة هذه الوحدة، واستيعاب مضمونها، وحل أسئلتها وتدريباتها، نأمل أن تكون قادراً على أن:

1- تعرف معنى التفسير والتأويل في اللغة والاصطلاح.

2- تفرق بين التفسير والتأويل.

3- تعرف أهمية تفسير الصحابي.

4- تقارن بين خصائص تفسير الصحابي، وخصائص تفسير التابعي.

5- تعرف مدارس التفسير في عهد التابعين.

6- تفيد من مسائل علوم القرآن قبل الخوض في التفسير.

7- تتدبر آيات من كتاب الله، وتستخرج لطائفها، وتقف على أسرارها ودقائقها.

8- تقف على الأسباب التي أوهمت اختلاف الصحابة وأئمة التابعين في التفسير.

9- تستنتج أن جلّ اختلاف الصحابة في التفسير هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.

10- تتبين الوجوه المختلفة لتفسير القرآن الكريم.

11- تعرف أمهات كتب التفسير، وتقف على مناهج أصحابها.

12- تحدد أهمية كتب التفسير، وتميز قيمة ما كتب فيها.

3.1 أقسام الوحدة

تتكون هذه الوحدة من خمسة أقسام رئيسة هي:

1- **معنى التفسير والتأويل وبيان شرف هذا العلم، ويحقق الأهداف (2-1).**

2- **خصائص التفسير في عهد الصحابة والتابعين، ويحقق الأهداف (3-5).**

3- **منهج التفسير، ويحقق الأهداف (6-7).**

4- **أسباب الاختلاف في التفسير، ويحقق الأهداف (8-10).**

5- **أهم كتب التفسير وأشهرها، ويحقق الأهداف (11-12).**



4.1 قراءات مساعدة

عزيزي الدارس، إن أهم كتاب في موضوع الوحدة هو كتاب: (التفسير والمفسرون) للدكتور: محمد حسين الذهبي، فهو رسالة الدكتوراة للمؤلف في مجلدين، يتكلم فيه على نشأة التفسير وتطوره، وألوانه ومذاهبه، مع عرض شامل لأشهر كتب التفسير على اختلاف ألوانها، وقد اعتمده كل من جاء بعده في جوانب عدة. وهناك كتب أخرى أفدنا منها في هذه الوحدة منها:

1- **الجويني: مصطفى الصاوي، مناهج في التفسير، منشأة المعارف بالإسكندرية.**

2- **حمزة: عمر يوسف، دراسات في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة الأقصى - قطر، (ط2 / 1995م).**

3- **العك: الشيخ خالد عبد الرحمن، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس - بيروت (ط 1986/2 م).**

4- **منيع: منيع عبد الحليم محمود، مناهج المفسرين، دار الكتاب المصري - القاهرة (ط 1/1978م).**

5.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة

عزيزي الدارس، هناك بعض النشاطات في ثنايا الوحدة يؤمل منك القيام بها لتعزيز معرفتك، كما أن هناك عدداً من مراجع التفسير عرّفناك بها وبمؤلفيها بشكل موجز، والمطلوب منك أن تعود إلى هذه الكتب فتقلب صفحاتها وتستعرض مجلداتها، وهذا يتطلب منك:

1- الرجوع إلى المكتبات والتعرف على كتب التفسير الموجودة فيها.

2- إذا تعذر رجوعك إلى المكتبة فإننا ننصحك بضرورة اقتناء (C.D.) بعنوان (مكتبة التفسير وعلوم القرآن) فهو يحوي عدداً كبيراً من كتب التفسير وعلوم القرآن، بحيث يمكّنك من زيادة المعرفة، وكتابة التقارير، وحل النشاطات

2. معنى التفسير والتأويل وبيان شرف هذا العلم

عزيزي الدارس، مر بك في الوحدة الرابعة من مقرر علوم القرآن "5121" معنى التفسير في اللغة والاصطلاح، ونعيد هنا بعض هذه المعاني مختصرة إلى ذاكرتك، مع شيء من الزيادة في جوانب أخرى فنقول:

1.2 التفسير لغة واصطلاحاً

* لغة:

من الفَسْر بمعنى البيان والكشف، وفَسَّرت الريح الغيم: كشطته، وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم بهذا المعنى؛ قال تعالى: «وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » (الفرقان/33)؛ أي بياناً وكشفاً.

* اصطلاحاً:

علم تُبحث فيه أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقَدْر الطاقة البشرية.

2.2 التأويل لغة واصطلاحاً

* لغة:

مأخوذ من مادة (أول) بمعنى الرجوع، ومنه آل إليه الأمر: عاد ورجع.

* اصطلاحاً:

ارتبط لفظ التأويل بالتفسير، واختلفت عبارات العلماء عن التفريق بينهما وفقاً لاختلافهم في تحديد معناهما على أقوال نذكر منها:

أ- التأويل مرادف للتفسير ومساو له، فالمعنى في كلا اللفظين واحد، وهذا القول منسوب إلى أبي عبيد القاسم بن سلام (ت: 224هـ) عزاه إليه الزركشي في (البرهان 2/164)، والسيوطي في (الإتقان 4/167)، وقد درج على هذا ابن جرير في تفسيره فهو يقول عند تفسيره للآية: القول في تأويل قوله تعالى....إلخ، ويشرع في تفسيرها؛ ويقول أيضاً: اختلف أهل التأويل في هذه الآية .....ومراده أهل التفسير، كما أنه سمى كتابه الذي أعده للتفسير باسم: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن).

والأظهر أن ثمة فرقاً ما بين التفسير والتأويل، وهذا ما جعل الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري المفسر (ت: 406 هـ) يقول: «نبغ في زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه» (الزركشي، البرهان 2/164).

2- وقال أبو منصور الماتريدي (ت: 333هـ): «التفسير: القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأي وهو المنهي عنه، والتأويل: ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله» (السيوطي، الإتقان 4/167).

3- وقال الراغب الأصفهاني (ت: 502 هـ): التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني كتأويل الرؤيا، كما أن التأويل أكثر استعماله في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها (الأصفهاني، مقدمة جامع التفاسير، ص: 47).

4- وقال بعضهم: التأويل صرف الآية من المعنى الظاهر إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً للكتاب والسنة، والتفسير توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها، والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة، ومثالهما: ما يقال في آية «وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ» (آل عمران/27) إن أراد منه إخراج الطير من البيضة كان تفسيراً، وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل، كان تأويلاً (السيواسي، عيون التفاسير 1/76).

5- وذهب بعضهم إلى أن التفسير يتعلق بالرواية، والتأويل يتعلق بالدراية (الزركشي، البرهان 165/2).

ولعل ما يرجح هذا القول أن التفسير معناه الكشف والبيان، والكشف عن مراد الله تعالى لا يجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله ﷺ، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع. وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، وهو ترجيح يعتمد على الاجتهاد (انظر: الذهبي، التفسير والمفسرون 1/22).

?

أسئلة التقويم الذاتي (1)

1- اذكر معنى التفسير في اللغة والاصطلاح.

2- قارن بين التفسير والتأويل من خلال قول الراغب الأصفهاني.

3- ما الذي يجب أن تقدمه في بيان معنى الآية: التأويل أم التفسير، ولماذا؟

3.2 مكانة علم التفسير

لما كان التفسير علماً يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه محمد ﷺ، ويتم به بيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمِه، فقد حاز هذا العلم مكانته وشرفه لارتباطه بكتاب الله تعالى.

فالقرآن الكريم هو أصل العلوم الشرعية كلها، وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته، عن أنس بن مالك قال: «قال رسول الله ﷺ: إن لله أهلين من الناس، قالوا: يا رسول الله من هم، قال: أهل القرآن أهل الله وخاصته» (صحيح، أخرجه أحمد في المسند (3/242) رقم (13566)، وابن ماجة في سننه (1/78) رقم (215)).

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالى: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» (البقرة/269) قال: إنّ الحكمة المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه وأمثاله (ابن جرير في تفسيره (3/89) وهو في تفسير القرآن الكريم لابن عباس المسمى: صحيفة عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس، ص: 119).

وأخرج ابن الأنباري (ت: 328 هـ) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «لأن أعرب آية من القرآن أحبُّ إليَّ من أن أحفظ آية». وأخرج أيضا عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: «لو أني أعلم إذا سافرت أربعين ليلة أعربت آية من كتاب الله لفعلتُ» (ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء، (1/23،26)).

والمراد من الإعراب هنا: التفسير، قال السيوطي «معنى هذه الآثار عندي: إرادة البيان والتفسير، لأن إطلاق الإعراب على الحكم النحويّ اصطلاح حادث، ولأنه في سليقتهم لا يحتاجون إلى تعلمه» (السيوطي، الإتقان، 4/172).

وقد أجمع العلماء على أن التفسير من فروض الكفايات، وهو أجلُّ العلوم الثلاثة الشرعية، فهو مقدم على علمي الفقه والحديث.

لأجل هذا اعتنى الصحابة والتابعون بتفسير القرآن العظيم، فهذا مقرئ الكوفة أبو عبد الرحمن السُّلمي (عبد الله بن حبيب، ت:73 هـ) يقول: «إنا أخذنا هذا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به» (الحاكم، المستدرك (1/557) وصححه، ووافقه الذهبي، وابن سعد: الطبقات الكبرى، (172/6)).

ومن هنا حرص صحابة رسول الله ﷺ على تعلم كتاب الله، يقول أنس بن مالك رضي

الله عنه: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدَّ في أعيننا، يعني عظم» (أحمد، المسند، 120/3 رقم (12236)). والمقصود هنا القراءة مع العلم بالتفسير، وكذلك حرص التابعون على تفسير القرآن وفهم معانيه.

قال الشعبي: «رحل مسروق إلى البصرة في تفسير آية، فقيل له: إن الذي يفسرها رحل إلى الشام؛ فتجهز ورحل إليه حتى علم تفسيرها» (الثعالبي، جواهر الحسان، (11/1)).

وقال مجاهد: «أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل الله» (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (1/26)).

واعلم، عزيزي الدارس، أن التفسير ضروري لتدبر آيات كتاب الله «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ» (ص/29)، وقال عز من قائل: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ» (النساء/82). وتدبر الكلام دون فهم معانيه لا يمكن.

وعلم تفسير القرآن الكريم أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان، لأن شرف الصناعة إما أن يكون بشرف موضوعها، أو بشرف غرضها، أو لشدة الحاجة إليها، وصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث:

(١) أما من جهة الموضوع فلأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة.

(٢) وأما من جهة الغرض فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى.

(٣) وأما من جهة شدة الحاجة إليه فلأن كل كمال ديني أو دنيوي مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى.



تدريب (1)

اكتب ثلاثة أحاديث في فضل قراءة القرآن الكريم.

أسئلة التقويم الذاتي (2)

1- ما معنى قوله تعالى: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ» (البقرة/269)؟

2- هل تفسير القرآن الكريم فرض عين أم فرض كفاية، ولماذا؟

3- وظّف الآية القرآنية «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ» (النساء/82) لبيان أهمية التفسير.

4- كان السلف يحرصون على إعراب آيات القرآن الكريم، فما المقصود بذلك؟

3. خصائص التفسير في عهد الصحابة والتابعين

1.3 تفسير الصحابة

من المعلوم أن تفسير الصحابي يدخل ضمن التفسير بالمأثور. فالتفسير بالمأثور هو ما جاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بياناً لمراد الله تعالى، وفي قول التابعي خلاف؛ فالقرآن قد تفسّر آياته بآيات أخرى، وهناك آيات فسرها الرسول ﷺ، وأخرى فسرها الصحابة رضي الله عنهم، وقد نص الحاكم على أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل، فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا وكذا، فإنه حديث مسند (الحاكم النيسابوري، معرفة علوم الحديث ص: 20).

وأنت تلحظ هنا أن الحاكم النيسابوري قيّد الأخذ بقول الصحابي إذا كان قوله في أسباب النزول، وهو مما لا مجال للرأي فيه، فيكون له حكم الحديث المرفوع إلى رسول الله ﷺ، ويجب على المفسر أن يأخذ به، ولا يجوز له أن يعدل عنه - هذا إذا صحت الرواية عن الصحابي.

أما إذا كان قول الصحابي مما للرأي فيه مجال فهو من قبيل الموقوف على الصحابي، ولا يجب الأخذ به لأنه يكون وقتئذ مجتهداً، والمجتهد يخطئ ويصيب؛ غير أن قولهم يبقى أولى من قول غيرهم، خاصة وأنهم أدرى بتفسيره لما شاهدوه من قرائن وقت نزول الآيات وأحوالها.

2.3 ميزات تفسير الصحابة

اتسم تفسير الصحابة بميزات متعددة أهمها:

1- أنه لم يصلنا عنهم ولا عن بعضهم تفسير كامل للقرآن كله، بل كل ما وصل إلينا تفسير آيات متفرقة.

2- أن الاختلاف بين تفاسير الصحابة في فهم المعنى قليل.

3- أن تفسير الصحابة في الأعم الغالب من نوع التفسير الإجمالي المقتصر على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه بأقصر عبارة، كتفسيرهم: «غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ» (المائدة/3) أي غير متعرض لمعصية، فإن زادوا على ذلك فمما عرفوه من أسباب النزول.

4- أن هذا التفسير الإجمالي المختصر قد اقتصر على تفسير ما غمض على معاصريهم باجتهادهم، وإعمال رأيهم فيما لم يجدوا تفسيره في كتاب الله، أو لم يؤثر عن النبي ﷺ.

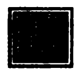
5- ان استنباطهم للأحكام الفقهية من الآيات نادر، وانتصارهم للمذاهب في تفسيرهم منعدم، نظراً لاتحادهم في العقيدة، ولأن الاختلاف المذهبي لم يتم إلا بعد عصر الصحابة

رضي الله عنهم.

6- أنه لم يدون لأحدهم تفسير على وجه الاستقلال، لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني، وكان تفسيرهم بعضه يُتلقى سماعاً وبعضه يثبت في المصاحف، حتى ظن بعض المتأخرين من غير المحققين أنه من وجوه القراءات.

7- اتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث، بل كان جزءاً منه وفرعاً من فروعه، ولم يتخذ التفسير شكلاً منظماً، بل كانت هذه التفسيرات تروى منثورة لآيات متفرقة كما كان الشأن في رواية الحديث، فحديث الصلاة بجانب حديث الجهاد، بجانب حديث الميراث، بجانب تفسير آية .... وهكذا.

8- اعتمد الصحابة في اجتهادهم على ما توفر لديهم من علم بأسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف متعلقة بأحوال العرب وعاداتهم، وأحوال من حولهم من أهل الكتاب وقت نزول القرآن، إضافة إلى معرفتهم بأوضاع اللغة وأسرارها، مع ما امتازوا به من قوة الفهم وسعة الإدراك (انظر: الذهبي، التفسير والمفسرون (1/98)، وحمزة، أصول التفسير ومناهجه (ص: 63)).



نشاط (1)

عزيزي الدارس، ارجع إلى كتاب الذهبي، «التفسير والمفسرون»، الجزء الأول، ص (81)، ولخص قوله في تحقيق نسبة التفسير الموسوم «تنوير المقباس» لابن عباس.

?

أسئلة التقويم الذاتي (3)

عزيزي الدارس، أجب بنعم أو لا عن الأسئلة التالية:

1- إذا تكلم الصحابي عن سبب نزول آية فكلامه له حكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ.

2- إذا كان قول الصحابي مما للرأي فيه مجال فإنه يجب الأخذ به إذا لم يعارض بحديث صحيح.

3- كان الانتصار للمذاهب في عهد الصحابة نادراً.

4- من التفاسير التي دونت في عهد الصحابة تفسير ابن عباس رضي الله عنهما.

3.3 قول التابعي في التفسير

(1) يؤخذ بقول التابعين في التفسير إذا أجمعوا على تفسير آية، أو إذا كان قول التابعي مما لا مجال للرأي فيه، فإنه يمكن الأخذ بروايته إذا كان من كبار التابعين، وصح إسنادها، ولم يعرف عن راويها الأخذ عن أهل الكتاب، وتقوّت بروايات أخرى.

أما إذا اختلفت أقوال التابعين في التفسير فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، فهم لم يسمعوا من الرسول ﷺ، ولم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نزل عليها القرآن، فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد وظن ما ليس بدليل دليلاً، وإذا خلا قول التابعي مما ذكرناه فليس بحجة، ولا يجب الأخذ به، إلا أن الأصل في المفسر أن يضع أقوالهم بين يديه عند تفسيره لآية ما، لعلها تفتح للمفسر بعض ما غمض عليه من معاني القرآن، خاصة وأن غالبية التابعين تلقوا تفسيراتهم عن الصحابة رضي الله عنهم، فقولهم فيما ليس فيه وجوبٌ يأخذ طابع الاستئناس.

4.3 ميزات التفسير في عهد التابعين

امتاز التفسير في عهد التابعين بالميزات الآتية:

1- دخل التفسيرَ كثير من الإسرائيليات، وهي مرويات أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب في الإسلام، وكان لا يزال عالقاً بأذهانهم من الأخبار ما لا يتصل بالأحكام الشرعية، كأخبار بدء الخليقة، وأسرار الوجود، وبدء الكائنات، وكثير من القصص، وكانت النفوس ميالة لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث، لا سيما في قصص الأنبياء والأمم الأخرى.

2- استقل التفسير في كتب مستقلة، وإن ظل محتفظاً بطابع التلقي والرواية إلا أنه لم يكن تلقياً ورواية بالمعنى الشامل كما هو الشأن في عصر النبي ﷺ وأصحابه، بل كان تلقياً ورواية يغلب عليها طابع الاختصاص، فأهل كل بَلَدٍ يعنون -بوجه خاص- بالتلقي والرواية عن إمام بلدهم.

3- ظهرت في هذا العصر نواة الخلاف المذهبي، فظهرت بعض تفسيرات تحمل في طياتها هذه المذاهب، فقد اتهم بعض التابعين بأنه قدري، وبدأ الكلام عن إثبات القدر وتكفير من يكذِّب به.

4- كثر الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم، وإن كان

اختلافاً قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسرين (الذهبي، التفسير والمفسرون (130/1)).

5- توسع التفسير، وظهرت تفاسير شاملة لأكثر آيات القرآن ولكل لفظة من ألفاظه.

تدريب (2)

عزيزي الدارس، ارجع إلى كتب التفسير، واذكر رواية واحدة على الأقل من الإسرائيليات ذكرها المفسرون عند الآية (94) من سورة الكهف: «قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ».... الآية.

5.3 مدارس التفسير في عهد التابعين

انتشر صحابة رسول الله ﷺ في الأمصار بعد أن فتح الله عليهم الكثير من البلدان، وكانوا يحملون علماً غزيراً حفظوه من رسول الله ﷺ، فجلس إليهم كثير من التابعين يأخذون عنهم حظاً وافراً من العلم، ويتتلمذون على أيديهم، فاشتهرت مدارس للتفسير كان أساتذتها الصحابة وتلاميذها التابعين، وأشهر هذه المدارس ثلاث هي:

5.3.1 مدرسة التفسير بمكة

قامت هذه المدرسة على عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وأشهر تلاميذ هذه المدرسة:

أ- سعيد بن جبير الأسدي، أبو محمد أو أبو عبد الله، كان حبشي الأصل، سمع من أئمة الصحابة، وكان من كبار التابعين ومتقدميهم في التفسير والحديث والفقه، وهو ثقة حجة، قتله الحجاج سنة (95 هـ) وهو ابن تسع وأربعين سنة، وما على الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه.

ب- مجاهد بن جَبْر، أبو الحجاج المخزومي المكي، ثقة إمام في التفسير وفي العلم، عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، أخرج ابن جرير عن سفيان الثوري قال: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به» (تفسير ابن جرير، (40/1)). مات سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع ومائة من الهجرة وله ثلاث وثمانون سنة.

ج- عكرمة، أبو عبد الله، مولى ابن عباس، أصله بربري، وهو ثقة ثبت عالم بالتفسير، مات سنة أربع ومائة من الهجرة.

2.5.3 مدرسة التفسير بالمدينة

قامت هذه المدرسة على أُبَيّ بن كعب الأنصاري الخزرجي، أبو المنذر وسيّد القرّاء، ويكنى أبا الطفيل أيضاً، من فضلاء الصحابة قيل إنه توفي سنة (19 هـ)، وقيل سنة (32هـ)، وأشهر تلاميذ هذه المدرسة:

1- أبو العالية: رُفيع -بالتصغير- بن مهران الرِّياحي، ثقة أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين، وهو من كبار التابعين الذين اشتهروا بالتفسير، توفي في سنة تسعين للهجرة.

2- محمد بن كعب القُرَظِيّ المدني، ثقة، كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً، ولد سنة أربعين ومات سنة عشرين ومائة من الهجرة.

3- زيد بن أسلم العدوي، مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان من كبار التابعين الذين عُرفوا بالقول في التفسير، وهو عالم ثقة توفي سنة ست وثلاثين ومائة من الهجرة.

3.5.3 مدرسة التفسير بالعراق

قامت هذه المدرسة على الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، أبو عبد الرحمن، من السابقين الأولين، ومن كبار العلماء من الصحابة. أمّره عمر بن الخطاب على الكوفة ومات سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة، وكان أشهر تلاميذ هذه المدرسة:

أ- علقمة بن قيس بن عبد الله النَّخَعي الكوفي، ثقة ثَبْتٌ فقيه عابد، ولد في حياة رسول الله ﷺ، مات سنة إحدى وستين من الهجرة.

ب- عامر بن شراحيل الشَّعبي، أبو عمرو، ثقة مشهور فقيه فاضل، مات سنة تسع ومائة من الهجرة.

ج- الحسن بن أبي الحسن (واسمه يسار) البصري، مولى الأنصار، ثقة فقيه فاضل مشهور، مات سنة عشر ومائة من الهجرة.

أسئلة التقويم الذاتي (4)

1- هل قول التابعي في التفسير حجة؟

2- اذكر شروط قبول رواية التابعي في التفسير.

3- علل اتساع الخلاف في التفسير في عهد التابعين دون عهد الصحابة.

4- على من قامت مدرسة التفسير بمكة، ومن أشهر رجالاتها؟

5- ضع دائرة حول الجواب الصحيح فيما يلي:

أ- يتبع سعيد بن جبير لمدرسة التفسير:

1- بمكة　　2- بالمدينة

3- بالكوفة　　4- بالعراق

ب- مما تميز به أبو العالية الرياحي أنه:

1- أدرك الجاهلية　　2- من كبار التابعين

3- من تلاميذ مدرسة التفسير بالمدينة　　4- كل ما ذكر صحيح

جـ- قامت مدرسة التفسير بالعراق على:

1- ابن عباس رضي الله عنهما　　2- ابن مسعود رضي الله عنه

3- أبي بن كعب رضي الله عنه　　4- عبد الله بن عمر رضي الله عنهما



4. منهج التفسير

إن من أراد أن ينظر في تفسير القرآن الكريم عليه أن يتجرد من الهوى والبدع، وأن لا يجعل الدنيا تتربع على عرش قلبه، وأن يخلص لله تعالى النية حتى يفتح الله عليه كنوز القرآن، فإن ضعف الإيمان والإصرار على الذنوب حجب وموانع تحول دون التدبر في آيات الله المشاهدة وآياته المسطورة، وفي هذا المعنى قوله سبحانه: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» (الأعراف/146). قال سفيان بن عيينة: يقول تعالى: أنزع عنهم فهم القرآن (ابن جرير 9/60).

ولسوف نحدثك -عزيزي الدارس- هنا عن موضوعين اثنين: الأول منهما كيفية الوقوف على تفسير سورة من القرآن الكريم، والآخر منهج معرفة تفسير القرآن العظيم لطالب التفسير، وما يجب على المفسر أن يتنبه إليه ويحذر منه؛ ففي الموضوع الأول إشارة إلى الملاحظات حول الإطار العام للسورة قبل الدخول إلى آياتها وتفاصيلها، وفي الثاني سبيل الوقوف على معاني الآيات داخل السورة.

1.4 سبيل الوقوف على تفسير سورة من التنزيل

حتى تتمكن -عزيزي الدارس- من الوقوف على تفسير سورة من سور القرآن، عليك أن تراعي الأمور التالية:

1.1.4 نقاء السريرة وإخلاص النية لله تعالى في استكشاف معاني القرآن.

2.1.4 اسم السورة

وعلاقة هذا الاسم بموضوع السورة، ويلاحظ هنا أنه قد يكون للسورة اسم واحد، وهو كثير، وقد يكون لها اسمان فأكثر، وينبغي البحث عن تعدد الأسماء: هل هو توقيفي، أو توفيقي.

3.1.4 فضل السورة

جاءت روايات في فضل العديد من سور القرآن الكريم، نحو قوله عليه السلام: «أعظم سورة في القرآن الحمد لله رب العالمين» (البخاري، صحيح البخاري رقم (420)). وقال عليه السلام في فضل البقرة وآل عمران: «اقرءوا الزّهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صوافّ تحاجان عن أصحابهما،

اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرةٌ ولا تستطيعها البطلة». (أي السحرة) (مسلم، صحيح مسلم، رقم (804) (553/1)). وعلى الباحث أن يحذر الوقوع في الأحاديث الموضوعة في فضائل السور، فأكثر الأحاديث في فضائل السورة غير صحيحة.

قيل لأبي عصمة الجامع (نوح بن أبي مريم): «من أين لك عن عكرمة (مولى ابن عباس) في فضائل القرآن سورة سورة، وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة لوجه الله» (السيوطي، تدريب الراوي: 1/282). وهكذا الحديث الطويل الذي يروى عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في فضل القرآن سورة سورة، فإنه موضوع.

وقد جرت عادة المفسرين الذين ذكروا فضائل سور القرآن أن يذكروها في أول كل سورة، لما فيها من الترغيب والحث على حفظها، إلا الزمخشري فإنه يذكرها في أواخرها، وعلل ذلك كون الفضائل صفات لها، والصفة تستدعي تقديم الموصوف (الزركشي، البرهان: 1/513).

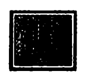
1.4.4 ملاحظة الجو الذي نزلت فيه السورة

من الضروري معرفة تاريخ الدعوة الإسلامية في مكة والمدينة، عند نزول القرآن الكريم، حتى تتضح لنا طبيعة الجو الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي نزل النص القرآني خلاله معالجاً للعديد من القضايا، فمن عَلِم طبيعة أحوال البشر عند نزول القرآن استطاع الوقوف على مدى تأثير القرآن في النفوس، وأساليبه المعجزة في علاجها مراعياً في ذلك الحالة الاجتماعية والنفسية.....

1.4.5 تحديد كون السورة مكية أو مدنية

إن المفسر يستطيع -عند تعارض المعنى في آيتين- أن يميز بين الناسخ والمنسوخ إذا علم أن هذه السورة نزلت قبل تلك، فما نزل سابقاً يُنْسَخ أو يُخَصَّص بالمتأخر نزولاً ما لم ينص على أن بعض آيات السورة متأخرة نزولاً.

كما أن معرفة المكي من المدني تفيد المفسر في حقل الدعوة إلى الله، بأن يميز بين مراحل الدعوة وأساليب الخطاب فيها، فالخطاب يختلف باختلاف المخاطب ومعتقده.



نشاط (2)

ارجع إلى كتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، المجلد الأول، (ص:47) واذكر ضوابط المكي والمدني.

6.1.4 مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، ومناسبة فاتحتها لخاتمتها

المناسبة في اللغة تعني اتصال الشيء بالشيء، ومنه الطريق المستقيم لاتصال بعضه ببعض، ومنه النسيب لاتصاله أو الاتصال به.

والمناسبة في الاصطلاح: وجه الارتباط والاتصال بين جمل الآية الواحدة، وآيات السورة الواحدة، ومطلع السورة مع خاتمتها، والسورة مع ما قبلها وما بعدها وفق ترتيب التلاوة في المصحف العثماني، وهذا الأخير هو الذي يعنينا هنا في هذا المقام، إذ من الضروري معرفة مناسبة السورة مع ما قبلها وما بعدها، وهذا يكشف عن الوحدة الموضوعية لسور القرآن، وأن القرآن الكريم وحدة واحدة متماسك السور من أوله إلى آخره.

ففائدة علم المناسبات أنه يكشف اللثام عن تماسك أجزاء الكلام في القرآن الكريم، وأنه آخذ بعضه بأعناق بعض ليشكل وحدة واحدة متماسكة البنيان ، ومن جهة ثانية فإن علم المناسبات يساعد في الوقوف على مقصود السورة.

ومن جهة ثالثة فإن علم المناسبات يساعد على تذوق إعجاز القرآن والكشف عن أسراره البيانية، ويعمل على تنوير العقول من أجل اكتشاف أسرار الربط والتناسق بين آيات القرآن وسوره، لا سيما أن هذا العلم ليس توقيفياً بل يعتمد على اجتهاد المفسر، ويفتح له الأبواب للنظر والتدبر، فإذا أمعن فيه النظر كشف عن العظات والعبر، وقد أرشدنا الله إلى تدبر آياته والتعرف على إعجاز سبكه وعدم اختلافه، فقال جل شأنه: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» (النساء/82).

وعدَّ البقاعي علم المناسبات في غاية النفاسة، وأن نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو.

ومن أهم المراجع التي تكلمت عن علم المناسبات: كتاب البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن للإمام الحافظ أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (ت:708 هـ)، وهو شيخ أبي حيان، وكتاب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للشيخ برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت:885هـ)، وكتاب: تناسق الدرر في تناسب السور للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

(ت:911 هـ).

وإذا أردت الوقوف على أسرار المناسبة بين مفتتح السور وخاتمتها فانظر سورة القصص، وكيف أن مطلعها خطاب لمحمد ﷺ «نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ» (القصص/3)، ويُدرج الكلام بعد ذلك عن موسى، وما مر به من حالة الضعف أمام قوة الطاغية فرعون، وقارن ذلك بحياة النبي ﷺ في مكة، فموسى ولد ضعيفاً، سعى لإبطال المنكر وإنصاف المظلوم، ثم خرج من مصر خائفاً يترقب، وعاد إليها منتصراً؛ تمكن من دحر فرعون أمام الملأ، وتمكن من إنقاذ بني إسرائيل، وفي ختام سورة القصص، وبعد حديث طويل عن موسى عليه السلام، يعود السياق القرآني في سورة القصص ليقول لمحمد ﷺ «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ» (القصص/85) أي إلى مكة، والعرب تقول : رُدَّ فلان إلى معاده يعني إلى بلده، ولك عزيزي الدارس أن تسأل: ما العلاقة بين ذكر موسى عليه السلام في مفتتح سورة القصص وذكر محمد ﷺ في ختامها؟ وسيظهر لك الجواب إذا قارنت بين الحوادث التي تعرض لها موسى عليه السلام، والحوادث التي تعرض لها محمد ﷺ؛ خاصة إذا علمت أن سورة القصص أو الآية المذكورة أعلاه في خاتمتها، قد نزلت على النبي ﷺ أثناء الهجرة من مكة إلى المدينة، وكأن سياقها جاء ليقول لمحمد ﷺ: لست الوحيد الذي أخرجه قومه «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» (الأحقاف/35) فما أصابك، وما أنت فيه الآن، قد أصاب المرسلين من قبلك فصبروا وثبتوا فأيدهم الله بنصره، وسينصرك الله كما نصر السابقين. ومن لطائف المقارنة بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام أن موسى غاب عن وطنه عشر سنين «فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ» (القصص/27) وقد أتمها موسى لشعيب عليهما السلام، وعاد ليقهر عدوه وينجو بقومه، وهي ذات الفترة التي قضاها محمد عليه السلام في المدينة قبل أن يعود إلى مكة منتصراً.

وستقف -عزيزي الدارس- عند دراستك لسورة محمد في الوحدة الثانية، من هذا المقرر، على مثال لمناسبة السورة لما قبلها وما بعدها.



نشاط (3)

عزيزي الدارس، تأمل في خواتيم سورة الفاتحة ومفتتح سورة البقرة وحاول إيجاد التناسب بينهما.

1.4 محور السورة وموضوعها

من الضروري لمن رام الوقوف على تفسير سورة أن يتعرف على موضوعها، ويحدد معالم شخصيتها المميزة، فقد تحتوي السورة مواضيع متعددة، وعلى الباحث أن يحاول الربط بين هذه المواضيع إذا استطاع ذلك دون تكلف.

وقد جرت عادة كثير من المفسرين أن يعمدوا إلى تقسيم السورة إلى أقسام مختلفة، حسب المواضيع التي تحويها، ثم يشرعوا في تفسيرها؛ فإذا أتموا ذلك تحولوا إلى غيرها وهكذا حتى نهاية السورة. ومن المفسرين الذين قدّموا للسورة قبل الشروع في تقسيمها إلى وحدات الأستاذ سيد قطب رحمه الله، فهو يقدم بين يدي السورة، ويتحدث عن موضوعها والمحور الذي تدور حوله جزئياتها؛ فعند تقديمه لسورة البقرة نجده يقول: «هذه السورة تضم عدة موضوعات، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطاً شديداً، فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة واستقبالهم لها...، وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها...» (قطب، في ظلال القرآن: 1/23)، ويقول في مقدمة سورة مريم: «ويدور سياق هذه السورة على محور التوحيد، هذا النوع الأساسي الذي تعالجه السورة»، ثم يقسم سيد قطب رحمه الله السورة حسب موضوعاتها إلى ثلاثة أشواط (قطب، في ظلال القرآن: 3/422).

ومن الذين اهتموا ببيان محور السورة ووحدتها الموضوعية الإمام محمد عبده في تفسيره للقرآن الكريم، فهو يرى أن لكل سورة من سور القرآن الكريم روحاً يسري في أجزائها، وفكرة عامة تربط بين آياتها، وهو يرى أن فكرة السورة يجب أن تكون أساساً في فهم آياتها، والموضوع يجب أن يكون أساساً في فهم الآيات التي نزلت فيه، وكان هذا من أسباب رفضه كل تفسير لا يحقق التناسق والتوافق بين أجزاء السورة (شحاتة، القرآن والتفسير، ص:141).

وتأثر به في ذلك أساتذة في التفسير في العصر الحديث: السيد محمد رشيد رضا، والأستاذ محمود شلتوت، وكذلك د. محمد عبد الله دراز. أما شلتوت فقد كان يعمد في تفسيره إلى بيان الفكرة العامة للسورة، ويعرض المواضيع التي تعالجها، والمبادئ والحقائق التي تسجلها، وعند حديثه عن سورة البقرة مثلاً -وهي أطول سورة في القرآن- يرى أنها تهدف في

جملتها إلى غرضين أساسيين (شحاتة، القرآن والتفسير، ص: 141).

وأما دراز فقد تحدث عن الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم، وألف في ذلك كتاباً قيماً متميزاً في بابه هو: «النبأ العظيم». ومن جملة ما قال فيه عن الوحدة الموضوعية: «إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حُشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جُمعت عفواً، فإذا هي -لو تدبرت- بنيةٌ متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شُعبٌ وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول: فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة ...... ولماذا نقول: إن هذه المعاني تتسق في السورة كما تتسق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان: فبين كل قطعة وجارتها رباطٌ موضعي من أنفسها، كما يلتقي العظمان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضاً واحداً مع اختلاف وظائفه العضوية» (دراز، النبأ العظيم، ص:155).



تدريب (3)

عزيزي الدارس، لخص مع المناقشة رأي الشوكاني في المناسبات من خلال ما ذكره في تفسيره: «فتح القدير» عند الآية (40) من سورة البقرة.

1.4.8 الاهتمام بما انفردت به السورة وتميزت به عن غيرها

هناك سور انفردت بميزات خاصة بها، ومن ذلك سورة النور التي افتتحت بقوله تعالى «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (النور/1).

فهذا تفرد لا نظير له في باقي سور القرآن، إذ هي السورة الوحيدة التي ابتدأت بما يشير إلى فضلها ومكانتها ومنزلتها، وكأنها افتتاحية للفت نظر القارئ إلى أهمية ما تتضمنه من أحكام، فـ (سورة): أي المنزلة العالية الرفيعة، و الفِعْلُ (أنزلناها) فيه إسناد إلى ضمير الجلالة الدال على العناية بها وتشريفها ... إلخ.

وقد تنفرد السورة بمفردات، أو تراكيب، أو أحكام لم ترد في غيرها من سور القرآن الكريم.

أسئلة التقويم الذاتي (5)

1- ما الفائدة من معرفة الجو الذي نزلت فيه الآية أو السورة؟

2- عرف المناسبة في اللغة والاصطلاح.

3- عدد ثلاثة كتب اعتنت بالمناسبات.

4- لخص رأي محمد عبده في أهمية بيان محور السورة.

5- ما اسم الكتاب الذي تحدث فيه دراز عن الوحدة الموضوعية؟

2.4 منهج معرفة تفسير القرآن الكريم لطالب التفسير

على من أراد أن يقف على تفسير آيات كتاب الله عز وجل أن يلاحظ الأمور التالية:

1.2.4 أن يطلب المعنى من القرآن

فالآية قد تفسرها آيةٌ أخرى من القرآن الكريم، وما أوجز في آيات قد بسط في آيات أخرى؛ وما أُجمل في بعضها بيّن في غيرها، فإن لم يجد فعليه أن يطلب المعنى من السنة النبوية لأنها شارحة للقرآن، وهي مليئة بالتفسير بالمأثور عن رسول الله ﷺ، فإن أعياه الطلب رجع إلى أقوال الصحابة رضوان الله عليهم فهم أدرى بالتنزيل وظروفه وأسباب نزوله، فإن لم يجد في أقوال الصحابة فلينظر في أقوال التابعين عسى أن يجد في أقوالهم ما يعينه على فهم التفسير.

2.2.4 الوقوف على أسباب النزول وقصة الآيات وموقع الآيات من السورة

فإن لكل سورة من سور القرآن روحاً يسري في آياتها، ويسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها، يقول الواحدي (ت:468 هـ): «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها».

إذ يتم به الاستعانة على فهم الآية ودفع الإشكال عنها، قال الشيخ تقي الدين محمد بن علي المعروف بابن دقيق العيد (ت:702هـ): «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن»، وقال ابن تيمية (ت:728هـ): «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»(انظر: السيوطي، لباب النقول، ص: 13، وشحاتة، القرآن والتفسير، ص:148).

2.4.3 معرفة الناسخ والمنسوخ من آيات السورة

فالمفسر يفرق - من خلال هذا العلم - بين الآيات المحكمة والآيات المنسوخة.

2.4.4 الحذر من الوقوع في الإسرائيليات

هناك العديد من المفسرين ذكروا الإسرائيليات في كتبهم لا لجهل منهم، ولا اعتقاداً بها، ولكن بقصد الاستئناس فقط، أو بقصد الترغيب والتشويق خاصة في موضوع القصص، وذكرها بعضهم لغرض التنبيه على بطلانها.

2.4.5 البعد عن الاستدلال بالأحاديث الموضوعة، والتوقف عن الاستدلال بالأحاديث الضعيفة في التفسير

وهذا نجده في كتب التفسير، ولعلك -عزيزي الدارس، أرشدك الله إلى نور الهداية- تسأل هنا لماذا أورد المفسرون في تفاسيرهم مثل هذه الأحاديث...وهنا نقول لك: إن العديد منهم ذكروا الروايات بأسانيدها واكتفوا بذلك، وهم إذ فعلوا ذلك إنما فعلوه لأناس عاشوا في عصرهم كان العلم لغتهم، وقواعد التحديث منهجهم، فكان الواحد منهم إذا نظر في إسناد رواية ما، عرف من كان فيها من الوضاعين والضعفاء، فابن جرير -رحمه الله- يشهد بنفسه على بعض الروايات التي يرويها بالضعف، حيث يقول بعد رواية أوردها في تفسيره: «فإن كان ذلك صحيحاً ولست أعلمه صحيحاً إذ كنت بإسناده مرتاباً...» (ابن جرير: 1/156).

2.4.6 عدم الاسترسال فيما لا فائدة فيه

على المفسر أن لا يسترسل في الوقوف على تفاصيل القصص وما لا فائدة فيه، ولا حاجة إلى معرفته كاختلاف أقوال المفسرين في اسم الغلام الذي قتله الخضر -عليه السلام- واسم كلب أصحاب الكهف، واختلافهم في جزء البقرة الذي ضرب به القتيل، فقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة مختلفة ولا حجة في شيء منها، كما أنه أمر لا يترتب عليه أهمية. قال ابن جرير: «والصواب من القول في تأويل قوله «فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا» (البقرة/73) أن يقال: أمرهم الله جل ثناؤه أن يضربوا القتيل ببعض البقرة ليحيا المضروب، ولا دلالة في الآية ولا خبر تقوم به حجة من أي أبعاضها التي أمر القوم أن يضربوا القتيل به، وجائز أن يكون الذي أمروا أن يضربوه به هو الفخذ، وجائز أن يكون ذلك الذنب، وغضروف الكتف، وغير ذلك من أبعاضها، ولا يضر الجهل بأي ذلك ضربوا القتيل، ولا ينفع العلم به مع الإقرار بأن القوم قد

ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها فأحياه الله» (ابن جرير: 360/1).

7.2.4 البعد عن غرائب التفسير

غرائب التفسير تشبه الحديث المنكر أو الغريب، والمراد بها ما قيل في القرآن من الأقوال الغريبة التي لا يحل حمل القرآن عليها، ولا يحل ذكرها إلا على سبيل التحذير منها، نحو قول من قال (الم): معنى (ألف) أَلِفَ الله محمداً فبعثه نبياً، ومعنى (لام) لامه الجاحدون وأنكروه، ومعنى (ميم) مَيمَ الجاحدون المنكرون، من المُوم وهو البرسام، وهو علّة.

ومن ذلك ما ذكره بعضهم في تفسير قوله تعالى: «وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» (البقرة: 260): إن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه، أي ليسكن هذا الصديق إلى هذه المشاهدة إذا رآها عياناً.

8.2.4 مراعاة التناسب بين فقرات الآية الواحدة، وبين الآيات بعضها مع بعض

وذلك لإظهار الوحدة الموضوعية بين الآيات، السابق منها واللاحق، مما يوضح أن القرآن تتناسب آياته ويأخذ بعضها بحُجَزِ بعض.

9.2.4 البدء بتفسير ما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة، والصرف، والاشتقاق، والمؤاخاة بين المفردات

وإن مما ننصح به طالب العلم أن يقرأ القرآن من المصاحف المفسرة التي تبيّن معاني المفردات، لأن معرفة المعاني تعين على الفهم الذي يوصل إلى تدبر آيات كتاب الله. وعلينا أن نلحظ هنا أن كل لفظة من كتاب الله تعالى لها موقعها الخاص بها، بحيث أنك لو حاولت أن تجد كلمة بديلة لأخرى من كتاب الله فإنك لن تجد إلا إذا كانت الأخرى قراءة متواترة. ومن الجيد أن يستعين الطالب بكتاب (المفردات في غريب القرآن) لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502هـ). كما أن من الواجب أن يلمَّ الطالب بأصل الكلمة وتصاريفها، حتى تتفتح قريحته لإدراك المعاني الواسعة المحيطة بالمفردات القرآنية.

10.2.4 ملاحظة الوجه الإعرابي والبلاغي للتراكيب القرآنية، والوقوف على معانيها وعلى الإعجاز البياني للقرآن الكريم

فإن القرآن الكريم جاء بنظم أعجز البلغاء والفصحاء، وشهد له الخصوم اللد، حيث

شنّف آذانهم وأنطق ألسنتهم بمدحه من حيث لا يشعرون، غير أن غيهم وعنادهم وكبرهم منعهم من الإيمان به. ويمكن للطالب هنا أن يقف على سرّ تميز القرآن الكريم عن سائر نظوم العرب من خلال الرجوع إلى كتب الإعجاز المختلفة، وكتب التفسير التي أظهرت الجانب البياني للقرآن الكريم كتفسير (الكشاف) للزمخشري، وكذلك كتب إعراب القرآن نحو (إعراب القرآن الكريم وبيانه) لمحيي الدين الدرويش.

2.4.11 مطابقة التفسير للكلام المفسَّر من غير نقص ولا زيادة، وموافقة سياق الآيات

إذ ينبغي للكلام المفسِّر أن يكون موافقاً للمفسَّر بحيث يوضح المعنى الذي جاءت الآيات تقرره، فلا يفترض فيه أن يأتي بمعان جديدة لم تكن مرادة للآيات، ولا أن يكون نافراً عما سيقت الآيات لبيانه والكلام عنه.

2.4.12 تقديم المعنى الحقيقي على المعنى المجازي

فإنه لا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذر حمل النص على الحقيقة، فيكون المراد هو المعنى المجازي.

2.4.13 الوقوف على التفسير العلمي للآيات إن وجد

ويمكن الوقوف على تفسير الآيات القرآنية بالحقائق العلمية الثابتة، وذلك وفق شروط التفسير العلمي للآيات القرآنية.

2.4.14 الجمع بين الأقوال المختلفة

على المفسر أن يتقن الجمع والتنسيق بين الروايات والأقوال المختلفة في التفسير إذا كانت محتملة، وأن يكون يقظاً إذا تعذر الجمع بينها بأن يرجح ويختار ما يناسب النص منها.

2.4.15 استنباط الدروس والعبر

فإن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، وعلى المفسر أن يتدبر آياته ويستخرج ما ترشد إليه الآيات، على أن يكون استنباطه مضبوطاً بما سبق ذكره في النقاط السابقة، ومنسجماً

مع اللغة والشريعة. وذلك حتى يُنْزِل أحكام الآيات على الواقع المعاصر. فالقرآن بما يُستنبط منه من الفوائد والدروس والعبر والعظات صالح لكل زمان ومكان.

أسئلة التقويم الذاتي (6)

1- لماذا أورد المفسرون في تفاسيرهم العديد من الإسرائيليات والروايات الموضوعة؟

2- ما المقصود بغرائب التفسير؟

3- متى يصار إلى المجاز في تفسير الآية؟

4- هل يجوز تفسير القرآن بالنظريات العلمية؟

5. أسباب الاختلاف في التفسير

عزيزي الدارس، مرَّ بك في مساق علوم القرآن أن النبي ﷺ بيَّن لأصحابه الكثير من معاني القرآن، غير أنه لم يفسر القرآن كله، وكان عليه الصلاة والسلام يجيب الصحابة عما أشكل عليهم من تفسير القرآن الكريم، وأيضاً كان الصحابة بطبيعتهم يفهمون القرآن بسليقتهم؛ فهم أهل العربية والبيان، وكانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، لأجل ذلك تعلموا القرآن والعلم والعمل جميعاً.

ولم يكن ثمة خلاف بين الصحابة في تفسير القرآن الكريم، فالنبي عليه السلام بين ظهرانيهم يجيب عن أسئلتهم إذا أشكل عليهم تفسير شيء من كتاب الله، روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» (الأنعام/82)، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله: أينا لا يظلم نفسه، قال: ليس ذلك إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه «يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» (لقمان/13). (البخاري، صحيح البخاري رقم (3181) (3/1226) ورقم (3246) (3/1262)، ومسلم، صحيح مسلم، رقم (124)، (114/1)).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «إن آخر ما نزل من القرآن آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض ولم يفسرها، فدعوا الربا والريبة» (أحمد، المسند، رقم (246)، 1 /36، وابن ماجه، سنن ابن ماجه رقم (2276)، (764/2)).

فدل هذا على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يرجعون إلى النبي ﷺ في كل ما يُشْكِل عليهم، فيفهموا بيانه وتفسيره من الرسول ﷺ.

ومن منطلق وصية الرسول عليه السلام لأصحابه بتبليغ هذا الدين قائلاً لهم: «بلغوا عني ولو آية» (البخاري، رقم (3274) (3/1275)). فقد قام الصحابة بدورهم بتعليم التابعين تفسير القرآن الكريم، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، فقد ورد عن مجاهد بن جَبْر قال: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها» (ابن كثير، 6/1).

ومن هنا فإنه يمكن القول: إن الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وغالبُ ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد (انظر هذا في: مجموع فتاوى ابن تيمية (5/161، و 381/13)، وابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير (ص: 43-37)، والسيوطي، الإتقان (4/176)).

وسنحدثك، عزيزي الدارس، عن سبب اختلاف المفسرين وفق مرحلتين، الأولى نبين فيها بعض الصور والأسباب التي أظهرت تباين أقوال المفسرين في عهد الصحابة وأئمة التابعين، والثانية نبين فيها أسباب الاختلاف عند المفسرين عموماً.

1.5 أسباب توهم اختلاف التفسير عن الصحابة وأئمة التابعين

1.1.5 أن يكون بعض المنقول عنهم ضعيفاً

فمن المعلوم أن تفسير الصحابي والتابعي هو من قبيل التفسير بالمأثور، لأنه لا يمكن لنا أن نقف على تفاسيرهم إلا من خلال الرواية، وقد تكون بعض هذه الروايات من قبيل المرفوع إلى رسول الله ﷺ، فإذا وقفنا على روايات متعارضة في التفسير عن الصحابة، وأمكن لنا أن نميز الصحيح من الضعيف فإننا نقدم الصحيح، ويمكن التمثيل لذلك بما ورد في سبب نزول سورة الضحى، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: «اشتكى النبي ﷺ فلم يقمْ ليلة أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك». فأنزل الله تعالى: «وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى» (الضحى/1-3)، (البخاري، رقم (4667)، (1892/4) ورقم (4698) (4/1906)، ومسلم رقم (1797)(3/1422))، وأخرج الطبراني في المعجم الكبير من طريق حفص بن سعيد القرشي قال: حدثتني أمي عن أمها -وكانت خادمَ رسول الله ﷺ- أن جرواً دخل بيت النبي ﷺ، فدخل تحت السرير ومات، فمكث نبي الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحي فقال: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ﷺ، جبريل لا يأتيني فهل حدث في بيت رسول الله حدث؟ فقلت والله ما أتى علينا يوم خير من يومنا، فأخذ برده فلبسه وخرج، فقلت لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا شيء ثقيل فلم أزل حتى أخرجته، فإذا بجرو ميت فأخذته بيدي فألقيته خلف الدار، فجاء نبي الله ترعد لحيته، وكان إذا أتاه الوحي أخذته الرعدة، فقال: يا خولة دثريني، فأنزل الله: «وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى» (الضحى/1-3) (المعجم الكبير، رقم (636)، (249/24)). وهذه الرواية ضعيفة، ففي إسنادها من لا يعرف، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن متن الرواية أيضاً فيه نظر؛ إذ ليس من المعقول أن يمكث الكلب مدة أربعة أيام - كما جاء في بعض الروايات - ولا تشتم له رائحة، ثم إن النبي ﷺ لم يكن لديه سرير مرتفع حتى يتمكن الكلب من الاختباء تحته، وأيضاً: ألم يكن الوحي ينزل على النبي ﷺ إلا في بيته؟!

فإذا ثبت ضعف هذه الرواية، فإننا نقدم الرواية الأولى لصحتها، وبهذا يتبين أن التعارض الموجود في بيان سبب النزول هنا ليس تعارضاً حقيقياً، وأن ما أوهم التعارض هو دخول الرواية الضعيفة.

وعليه فعند اختلاف الروايات في التفسير، فإن الرواية الصحيحة تتقدم على الرواية الضعيفة، قال الشوكاني: «ولا اعتبار بما لم يصح كالتفسير المنقول بإسناد ضعيف» (الشوكاني، فتح القدير، 12/1).

1.5.2 أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة تخالف عبارة صاحبه، تدل على معنى في المسمّى غير المعنى الآخر، مع اتحاد في المسمّى

وهذا كما قيل في اسم السيف إنه الصارم، والمهند، والبتار، ونحو أسماء الله وأسماء القرآن، فإن أسماء الله كلها -وإن اختلفت ألفاظها- تدل على مسمى واحد، وليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر، بل الأمر كما قال تعالى: «قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» (الإسراء/110)، فأنت ترى أن أسماء الله الحسنى كلها تدل على ذاته، ويدل كل اسم منها على صفاته بما لا يدل الاسم الآخر، فهي متفقة في الدلالة على الذات، متنوعة في الدلالة على الصفات.

ومثال هذا التفسير كلام العلماء في تفسير الصراط المستقيم، فهذا يقول: هو الإسلام، وهذا يقول: هو القرآن، أي اتباع القرآن، وهذا يقول: السنة والجماعة، وهذا يقول طريق العبودية، وهذا يقول طاعة الله ورسوله، فأنت ترى هنا أن أقوال السلف متعددة، وعباراتهم مختلفة في تفسير (الصراط المستقيم)، ومعلوم أن الصراط يوصف بهذه الصفات كلها، ويسمى بهذه الأسماء كلها، ولكن كل واحد منهم دل على النعت الذي به يعرف الصراط، وينتفع بمعرفة ذلك النعت.

1.5.3 أن يذكر كل واحد من السلف من الاسم العام بعض أنواعه، أو أعيانه، على سبيل التمثيل للمخاطب لينبه المستمع إلى النوع لا على سبيل الحصر والإحاطة

ومن هذا ما جاء عنهم في تفسير قوله تعالى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» (فاطر/32).

فالقول الجامع في تفسير هذه الآية: أن الظالم لنفسه: هو المفرط بترك مأمور أو فعل محظور، والمقتصد: القائم بأداء الواجبات وترك المحرمات، والسابق بالخيرات بمنزلة المقرب الذي يتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض حتى يحبه الحق.

وإذا نظرنا في التفسير المنقول عن السلف رضوان الله عليهم أجمعين نجد أن كلاً منهم يذكر نوعاً من هذا.

فإذا قال القائل: الظالم هو المؤخر للصلاة عن وقتها، والسابق المصلي لها في أول وقتها حيث يكون التقديم أفضل.

وقال آخر: الظالم لنفسه هو البخيل الذي لا يصل رحمه ولا يؤدي زكاة ماله، والمقتصد: القائم بما يجب عليه من الزكاة وصلة الرحم، وقرى الضيف، والإعطاء في النائبة، والسابق: الفاعلُ المستحبَّ بعد الواجب؛ كما فعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين جاء بماله كله فوضعه بين يدي رسول الله ﷺ.

وقال آخر: الظالم لنفسه الذي يصوم عن الطعام لا عن الآثام، والمقتصد الذي يصوم عن الطعام والآثام، والسابق: الذي يصوم عن كل ما لا يقربه إلى الله تعالى.

فإن هذه الأقوال الواردة في تفسير الآية -وإن كانت متعددة- ليست متنافية ولا متناقضة، بل كل قول منها ذكر نوعاً مما تناولته الآية.

وهذا القول مع سابقه هو الغالب فيما يتوهم فيه اختلاف تفسير سلف الأمة، قال ابن تيمية بعد أن أورد أعلام المفسرين من التابعين «... فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك، فإنَّ منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو نظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن» (فتاوى ابن تيمية،370/13، وتفسير ابن كثير، 6/1).

ويقرب من هذا ما نبه عليه الزركشي حيث قال: «يكثر في معنى الآية أقوالهم واختلافهم، ويحكيه المصنفون للتفسير بعبارات متباينة الألفاظ، ويظنُّ مَنْ لا فهم عنده أن في ذلك اختلافاً فيحكيه أقوالاً، وليس كذلك، بل يكون كل واحد منهم ذكر معنىً ظَهَرَ من الآية، وإنما اقتصر عليه لأنه أظهرُ عند ذلك القائل، أو لكونه أليق بحال السائل، وقد يكون بعضهم يخبر عن الشيء بلازمه ونظيره، والآخر بمقصوده وثمرته، والكل يؤول إلى معنى واحد غالباً، والمراد الجميع، فليُتفطن لذلك، ولا يُفهم من اختلاف العبارات اختلاف المرادات كما قيل:

عباراتُنا شتّى وحُسنك واحدٌ وكلٌّ إلى ذاك الجمال يُشيرُ

هذا كله حيث أمكن الجمع. فأما إذا لم يمكن الجمع فالمتأخر من القولين عن الشخص الواحد مقدم عنه إن استويا في الصحة. وإلا فالصحيح المقدم. وكثيراً ما يذكر المفسرون شيئاً في الآية على جهة التمثيل لما دخل في الآية. فيظن بعض الناس أنه قَصَر الآية على ذلك» (الزركشي. البرهان (177-2/76)).

1.5.4 أن يذكر أحدهم لنزول الآية سبباً ويذكر الآخر سبباً آخر لا ينافي الأول. ومن الممكن نزولها لأجل السببين جميعاً أو نزولها مرتين مرة لهذا ومرة لذاك

ويمكن أن نمثل لتعدد أسباب النزول بما أخرجه البخاري وغيره في سبب نزول قوله تعالى «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (النور/9-6).

فقد أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء. فقال النبي ﷺ: البينة أوْ حَدٌّ في ظهرك. فقال: يا رسول الله. إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل يقول -عليه السلام- البينة وإلا حَدّ في ظهرك. فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد. فنزل جبريل وأنزل عليه «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ» ...الحديث (البخاري رقم (2526). 949/2. ورقم (4470). (1772/4)).

فهذه رواية صحيحة في سبب نزول الآية أخرجها البخاري في صحيحه. ومع ذلك فقد أخرج البخاري أيضاً في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن عويمراً أتى عاصم بن عدي وكان سيد بني عجلان. فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً: أيقتله فتقتلونه! أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله ﷺ عن ذلك. فأتى عاصمٌ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله... فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها. فقال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك. فجاء عويمر فقال: «يا رسول الله: رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك: فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة..الحديث» (البخاري. رقم (4468) (4/1771)). قال الزرقاني: «فهاتان الروايتان صحيحتان.

ولا مرجح لإحداهما على الأخرى، ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما لقرب زمانيهما، على اعتبار أن أول من سأل هو هلال بن أمية، ثم قفاه عويمر قبل إجابته، فسأل بواسطة عاصم مرةً وبنفسه مرةً أخرى، فأنزل الله الآية إجابة للحادثين معاً، ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع أولى من إعمال إحداهما وإهمال الأخرى، إذ لا مانع يمنع الأخذ بهما على ذلك الوجه، ثم لا جائز أن نردَّهما معاً لأنهما صحيحتان ولا تعارض بينهما، ولا جائز أيضاً أن نأخذ بواحدة ونردّ الأخرى، لأن ذلك ترجيح بلا مرجح، فتعين المصير إلى أن نأخذ بهما معاً» (الزرقاني، مناهل العرفان، (120/1)).

وانظر مسألة تكرار النزول عند الزرقاني (1/120)، علماً أن هذه المسألة خلافية بين العلماء ليس هذا مكان بحثها، والذي تطمئن إليه النفس أنه لا مانع من تكرار النزول، وما استزادة الرسول ﷺ لجبريل حين نزل بالقرآن إلا من هذا القبيل، وذلك في قوله عليه السلام: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزلْ أستزيدهُ ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرفٍ» (البخاري، ومعه فتح الباري رقم (3219) (352/6)). إذ الأحرف السبعة لم تنزل إلا في المدينة المنورة وفق الروايات الصحيحة الثابتة التي عينت مكان نزولها، وهي -أي الأحرف السبعة- لم تكن خاصة بالسور المدنية بل شملت السور المكية التي نزلت من قبل، فتعين أنها نزلت مرة ثانية وفق الأحرف السبعة.

تنبيه:

يتبين لنا من خلال ما سبق ذكره أن الخلاف الذي كان بين السلف إنما هو، في جُلِّه، خلاف تنوع وليس خلاف تضاد، ومع ذلك فإن ما صح عن السلف أنهم اختلفوا فيه اختلاف تناقض فهو قليل جداً، كما أن تنازعهم في بعض مسائل السنة، كبعض مسائل الصلاة والزكاة والحج والفرائض والطلاق ونحو ذلك، لا يمنع أن يكون أصل هذه السنن مأخوذاً عن النبي ﷺ، وجملها منقولة عنه بالتواتر، ويمكن أن يكون مرد ذلك ما استنبطوه واستخرجوه باجتهادهم من الكتاب والسنة (انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية 5/163).

2.5 أسباب اختلاف التفسير عند المفسرين عموما

إضافة لما سبق بيانه من الأمور التي أدت إلى ظهور الخلاف بين الصحابة وأئمة التابعين، فهناك أمور أخرى (انظر: الذهبي، التفسير والمفسرون (1/132)، والعك، أصول التفسير وقواعده (ص:86)، والشاعر، منهج الإمام ابن جرير الطبري في الترجيح بين أقوال المفسرين، ص:31).

ويمكن إجمال أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الخلاف بين المفسرين في الأمور

التالية:

2.5(1) اختلاف القراءات

وذلك بأن يكون في الآية الواحدة قراءتان أو قراءات، فيفسر كل منهم حسب قراءة مخصوصة، فيظن ذلك اختلافاً وليس كذلك؛ ومن أمثلته:

قوله سبحانه: «وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ» (التكوير/24) فقد قرئت (ضنين) بالضاد والظاء.

فالقراءة بالضاد معناها أن النبي ﷺ لن يبخل عليهم بتعليمهم وإبلاغهم ما أنزل الله إليهم، مِنْ ضَنّ بالشيء إذا بخل به، والقراءة بالظاء معناها أنه غير متهم فيما يخبرهم به عن الله أن يغيره أو يزيد فيه؛ لأن الظنين هو المتهم.

وكل من المعنيين: البخل والاتهام، منقول عن المفسرين، ومعناه صحيح لأنه مستند لقراءة صحيحة متواترة، وهذا كثير في كتب التفسير، ولا يعد اختلاف التفسير الناشيء عن اختلاف القراءات اختلافا حقيقياً بين المفسرين؛ لأن هذه الأقوال لا تفسر الشيء ذاته تفسيرات متباينة، بل هي تختلف لاختلاف القراءات في الآية، ولا يخفى أن تعدد القراءات بمنزلة تعدد الآيات.

وقد يترتب على اختلاف القراءة اختلاف وجوه الإعراب، وبالتالي تعدد التفسير، وذلك نحو قوله سبحانه: «فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ» (البقرة/37) برفع «آدم» ونصب «كلمات» وبالعكس، فالأول: على معنى أن آدم عليه السلام هو الذي استقبل الكلمات بالأخذ والقبول، وعلى الثاني: إن الكلمات هي التي استقبلت آدم عليه السلام.

2.5(2) الاختلاف في الأصل اللغوي للكلمة

ومثاله قوله تعالى:«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ» (الملك/30) فقد اختلف المفسرون في تفسير (معين):

فقيل: إنه ظاهر تراه العيون، فعلى هذا أصله معيون بوزن مفعول، كمبيع أصله مبيوع.

وقيل: هو من معن الماء أي كثر، فهو على هذا فعيل لا مفعول، فالميم على الثاني أصلية وعلى الأول زائدة.

لذلك احتملت كلمة معين كثرة الماء وجريانه، أو أنه ظاهر سهل المأخذ؛ وكلا المعنيين يوافق تفسير الآية.

3.2.5 اشتراك اللفظ بين معنيين فأكثر

فقد تدل الكلمة القرآنية على أكثر من معنى، فيختلف العلماء في تحديد المراد منها. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: «فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ» (القلم/20) فقد ذكر المفسرون فيها أربعة أقوال هي:

الأول: أصبحت كالليل، لأنها اسودت لما أصابها، والصريم في اللغة الليل.

الثاني: أصبحت كالنهار، لأنها ابيضت كالحصيد، ويقال: صريم الليل والنهار.

الثالث: الصريم الرماد الأسود بلغة بعض العرب.

الرابع: أصبحت كالصريم، كالمصرومة، أي المقطوعة.

ومن أمثلته أيضا قوله تعالى: «وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ» (البقرة/228)، والقرء في اللغة يطلق على الطهر ويطلق على الحيض، لذلك فقد اختلف المفسرون في بيان المراد من الآية؛ فذهب بعضهم إلى أن عدة المطلقة ثلاثة أطهار، وذهب فريق آخر إلى أن عدتها ثلاث حيضات، وكلاهما قد استفاد من دلالة (قروء) على المراد الذي أيده.

4.2.5 احتمال الإطلاق والتقييد في الآية

ومثال ذلك قوله تعالى في كفارة اليمين: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» (المائدة/89) فقد اشترط أبو حنيفة والثوري التتابع فيها، واستندا إلى قراءة شاذة هي ما روي عن أبي بن كعب وابن مسعود رضي الله عنهما أنهما قرأا (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) فعدّا التتابع شرطاً في صيامها، وجوّز الشافعي صيامها متفرقة لأنه لا يرى القراءة الشاذة حجة، وحمل الآية على الإطلاق ولم يقيدها بلفظ (متتابعات).

5.2.5 احتمال العموم والخصوص

ومن أمثلته قوله تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» (النساء/54) قيل في المراد بالناس سيدنا محمد ﷺ، حيث حسدوه أن أعطاه الله سبحانه النبوة.

وقيل: المراد به من أرسل منهم النبي، أو آل النبي ﷺ. فعلى التفسير الأول يكون لفظ (الناس) خاصاً، وعلى التفسير الثاني يكون عاماً.

6.2.5 احتمال الحقيقة والمجاز

ومثال ذلك قوله تعالى: «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى» (النجم/43) أي خلق سبحانه في آدم الضحك المعروف والبكاء المعروف، وعلى هذا التفسير يكون النص على الحقيقة.

وثمة قول آخر ذكره المفسرون: أنه أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر، وهذا من قبيل المجاز، والصحيح أنه عبارة عن الفرح والحزن؛ لأن الضحك دليل على السرور والفرح، كما أن البكاء دليل على الحزن.

7.2.5 أن يكون الكلام في الآية محتملا للتقديم والتأخير

ومثال ذلك قوله سبحانه لعيسى عليه السلام: «إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ» (آل عمران/55)، قيل هذا من المقدم والمؤخر، أي رافعك إليّ ومتوفيك، وهذا أحد تأويلات اقتضاها مخالفة ظاهر الآية للمشهور المصرح به في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: «وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (751) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ» (النساء/158-157).

وقيل: المراد إني قابضك ومتوفي شخصك من الأرض، من توفى المال بمعنى استوفاه وقبضه، وقيل: إن المراد بالوفاة هنا: النوم، لأنهما أخوان ويطلق كلٌّ منهما على الآخر، وقيل: معناه أجعلك كالمتوفى لأنه بالرفع يشبهه.

8.2.5 أن يكون في الآية محذوف، فيختلف العلماء في تقديره

ومثال ذلك قوله تعالى عن المنافقين: «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » (البقرة/9).

ومن الظاهر هنا أن الآية لم تعيِّن ما يشعرون به، وقد ذكر المفسرون في تحديد ذلك قولين:

الأول: (وما يشعرون) إطلاع النبي ﷺ على كذبهم.

الثاني: (وما يشعرون) إضرارهم بأنفسهم بسبب كفرهم.

9.2.5 احتمال أن يكون الحكم منسوخا أو محكما

والملاحظ أن بعض العلماء قد بالغوا في النسخ وتوسعوا فيه، وعدوا كل ما مِنْ شأنه أن يكون تسامحاً، أو عفواً، أو حثاً على الصبر، وتحمل أذى الكفار، أيام ضعف المسلمين

من باب المنسوخ بآيات القتال؛ مع أنها ليست منسوخة. فالصبر حيث الضعف. والجهاد حيث القوة. ومنشأ تزيُّدهم من ذكر الناسخ والمنسوخ في القرآن أنهم انخدعوا بكل ما نقل عن السلف أنه منسوخ. وفاتهم أن السلف لم يكونوا يقصدون بالنسخ هذا المعنى الاصطلاحي. بل كانوا يقصدون ما هو أعم منه مما يشمل بيان المجمل وتقييد المطلق ونحوهما (انظر الزرقاني. مناهل العرفان. 2/274). وقد حصر السيوطي ما يصلح لدعوى النسخ من آيات القرآن في اثنتين وعشرين آية. ثم ذكر أن ما صح القول فيه إنه منسوخ قليل جداً (انظر:السيوطي. الإتقان. 64/3).

ويمكن التمثيل لاختلاف المفسرين في الناسخ والمنسوخ في قوله تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» (البقرة/180) فالآية تفيد أن الوصية للوالدين والأقربين فرض مكتوب. وحق واجب. على من حضره الموت من المسلمين. وقد اختلف في نسخ هذه الآية وفي ناسخها. فقيل «إنها منسوخة بآية المواريث. وقيل: بالسنة. وقيل: بإجماع الأئمة على عدم وجوب الوصية للوالدين والأقربين. وذهب فريق من المفسرين إلى أن الآية محكمة غير منسوخة. وحملها بعضهم على أن الوصية واجبة على من حُرم الإرث من الأقربين. وبعضهم يحملها على من له ظروف تقتضي زيادة العطف عليه...»(الزرقاني. مناهل العرفان. 2/276).



نشاط (4)

ارجع إلى كتب علوم القرآن. ولخص الأسباب التي أدت إلى مبالغة بعض العلماء في حجم الناسخ والمنسوخ. يمكنك الرجوع إلى كتاب مناهل العرفان للزرقاني (2/273).

10.2.5 أن يرد في آية ضمير. أو اسم إشارة. فيختلف العلماء فيما يرجع إليه الضمير أو اسم الإشارة؛ لأن سياق الآيات فيه أكثر من جهة. أو لأن نظم الآية يحتمل تعدد المقصود

ومثال ذلك قوله تعالى: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ» (البقرة/23) فالضمير في مثله قد يعود على القرآن أو على محمد ﷺ. قال السيواسي: «أي من مثل القرآن. يعني على صفته في البيان الغريب وحسن النظم. وعلوه في الطبقة. أو من مثل محمد عليه الصلاة والسلام. يعني: من بشر يشبهه عربياً أمياً لم يقرأ الكتاب. ولم يتعلم من أحد» (السيواسي. عيون التفاسير. 119/1).

تدريب (4)

قال تعالى: «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا» (الكهف/51).

ارجع إلى تفسير هذه الآية، وبيّن الأقوال في عود الضمير الوارد في قوله تعالى (ما أشهدتهم).

2.5.11 اختلاف المفسرين في تحديد المخاطب

ومثال ذلك قوله تعالى: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (البقرة/23)، قال بعضهم: هذا الخطاب لليهود..أي فأتوا بسورة من التوراة وقابلوها بالقرآن فتجدوها موافقة لما في التوراة، فتعلموا به أن محمداً ﷺ لم يختلقه من تلقاء نفسه وأنه من الله تعالى، وادعوا بأحباركم ورهبانكم يعني عُبَّادكم. وقال بعضهم: نزلت في شأن المشركين، أي إن كنتم في شك مما أنزل الله على محمد ﷺ من القرآن، وتقولون: إنه اختلقه من تلقاء نفسه، فاختلقوا سورة من مثل القرآن لأنكم شعراء وفصحاء، واستعينوا بآلهتكم. ومن الملاحظ هنا أن تفسير الآية اختلف وفقاً لتحديد المخاطب بها.

2.5.12 أن يذكر في الآية عدة أشياء ثم ترد كلمة متعلقة بما قبلها، فيختلف العلماء بما تعلقت به

ومثال ذلك قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (البقرة/208).

فكلمة كافة يمكن أن ترجع إلى (السلم) فيكون المعنى: ادخلوا في جميع شرائع الإسلام، ويمكن أن ترجع إلى الداخلين فيه، فيكون المعنى: ادخلوا كلكم في الإسلام.

2.5.13 أن يختلف العلماء في تحديد المستثنى منه، وفي (ما) موصولة أو نافية، والعطف، ونحو ذلك

ومثال اختلافهم في تحديد المستثنى منه قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً

أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» (النور/5-4).

فذهب مالك والشافعي إلى أن الاستثناء إذا تعقب جملاً معطوفة عاد إلى جميعها، وعند أبي حنيفة وجلّ أصحابه الاستثناءُ إلى أقرب مذكور وهو الفاسق، ولهذا لا تقبل شهادته (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 180/12).

وسيأتي مزيد بيان لهذه الآية في الوحدة الدراسية الثالثة من هذا المقرر عند تفسير سورة النور.

ومثال (ما) قوله تعالى: «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ» (البقرة/102).

فذهب بعض المفسرين إلى أن (ما) في قوله (وما أنزل) نافية؛ أي أن السحر لم ينزل على الملكين ألبتة، وأن هاروت وماروت كانا رجلين يتظاهران بالتقوى والصلاح في بابل، فظن الناس أنهما ملكان، وذهب فريق آخر من المفسرين إلى أن (ما) موصولة، وأن الملكين هاروت وماروت أُنزلا من السماء لاختبار الناس وامتحانهم، فلله أن يختبر عباده بما شاء وكيف شاء، وقد امتحنهم بإبليس -وهو أساس الشر- فلا عجب إذاً أن يختبرهم بالملكين الذين بينا للناس أن السحر فتنة مؤدية للكفر.

وختاماً: فإن اختلاف المفسرين -في غالبه- يعود إلى ما اتسم به النظم القرآني من غزارة المعاني وتنوع أساليب البيان، أخرج سعيد بن منصور عن سفيان قال: «ليس في تفسير القرآن اختلاف، إنما هو كلام جامع يراد به هذا وهذا» (سنن سعيد بن منصور (ت:227هـ)، رقم 1061، 312/5)، وفي روايات عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «إن القرآن حمّال ذو وجوه» (انظر السيوطي، مفتاح الجنة، ص:59).

أسئلة التقويم الذاتي (7)

1- ورد في نزول سورة الضحى سببان، اذكرهما وبين الراجح منهما مع التعليل.

2- عدد الأسباب التي أوهمت اختلاف الصحابة في التفسير.

3- مع أن الاختلاف الوارد عن الصحابة في معظمه اختلاف تنوع، إلا أن هناك بعض المواضيع كان الخلاف فيها اختلاف تضاد، وضح ذلك مع المناقشة.

4- هل يعد اختلاف التفسير وفق القراءات القرآنية سبباً جوهرياً لاختلاف المفسرين؟

5- من أسباب اختلاف المفسرين اشتراك اللفظ بين معنيين فأكثر، اشرح ذلك مع التمثيل.

6- فسّر قوله تعالى: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» (المائدة/89) على ضوء التقييد الوارد في قراءة ابن مسعود بأنها أيام متتابعات.

7- وضح إلى من يعود الضمير في قوله تعالى: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ» (البقرة/23).

6. أهم كتب التفسير وأشهرها

عزيزي الدارس، نعرض لك أهم كتب التفسير وأشهرها، مرتبة وفق سنوات وفيات مؤلفيها، وهي:

1.6 جامع البيان عن تأويل آي القرآن

* مؤلف التفسير:

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، ولد سنة (224هـ) وتوفي سنة (310هـ).

* التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفه فيه:

1- يعد تفسير ابن جرير من أهم كتب التفسير وأجلها وأعظمها؛ قال النووي: «كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحدٌ مثله» (النووي، تهذيب الأسماء واللغات: 1/78).

2- ينقل أقوال السلف بأسانيدها.

3- جمع بين العقل والنقل، فهو يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، ويخوض في الإعراب والاستنباط.

4- اهتم بالمذاهب النحوية والأحكام الفقهية.

5- يذكر في تفسيره الروايات الضعيفة، وبعض الإسرائيليات بإسنادها إلى من اشتهر بها، وهم: كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وابن جريج، والسدي، وغيرهم، ثم لا يتعقب هذه الروايات بالتضعيف لأنه اعتمد منهج المحدثين المقرر في أصول الحديث: من أسند لك فقد حمّلك البحث عن رجال السند، وأحياناً ينتقد رجال السند بتجريح أو تعديل.

6- يقف عند القراءات في الآية القرآنية ويعمل على توجيهها.

تدريب (5)

ضع دائرة حول الإجابة الصحيحة فيما يلي:
1- أطلق لقب (الطبري) على محمد بن جرير نسبةً إلى:
أ- ضلوعه في العلم   ب- طبريا
جـ- طبرستان   د- لاشتهاره بالطب
2- يعد تفسير ابن جرير من كتب التفسير:
أ- الإشاري   ب- بالمأثور
جـ- بالرأي   د- جمع بين المأثور والرأي

2.6 بحر العلوم

* مؤلف التفسير:

هو الإمام نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، أبو الليث، المعروف بإمام الهدى، وهو إمام من أئمة الحنفية، توفي سنة (373 هـ) وقيل سنة (375هـ).

* التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفه فيه:

1- يعرض للقراءات ويشرح القرآن بالقرآن.

2- يعرض لما يُوهِمُ الاختلاف والتناقض في القرآن ويزيل هذا الإيهام.

3- يذكر العديد من الروايات بإسناده إلى السلف، إلا أن غالب ما يذكره في التفسير يذكره بلا إسناد.

4- يروي بعض الإسرائيليات، ويخرج من رواية الضعفاء دون تعقيب على هذه الروايات.

5- يجمع هذا التفسير بين التفسير بالرواية والتفسير بالدراية، إلا أن جانب النقل هو الغالب، ما جعل العديد يصنفونه على أنه من كتب التفسير بالمأثور.

3.6 معالم التنزيل

* مؤلف التفسير:

هو الإمام الحافظ أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء، أو ابن الفراء، البغوي الفقيه الشافعي المحدث المفسر الشهير بـ «محيي السنة»، نسبته إلى (بغا) من قرى خراسان؛ توفي سنة (516هـ).

* التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفه فيه:

1- يفسر الآيات بعبارات واضحة وموجزة.

2- ينقل ما جاء عن السلف في تفسير الآية من غير ذكر الإسناد.

3- ينقل في تفسيره بعض الإسرائيليات والأخبار الواهية، فعند الآية (12) من سورة المائدة يقول عن أحد الجبارين في الأرض المقدسة «وكان طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثةً وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع، وكان يحتجز بالسحاب ويشرب منه، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس؛ يرفعه إليها ثم يأكله» (البغوي، معالم التنزيل: 2/20).

4- يرى ابن تيمية أن تفسير البغوي قد اختصره مؤلفه من تفسير الثعلبي الموسوم «الكشف والبيان عن تفسير القرآن»، وحذف منه الأحاديث الموضوعة والبدع التي فيه.

4.6 الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

* مؤلف التفسير:

محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، المعتزلي الحنفي الملقب بالزمخشري نسبة إلى قريته زمخشر من قرى خوارزم، ولقب بـ (جار الله)، لأنه سافر إلى مكة وجاور الحرم زمناً، ولد سنة (467هـ) وتوفي سنة (538هـ).

* التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفه فيه:

1- صنفه مؤلفه وفق مذهب الاعتزال، وفسر الآيات التي فيها خلاف بين أهل السنة والمعتزلة على طريقة المعتزلة.

2- أبان فيه مؤلفه جمال النظم القرآني وسحر بلاغته، وهو من خير الكتب التي يرجع إليها في التفسير من الناحية البلاغية.

3- خلا التفسير من الحشو والتطويل، وصدر الروايات الإسرائيلية القليلة التي أوردها في تفسيره بلفظ (رُوِيَ) الـمُشْعِر بالضعف، أو أنه يفوض علمها إلى الله، وأحياناً ينبه على درجة الرواية من الصحة.

4- سلك مؤلفه في تصنيفه طريق السؤال والجواب، فهو يقول عند عرض المسألة: فإن قلت، ثم يجيب هو عن هذا السؤال بقوله: قلتُ.. ويذكر الجواب.

5- عرض مؤلفه للقراءات الشاذة، وتهجم على بعض القراءات المتواترة.

6- عرض المسائل الفقهية المتعلقة بالآيات القرآنية بدون توسع ولا تعصب لمذهبه الحنفي.

7- أظهر مؤلفه وَجه التناسب والترابط بين الكثير من جمل الآيات.

8- يتكلم مؤلفه على أهل السنة والجماعة بعبارات شديدة اللهجة.

ومن المفيد توخّي الدقّة والحيطة والتنبُّه إلى الأفكار والقضايا التي تبرزُ في هذا التفسير لما فيه من أفكار المعتزلة الخاصة المؤثرة في التفسير؛ غير أن ما تميز به من الدفاع عن بلاغة القرآن والكشف عن إعجازه بأسلوب عالي القدر رفيع الشأن، زاد من عناية العديد من المفسرين به. وكثرت الشروح له وأصبح من جاء بعده عيالاً عليه، ويحسن الرجوع إلى هذا التفسير ولكن يجب الحذر من الاعتزاليات الواردة فيه، ويمكن تمييزها بالاستعانة بكتاب: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين أحمد بن المنِّير المالكي.



نشاط (5)

عزيزي الدارس، رد الزمخشري قراءة ابن عامر المتواترة (عند الآية (137) من سورة الأنعام)، والمطلوب منك:

1- أن ترجع إلى كتاب الكشاف وتوثق قول الزمخشري.

2- العودة إلى أي كتاب تختاره من كتب القراءات المتواترة وتوثق قراءة ابن عامر.

5.6 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

* مؤلف التفسير:

هو الإمام القاضي الفقيه الحافظ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية، وهو من قضاة الأندلس المشهورين، كان عارفاً بعلوم الحديث والتفسير واللغة والأدب، وهو من أعيان مذهب المالكية؛ توفي سنة (541هـ) وقيل سنة (546 هـ).

* التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفه فيه:

1- يفسر القرآن بالقرآن.

2- لخص ابن عطية تفسيره هذا من كتب التفسير بالمنقول، وأكثر ما يختار منه تفسير الطبري، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، وقد يعرج بالرد على رواية والانتقاد لمنقول.

3- يعد هذا الكتاب جامعاً ودقيقاً للعلوم المختلفة المتعلقة بكتاب الله، فمن المفسرين من اهتم باللغة، وآخر بالأحكام، وثالث بالفلسفة وعلم الكلام... إلخ، إلا أن هذا التفسير جاء جامعاً دقيقاً وافياً.

4- خلا من الإسرائيليات.

5- لم يكثر مفسره من إيراد وجوه الإعجاز البياني.

6- كان لمؤلف التفسير شخصية واضحة المعالم في تفسيره، فهو يرجح الأقوال عن قوة واقتدار.

6.6 مفاتيح الغيب

* مؤلف التفسير:

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازي الملقب بفخر الدين، وعرف بابن الخطيب، والرازي نسبة إلى الري في العراق -على غير قياس- وكان إماماً في المذهب الشافعي،

وإمام عصره في العلوم العقلية، وكان عالماً بالتفسير واللغة، توفي سنة (606 هـ).

التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفه فيه:

1- لم يتم الرازي تأليف تفسيره، بل على الأرجح أنه كتب فيه إلى سورة الأنبياء، وأتمه من بعده -على الأرجح- نجم الدين المخزومي القمولي.

وإن القارئ لهذا التفسير لا يجد تفاوتاً بين المنهج الذي سلكه الرازي ومنهج الذي أتم التفسير، ولا يستطيع التمييز بين الأصل والتكملة.

2- اهتم الرازي ببيان المناسبات بين سور القرآن وآياته، والحكمة من هذه المناسبة. وبعد أن يبصر القارئ بالوحدة الموضوعية بين الآيات يقول: اعلم أن في الآية مسائل: المسألة الأولى... وقد تبلغ هذه المسائل تسعاً أو أقل أو أكثر.

3- يذكر الرازي مذاهب الفقهاء عند مروره بآية من آيات الأحكام، ويروج لمذهب الشافعي الذي ينتمي إليه.

4- يكثر الاستطراد إلى العلوم الرياضية والفلكية والفلسفية والطبيعة وغيرها.

5- يعرض -وبكثرة- آراء الفلاسفة والمتكلمين، ويتصدى لها بالرد بالنقد والتمحيص، ويدحض حججهم.

6- يكاد هذا التفسير يخلو من الإسرائيليات، وقد ذكر العديد منها، ثم بين فسادها وبطلانها.

7- يفرع الموضوع إلى مسائل، ويطرح أسئلة كثيرة منها افتراضية، وقد تكون غير واقعية، ثم يجيب عنها.

ومما يعاب على هذا التفسير أن الرازي أفرط في شرح شُبَه المعتزلة والفرق الأخرى، قبل الرد عليهم، إضافة إلى تقصيره في الرد، مما جعل بعض المحققين يتهمونه بأنه رَوَّج لها بدلاً من نقضها.

قال السيوطي: «وصاحب العلوم العقلية - خصوصاً الإمام فخر الدين - ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشُبَهها، وخرج من شيء إلى شيء، حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورَد للآية. قال أبو حيان في البحر: جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير؛ ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير» (السيوطي، الإتقان، 213/4).

والحق أن هذا التفسير له قيمة عظيمة، مع أن مؤلفه قد توسع وشعَّب العديد من

المسائل، وربما أتى بمسائل تكاد تكون بعيدة عن التفسير؛ إلا أن هذا هو منهج المؤلف في تفسيره، فقد أشار في مقدمته إلى أنه يمكن استنباط المسائل الكثيرة من الألفاظ القليلة، فقال: «إن قوله جل جلاله (الحمد لله) مشتمل على ألف ألف مسألة أو أكثر أو أقل» (الرازي، التفسير الكبير، 1/6)، وقال: «إعلم أنا إذا ذكرنا مسألة واحدة في هذا الكتاب، ودللنا على صحتها بوجوه عشرة، فكل واحد من تلك الوجوه والدلائل مسألة بنفسها، ثم إذا حكينا فيها مثلاً شبهات خمس فكل واحدة منها أيضاً مسألة مستقلة بنفسها، ثم إذا أجبنا عن كل واحد منها بجوابين أو ثلاثة، فتلك الأجوبة الثلاثة أيضاً مسائل ثلاث،... إلخ» (الرازي، التفسير الكبير، 1/12).

وهكذا فإن هذا التفسير يتميز بكثرة التشعيب والتفريع، ومعلوم أن أفهام الناظرين في كتاب الله تتفاوت كما تتفاوت اختصاصاتهم واهتماماتهم، وربما وجد بعضهم في تفسير الرازي -دون غيره- ما يفتح قريحته وينير بصيرته.

6.7 الجامع لأحكام القرآن

⋆ مؤلف التفسير:

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْحُ الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي، من كبار المفسرين ومن أعيان المذهب المالكي؛ توفي سنة (671 هـ).

⋆ التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفه فيه:

1- أسقط منه مؤلفه كثيراً من القصص والتواريخ، وأثبت عوضاً عنهما أحكام القرآن واستنباط الأدلة.

2- ذكر فيه القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ.

3- أضاف مصنفه الأقوال إلى قائليها والأحاديث إلى مصنفيها.

4- فيه رد على المعتزلة والقدرية والفلاسفة وغلاة المتصوفة.

5- ينقل القرطبي كثيراً عن تفسير ابن عطية، وأحكام القرآن لابن العربي المالكي، وتفسير ابن جرير الطبري.

6- لم يقتصر القرطبي في تفسيره على آيات الأحكام فقط، بل إن تفسيره شامل لما يتعلق بالآية، فهو يقدم ذكر سبب النزول، ثم يذكر القراءات ووجوه الإعراب فيها، ثم يشرح الغريب من الأقوال، وبعد هذا يبدأ ببيان الأحكام، ويفيض في ذكر مسائل الخلاف وما يتعلق بها من قريب أو بعيد مع بيان أدلة كل فريق.

تدريب (6)

عزيزي الدارس، هناك كتب أطلق عليها (أحكام القرآن)، والمطلوب منك أن توضح المقصود بهذا العنوان، وأن تمثل لها بثلاثة مراجع.

8.6 البحر المحيط

* مؤلف التفسير:

الإمام أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي، أبو عبد الله، الشهير بأبي حيان الأندلسي توفي سنة (745هـ).

* التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفه فيه:

تكلم أبو حيان في مقدمة تفسيره على المنهج الذي سلكه في تفسيره، وهو يتلخص فيما يلي:

1- ابتدأ الكلام عن مفردات الآية التي يفسرها لفظة لفظة، مبيناً ما يتعلق بها من النحو والتصريف.
2- ذكر ما يتعلق بالآية المراد تفسيرها من أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، ومناسبتها لما قبلها.
3- ذكر القراءات المتعلقة بالآية، الصحيحة منها والشاذة، مع توجيهها.
4- ذكر أقوال السلف والخلف في تفسير الآية.
5- نقل أقوال الفقهاء الأربعة فيما يتعلق بالأحكام الشرعية.
6- يُتْبع بمجموعةِ الآيات التي تم تفسيرها ما ورد فيها من فنون علم البيان والبديع.
7- ألمح إلى بعض ألفاظ الصوفية، وأعرض عن أقوال الملحدين والباطنية.

وقد طغى على هذا التفسير اهتمام مؤلفه بالمباحث النحوية، وأخذ أبو حيان كثيراً عن تفسير الزمخشري وناقشه في العديد من المسائل.

9.6 تفسير القرآن العظيم

* مؤلف التفسير:

عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو القرشي؛ ابن كثير البصري ثم الدمشقي

المحدث الشافعي، كان فقيهاً ومحدثاً ومؤرخاً ومفسراً، انتشرت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته؛ توفي بدمشق عام (774هـ) ودفن بمقبرة شيخه ابن تيمية.

* التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفه فيه:

1- يعد تفسير ابن كثير من أصح كتب التفسير بالمأثور إن لم يكن أصحها، التزم مؤلفه فيه تفسير القرآن بالقرآن، فإن لم يجد فإنه يفسر الآية بالسنة، فإن لم يجد في الكتاب والسنة ما يفسر الآية فسرها بأقوال الصحابة، ثم أقوال التابعين رضوان الله عليهم أجمعين.

2- إن لم يجد ابن كثير تفسيراً للآية من المأثور فإنه يلجأ إلى بيان رأيه واجتهاده.

3- يبدأ ابن كثير في تفسيره للسورة ببيان فضلها ومكان نزولها، ثم بيان عدد آياتها.

4- يقسم السورة إلى مجموعات؛ يفسر كل مجموعة على حدة.

5- اعتمد ابن كثير على تفسير الطبري ونقل عن غيره، ولم يكن مجرد ناقل بل كان مدققاً محققاً يناقش ما ذكره المفسرون، يصوب كلاماً ويرد ما يراه ضعيفاً.

6- اعتنى بإيراد قصص الأنبياء.

7- مع أن تفسيره احتوى الكثير من الأحاديث والروايات إلا أن ابن كثير لم يوردها على علاتها، بل كان يبين صحيحها من سقيمها، فيبين علات السند وشواهد المتن بأسلوب المحدث البصير.

8- لم يهتم ابن كثير ببيان إعجاز القرآن وأسرار نظمه وبديع تأليفه.

10.6 تفسير الجلالين

* مؤلفا التفسير:

هذا التفسير لعالمين جليلين عاشا في وقتين متعاقبَيْن هما: جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي الشافعي، كان علامّة آية في الفهم والذكاء واسع العلوم، ولد بمصر سنة (791هـ)، وتوفي سنة (864هـ). والآخر هو: جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، كان صاحب ذاكرة قوية، تتلمذ على كثير من المشايخ، بلغت مؤلفاته أكثر من خمسمائة مؤلف، ولد سنة (849هـ) وتوفي سنة (911هـ).

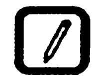
* التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفيه فيه:

1- اشترك الجلالان في التفسير، وقد تميز بأنه غاية في الاختصار والإيجاز.

2- ابتدأ جلال الدين المحلي تفسيره من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، ثم ابتدأ بتفسير سورة الفاتحة، ووافته المنيّة بعد أن أتمّها.

3- أكمل جلال الدين السيوطي ما بدأه المحلّي، ففسر ابتداءً سورة البقرة وانتهى عند آخر سورة الإسراء في أربعين يوماً، ووضع تفسير الفاتحة في آخر تفسير الجلال المحلي لتكون ملحقة به. قال السيوطي بعد أن أتم تفسير سورة الإسراء: «هذا آخر ما كملت به تفسير القرآن الذي ألفه الشيخ الإمام العالم المحقق جلال الدين المحلي الشافعي رضي الله عنه، وقد أفرغت فيه جهدي وبذلت فكري فيه، في نفائس أراها إن شاء الله تعالى تُجْدي، وألفته في مدةٍ قَدْرَ مِيعادِ الكَلِيم، وجعلته وسيلة للفوز بجنات النعيم، وهو في الحقيقة مستفاد من الكتاب المكمل، وعليه في الآي المتشابهة الاعتماد والمعول» (تفسير الجلالين: ص: 386).

4- اعتمد المحلي في تفسيره أرجح الأقوال، ونبه على القراءات المشهورة بأوجز عبارة، وأعرب ما احتاج إلى إعراب. وقد سار السيوطي على خطوات المحلي؛ حتى إن القارئ لا يكاد يجد فرقاً بيناً واضحاً بين طريقة الجلالين فيما فسَّراه إلا في مواضع قليلة جداً. وقد صرح السيوطي أن ما وضعه مقتبس من وضع المحلي ومستفاد منه، وأضاف إلى أنه لم يخالفه إلا في مواضع يسيرة جداً (تفسير الجلالين: ص: 386).



تدريب (7)

عزيزي الدارس، عرّف التفسير الإشاري ومثّل له بأربعة كتب.



نشاط (6)

ارجع إلى تفسير الجلالين عند الآية (112) من سورة الإسراء، وناقش الفرق في تعريف الروح بين الإمامين جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي عليهما سحائب الرحمة.

6-11 تفسير القرآن الحكيم، المشهور ب (تفسير المنار)

* مؤلف التفسير:

محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني، كان تلميذاً في مدرسة الإمام محمد عبده، وقد أفاد منه كثيراً، ووظف أفكاره ودروسه التي كان يلقيها في تفسيره هذا، وهو صاحب (مجلة المنار) التي كانت منبراً للفكر والإصلاح الاجتماعي في مصر؛ توفي سنة (1354هـ) ودفن بالقاهرة.

* التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفه فيه:

1- لم يكمل السيد محمد رشيد رضا تفسير المنار، بل أتم تفسيره إلى الآية (101) من سورة يوسف حيث ينتهي الجزء الثاني عشر من القرآن الكريم، وتوفي بعد ذلك.

2- اعتنى بتعزيز التفسير بما أثر عن النبي ﷺ، وكان يستعين بأقوال السلف من الصحابة والتابعين.

3- جنب تفسيره الأحاديث الموضوعة والإسرائيليات، وعنف المفسرين الذين زجوا في تفسيرهم بالإسرائيليات، ومع أنه لم ينقل الإسرائيليات المدونة في كتب التفسير فهو كثيراً ما ينقل عن الكتاب المقدس أخباراً وآثاراً يفسر بها بعض مبهمات القرآن، أو يرد بها على أقوال بعض المفسرين.

4- حاول علاج أمراض المجتمع في عصره، وإيجاد حلول لمشاكله من خلال التفسير القرآني.

5- نهج في تفسيره منهجاً أدبياً اجتماعياً كشف عن بلاغة القرآن وإعجازه.

6- وفّق بين القرآن وما أثبته العلم الحديث من حقائق.

7- دافع عن الإسلام والقرآن، وكشف عما أحاط بهما من شكوك ومشاكل.

* مما يؤخذ على هذا التفسير:

1- أن صاحبه قد نهج طريقاً متحرراً من أقوال السابقين ومذاهب المفسرين، فكان له آراء وأفكار تفرد بها عمن سبقه.

2- أعطى مؤلفه حرية واسعة للعقل جعلته يعدل عن حقائق الأمور إلى مجازها، كما أنه لم يتقيد ببعض المسلمات عند العلماء مما جعله يستقل بأفكار خارجة عن ترجيح أهل العلم ومن ذلك:

أ- عند الآية (275) من سورة البقرة «وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» نجده يخالف أهل السنة، ويقرر أن صاحب الكبيرة التي في درجة أكل الربا وقتل العمد إذا مات ولم يتب منها، يخلد في النار ولا يخرج منها أبداً (المنار: 83/3).

ب- يرى أن السحر ضرب من التمويه والخداع، وليس له حقيقة كما يقول أهل السنة، وهو يوافق بهذا القول قول شيخه محمد عبده، وقول المعتزلة. مثال ذلك تفسيره للآية (7) من سورة الأنعام.. يقول: (والآية تدل على أن السحر خداع باطل، وتخيُّل يُري ما لا حقيقة له في صورة الحقائق..). (المنار: 260/7).

جـ- يرى أن الجن لا ترى للإنسان على أي حال من الأحوال.

د- ينكر بعض المعجزات الكونية للرسول صلى الله عليه وسلم، ويجحد صحة ما يقوم بإثباتها من الأحاديث.

هـ- خالف الفقهاء في مسائل عدة؛ من ذلك أنه قرر أن المسافر يجوز له التيمم ولو كان الماء بين يديه، ولا علة تمنعه من استعماله إلا كونه مسافراً، وهو بذلك يخالف جماعة الفقهاء ويعنفهم فيما ذهبوا إليه من عدم جواز التيمم للمسافر عند وجود الماء، وذلك عند الآية (43) من سورة النساء (المنار: 98/5).

12.6 في ظلال القرآن

* مؤلف التفسير:

هو سيد بن الحاج قطب إبراهيم حسين شاذلي، ولد سنة (1906م)، في قرية من قرى الصعيد، تخرج من دار العلوم في القاهرة وكان أستاذا أديباً ناقداً، وقاصاً وشاعراً، ومفكراً معروفاً، فلسف الفكر الإسلامي وكشف عن مفاهيمه الصحيحة في وضوح وجلاء، أُعْدِمَ في مِصْرَ عام (1966م) (انظر: الخباص، سيد قطب الأديب الناقد (ص:79)، والقطان، مباحث في علوم القرآن (ص: 373)).

* التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفه فيه:

1- يتكلم عن ظلال السورة في مقدمتها، ويعرف بها، ويقسمها إلى أشواط.

2- يبين الوحدة الموضوعية لسور القرآن، ويجعل لكل منها محوراً واحداً، ويربط بين أجزائها.

3- يربط نصوص القرآن بالواقع المعاصر، لإيقاظ الوعي وتصحيح المفاهيم وربط الإسلام بالحياة.

4- يربط الأحكام والتشريعات بالعقيدة الإسلامية.

5- يبين أسباب النزول، ويذكر المأثور الصحيح ويعرض عن الأساطير والإسرائيليات، ويضرب صفحاً عن المباحث اللغوية مكتفياً بالإشارة العابرة.

6- يبرز التوافق والانسجام بين الكون والإنسان.

7- يعرض القرآن عرضاً أدبياً يبرز الصورة الفنية، وقد تجلت في تفسيره نظرية التصوير الفني.

8- أظهر القضايا الفكرية وناقشها، ووقف في وجه المادية الجاهلية.

9- اعتمد منهج تلقي القرآن للتنفيذ والتطبيق على واقع الحياة، مما أكسب تفسيره حرارة العاطفة (التفسير الحركي) (وانظر: الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، (ص: 367)).

13.6 صفوة التفاسير

* مؤلف التفسير:

هو محمد بن علي الصابوني، الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة، له العديد من المؤلفات المختصة بالتفسير وعلوم القرآن، فقد اختصر تفسير ابن كثير بصورة موجزة تقارب تفسير الجلالين، وجمع تفسير آيات الأحكام بمؤلف مستقل عَنْوَنَهُ «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام».

* التعريف بالتفسير ومنهج مؤلفه فيه:

1- يقع التفسير في ثلاثة مجلدات، وقد أتمه مؤلفه في خمس سنين، وكان الفراغ من تأليفه سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة سيد المرسلين.
2- جمع بين المأثور والمعقول، واستمده مؤلفه من أوثق كتب التفسير (الطبري، الكشاف، القرطبي، الألوسي، ابن كثير، البحر المحيط).
3- تحرى فيه المؤلف ذكر أصح الآراء وأرجحها في تفسير كتاب الله تعالى، مع الاختصار بأسلوب ميسر واضح.
4- يذكر فيه المؤلف بين يدي كل سورة بياناً إجمالياً للسورة يوضح المقاصد الأساسية لها.
5- يذكر ما روي في فضل السورة معزوّاً إلى من أخرجه من أصحاب السنن.
6- يشير إلى سرّ تسمية السورة وعلاقة الاسم بموضوع السورة.
7- يبين المسائل اللغوية في مجموعة الآيات التي ينوي الشروع في تفسيرها قبل أن يبدأ بالتفسير.
8- يفسر الآيات القرآنية ويضرب صفحاً عن القضايا الإعرابية، ويذكر الفوائد التي لها علاقة بالآيات، والمستنبطة منها.
9- يبين المناسبة بين الآيات، ويذكر سبب نزولها.
10- يلحق بمجموعة الآيات المفسرة ما يتعلق بها من الصور البيانية والنكات البلاغية.

وختاماً: فإننا ننصح باقتناء هذا التفسير لما حواه من أقوال أئمة المفسرين بأسلوب مبسط، وعبارات واضحة من غير حشو ولا تطويل، وبلغة رصينة وعرض متميز خلا من تضارب الأقوال والروايات الشّاذّة غير الصحيحة.

?

أسئلة التقويم الذاتي (8)

1- ما الأمور التي تؤخذ على تفسير الرازي؟

2- قارن بين تفسير الزمخشري وتفسير أبي حيان؟

3- من الذي ألف تفسيره قبل الآخر جلال الدين المحلي أم السيوطي؟ وما الذي فسره كل منهما؟

4- بيِّن رأي محمد رشيد رضا في آيات السحر؟

5- أجب بنعم أو لا عن الأسئلة التالية:

أ- خلا تفسير ابن جرير تماماً من الروايات الإسرائيلية.

ب- صاحب تفسير (بحر العلوم) هو العلامة الشوكاني.

جـ- غلب جانب الرواية على الدراية في تفسير بحر العلوم.

د- اختصر البغوي تفسيره من تفسير الثعلبي الموسوم (التحرير والتنوير).

هـ- فسَّر الزمخشري القرآن وفق مذاهب الشيعة.

و- خلا تفسير الكشاف من الحشو والتطويل.

ز- لم يتعمق سيد قطب في القضايا اللغوية واكتفى بالإشارة العابرة.

ح- مؤلف كتاب (روائع البيان في تفسير القرآن) هو السيد محمد رشيد رضا.

ط- يتعرض الصابوني في تفسيره إلى المناسبات بين الآيات.

7. الخلاصة

عزيزي الدارس، قدمنا لك الوحدة الأولى من مقرر التفسير رقم (5224)، وقد تكلمت هذه الوحدة عن (التفسير ومناهجه)، ومن المفيد هنا أن نقدم لك ملخصاً بأهم ما عرضناه في هذه الوحدة:

1- معنى التفسير والتأويل.

2- مكانة علم التفسير.

3- تفسير الصحابي وخصائصه.

4- تفسير التابعي وخصائصه.

5- مدارس التفسير في عهد التابعين.

6- كيفية الوقوف على تفسير سورة من القرآن.

7- منهج تفسير القرآن.

8- أسباب توهم اختلاف التفسير عند الصحابة وأئمة التابعين.

9- أسباب اختلاف التفسير عند المفسرين.

10- التعريف بأهم كتب التفسير القديمة والحديثة.

8. لمحة مسبقة عن الوحدة الدراسية الثانية

عزيزي الدارس، بعد أن درست هذه الوحدة واستوعبت مفرداتها؛ فإنك بعون الله ستنتقل إلى دراسة الوحدة الثانية من هذا المقرر، والموسومة (تفسير سورة محمد ﷺ) وستتفيأ -بإذن الله- في ظلالها، وتقطف وروداً وأزهاراً تكون زاداً لك في حياتك، وقد قُسّمت السورة إلى خمسة دروس: الأول: عن حقيقة المؤمنين وحقيقة الكفار، الثاني: عن قتال الكفار وحكمته ونتائجه، الثالث: مقابلة بين المؤمنين والكفار، الرابع: تحديد المنافقين وبيان صفاتهم، الخامس: تأكيد الحث على الجهاد.



تدريب (1)

من الأحاديث الواردة في فضل قراءة القرآن الكريم:

1- قال عليه السلام: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «ألم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

2- قال عليه السلام: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

3- قال عليه السلام: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

تدريب (2)

أخرج ابن جرير في تفسيره عن وهب بن منبه اليماني قال: «ذو القرنين رجل من الروم، ابن عجوز من عجائزهم، ليس لها ولد غيره، وكان اسمه الاسكندر، وإنما سمي ذا القرنين لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس... إلخ القصة» (ابن جرير، جامع البيان (9 /17)).

وهناك العديد من الروايات التي تصف يأجوج ومأجوج في كتب التفسير.

تدريب (3)

أنكر الشوكاني المناسبات، وذكر أن هذا العلم الذي جاء به كثير من المفسرين علم متكلف، وأن المفسرين خاضوا بحراً لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم بما لا يعود عليهم بالفائدة، ولعل هذا قد عرض للشوكاني لأن سياق الآيات كان يتكلم عن استخلاف آدم عليه السلام، ثم انتقل السياق ليتكلم عن بني إسرائيل فلم يجد الشوكاني مناسبة بين هذين الموضعين مما جعله ينكر المناسبة (الشوكاني، فتح القدير (1/72 - 73))، وقد تلخصت الشبهات التي أثارها الشوكاني فيما يلي:

1- إن القرآن نزل مفرقاً حسب الحوادث المقتضية لنزوله، وهذه الحوادث مختلفة لا يستقيم معها الائتلاف والتناسب، فكذلك القرآن النازل فيها، فإنه مختلف كاختلافها.

2- إن طلب المناسبة بين الآيات غير معقول لأن المناسبة تقوم على ترتيب التلاوة، وترتيب التلاوة قام به الصحابة.

3- أنزل الله كتابه بلغة العرب، وسلك فيه مسالكهم في الكلام، وكان من عادة العرب أن يأتوا بفنون متخالفة وطرائق متباينة في المقام الواحد فضلاً عن المقامين، فضلاً عن المقامات.

مناقشة قول الشوكاني:

1- إن الشبهة الأولى عند الشوكاني قائمة فيما إذا كان ترتيب القرآن حسب النزول، ومما هو معلوم أن ترتيبه لم يكن كذلك بل كان حسب التلاوة.

2- وجواباً على الشبهة الثانية: فإن ترتيب الآيات لم يكن باجتهاد الصحابة وإنما كان أمراً توقيفياً؛ ولنا هنا أن نسأل الشوكاني لماذا عُدل عن ترتيب النزول إلى ترتيب آخر هو ترتيب التلاوة!! والجواب أن هذا العدول لم يكن إلا لفائدة مرجوة وقيمة منتظرة ألا وهي المناسبات والتآلف بين الآيات، وإلا لرتبت حسب نزولها.

3- وجواباً على الشبهة الثالثة: فإن بلغاء العرب يعرفون البلاغة بأنها: (أن يكون أول كلامك يدل على آخره، وآخره يرتبط بأوله) (وانظر، فرحات، أحمد حسن، دراسات في علوم القرآن، ص: 36).

ولو نظرنا في السياق القرآني -لسورة البقرة- الذي أربك الشوكاني، وجعله ينكر المناسبات عند هذا المقام، لوجدنا أن السياق يتكلم عن استخلاف آدم، ومن ثم استخلاف بني إسرائيل، تمهيداً للكلام عن استخلاف أمة محمد ﷺ، فالقضية إذن هي قضية الاستخلاف، والسياق واحد مترابط، ويمكن أن نربط أيضا بين ذكر بني إسرائيل بعد ذكر آدم عليه السلام: أن آدم عصى فحرم الجنة، وعصى بنو إسرائيل فحرموا نعماً كثيرة، أو هي مسألة العهد الذي أخذ على آدم ثم على بني إسرائيل « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ» (البقرة/40)، أو آدم هو الأب، وبنو إسرائيل الأبناء.

وثمة ملاحظة هي أن الشوكاني مع إنكاره للمناسبات في هذا المقام، يربط كثيراً بين الآيات، ويقول بالمناسبات دون أن يسميها باسمها.

تدريب (4)

قال أكثر المفسرين إن الضمير للشركاء، والمعنى أنهم لو كانوا شركاء لي في خلق السماوات والأرض، وفي خلق أنفسهم، لكانوا مشاهدين خلق ذلك مشاركين لي فيه.
وقيل: الضمير للمشركين الذين التمسوا طرد فقراء المؤمنين، والمراد أنهم ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم بدليل أني ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض، ولا خلق أنفسهم، وما اعتضدت بهم (انظر: الشوكاني، فتح القدير: 3/293).

تدريب (5)

1- (ج).
2- (د).

تدريب (6)

هو تفسير فقهي خاص بآيات الأحكام التي وردت في القرآن الكريم، قام به أتباع المذاهب الفقهية المختلفة، وقد فسروا هذه الآيات مظهرين آراء مذاهبهم الفقهية ومؤصّلين لها، ومتعصبين لها أحياناً.

ومن أمثلتها:

1- أحكام القرآن، مؤلفه أبو بكر أحمد بن علي الرازي المشهور بالجصاص، وهو من أئمة المذهب الحنفي (ت: 370هـ).
2- أحكام القرآن، مؤلفه أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد الأندلسي، وهو من أئمة المذهب المالكي (ت: 543هـ).
3- أحكام القرآن، مؤلفه أبو الحسن الطبري، المعروف بالكيا الهراسي وهو من أعيان المذهب الشافعي (ت: 504هـ).

تدريب (7)

التفسير الإشاري: هو تفسير خاص بالمتصوفة؛ حيث يرى بعض المتصوفة وراء العبارات القرآنية إشارات قدسية تنكشف له، ويرى أن الآية لها ظاهر وباطن، أما ظاهرها فهو ما ينساق إليه الذهن قبل غيره، وأما الباطن فهو تلك الإشارات الخفية التي تظهر لأرباب هذا السلوك.

وهذا التفسير إذا أوغل في الإشارات الخفية صار ضرباً من التجهيل، أما إذا كان استنباطاً حسناً يوافق مقتضى ظاهر العربية، وكان له شاهد يشهد لصحته من غير معارض كان مقبولاً (انظر: القطان، مباحث في علوم القرآن، ص: 355).

ومن المؤلفات التي كتبت فيه:

1- تفسير القرآن العظيم، لسهل بن عبد الله التستري (ت: 283هـ).

2- حقائق التفسير، لأبي عبد الرحمن السلمي (ت: 412هـ).

3- تفسير ابن عربي، محيي الدين بن عربي (ت: 638هـ).

4- تفسير روح المعاني، شهاب الدين محمد الألوسي (ت: 1270هـ).

10. مسرد المصطلحات

- الإسرائيليات: هي مرويات أهل الكتاب من اليهود والنصارى.
- التأويل: تفسير القرآن بالدراية.
- التفسير: علم تُبحث فيه أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقَدْرِ الطاقة البشرية.
- التفسير بالمأثور: تفسير القرآن بما جاء في القرآن نفسه، أو السنة، أو كلام الصحابة رضوان الله عليهم.
- غرائب التفسير: هي ما قيل في القرآن من الأقوال الغريبة التي لا يَحِلُّ حملُ القرآن عليها، ولا يَحِلُّ ذكرها إلا على سبيل التحذير.
- محور السورة: الموضوع الأساسي الذي تدور حوله آيات السورة ومواضيعها.
- المناسبات: وجه الارتباط والاتصال بين جمل الآية الواحدة، وآيات السورة الواحدة، ومطلع السورة وخاتمتها، والسورة مع ما قبلها وما بعدها وفق ترتيب التلاوة.
- الوحدة الموضوعية: الوحدة الموضوعية للسورة تتمثل بكون كل سورة من سور القرآن لها روح يسري في أجزائها، وفكرة عامة تربط بين آياتها، بحيث تشكل موضوعاً مترابطاً.

* القرآن الكريم.

1- الأصفهاني: الراغب، مقدمة جامع التفاسير، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دار الدعوة - الكويت.

2- ابن الأنباري: ابن الأنباري (ت:328هـ)، إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن، دمشق، 1390هـ.

3- البخاري: محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: 256هـ)، صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير - اليمامة، (ط 3/1987م).

4- البغوي، الحسين بن مسعود (ت: 516هـ)، معالم التنزيل (تفسير البغوي)، دار المعرفة - بيروت، (ط 1/1406هـ).

5- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت: 728هـ)، مجموع كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن محمد قاسم النجدي.

6- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت: 728هـ)، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق د. عدنان زرزور، دار القرآن الكريم - الكويت، ط1، سنة 1391هـ.

7- الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، جواهر الحسان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

8- ابن جرير: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير ابن جرير) ، دار الفكر - بيروت ط (1984م).

9- الجلالان، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (تفسير الجلالين)، دار المعرفة _ بيروت.

10- الجويني: مصطفى الصاوي، مناهج في التفسير، منشأة المعارف بالإسكندرية.

11- الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت: 405هـ)، معرفة علوم الحديث، تحقيق السيد معظم حسين، دار الكتب المصرية.

12- حمزة: د. عمر يوسف، دراسات في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة الأقصى - قطر، (ط2 / 1995م).

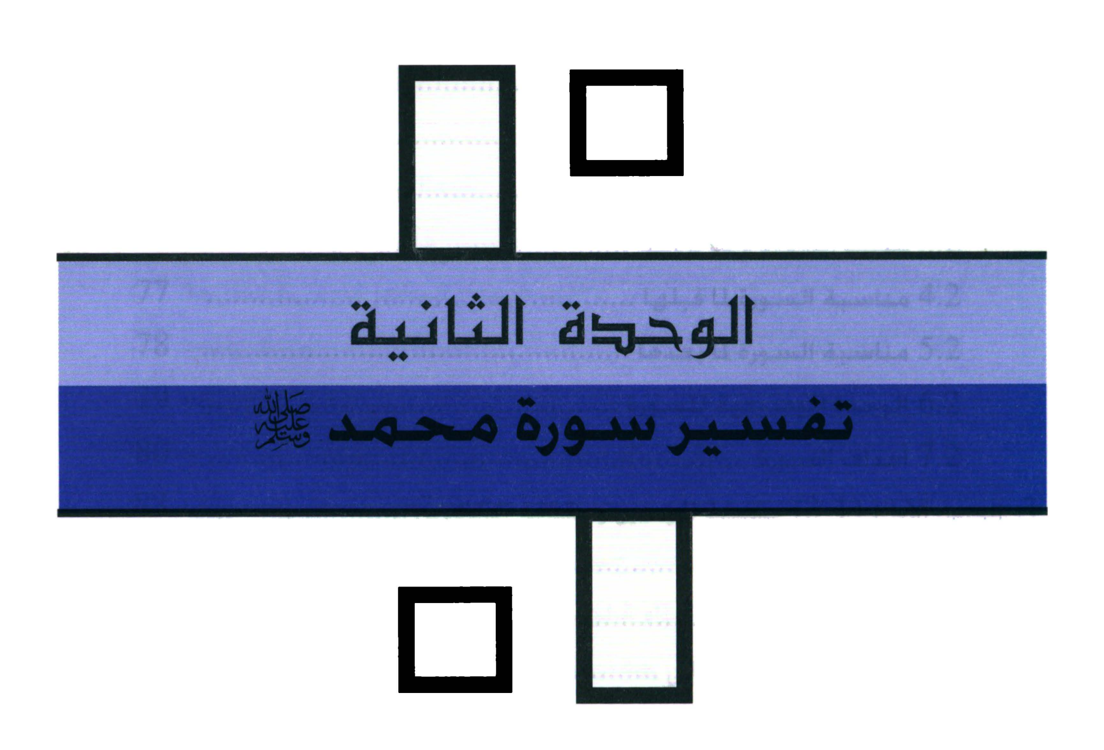
13- ابن حنبل: أحمد، أبو عبد الله الشيباني (ت: 241هـ)، مسند أحمد، مؤسسة قرطبة - مصر.

14- الخالدي: د. صلاح، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الفرقان - عمان، (ط1/1983م).
15- الخباص: عبد الله، سيد قطب الأديب الناقد، مكتبة المنار - الزرقاء، (ط1/1983م).
16- دراز: د. محمد عبد الله، النبأ العظيم، دار القلم - الكويت، (ط3 /1988م).
17- الذهبي: د. محمد حسين، التفسير والمفسرون، دار إحياء التراث العربي - مصر.
18- الرازي: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين، أبو عبد الله (ت: 606هـ)، التفسير الكبير المسمى (مفاتيح الغيب)، دار إحياء التراث العربي _ بيروت، ط3.
19- رضا: محمد رشيد (ت: 1354هـ)، تفسير القرآن الحكيم، المعروف ب (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، 1972م.
20- الزرقاني: محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط1 / 1988م).
21- الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله (ت:794هـ)، البرهان في علوم القرآن، دار الفكر - بيروت، 1988م.
22- ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع (ت: 230 هـ)، الطبقات الكبرى، دار صادر - بيروت.
23- السيواسي: شهاب الدين أحمد بن محمود (ت:860هـ)، عيون التفاسير للفضلاء السماسير، رسالة جامعية، دراسة وتحقيق د. محسن الخالدي، إشراف أ.د. أحمد علي الإمام.
24- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (ت: 911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث - القاهرة، (ط3 / 1985م).
25- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، تدريب الراوي.
26- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، لباب النقول في أسباب النزول، دار إحياء العلوم - بيروت ، (ط4 / 1403هـ).
27- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، مفتاح الجنة، الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة (ط3 / 1399هـ).

28- الشاعر، تمام كمال، منهج الإمام ابن جرير الطبري في الترجيح بين أقوال المفسرين، رسالة جامعية (جامعة النجاح)، إشراف د. محسن الخالدي (2004)م.
29- شحاتة: د. عبد الله محمود، القرآن والتفسير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1974م).
30- الشوكاني: محمد بن علي بن محمد (ت: 1250 هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، مكتبة مصطفى البابي الحلبي - مصر (ط2/1964م).
31- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب (ت: 360 هـ)، مكتبة العلوم والحكم، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، الموصل (ط2 / 1983م).
32- ابن عباس: عبد الله، تفسير ابن عباس المسمى: صحيفة علي بن أبي طلحة، تخريج وتحقيق راشد عبد المنعم الرجال، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، (ط1/1411هـ).
33- العك: الشيخ خالد عبد الرحمن، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس - بيروت (ط2/1986م).
34- القرطبي: أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري، (ت: 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، (تفسير القرطبي)، دار إحياء التراث العربي - بيروت (ط2 / 1985م).
35- القطان: مناع، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة (ط2)، (د. ت).
36- قطب: سيد، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي _ بيروت (ط7 / 1971م).
37- ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، أبو الفداء (ت: 774هـ) تفسير القرآن العظيم، دار الفكر - بيروت (1401هـ).
38- ابن ماجه: محمد بن يزيد، أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت.
39- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري (ت: 261هـ) صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
40- ابن منصور: سعيد، سنن سعيد بن منصور، تحقيق د. سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، دار العصيمي - الرياض، (ط1/1414هـ).

41- منيع: منيع عبد الحليم محمود، مناهج المفسرين، دار الكتاب المصري - القاهرة (ط1 / 1978م).

42- النووي: محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الحزامي (ت: 676هـ). تهذيب الأسماء واللغات، إدارة الطباعة المنيرية - مصر.


الوحدة الثانية
تفسير سورة محمد ﷺ

محتويات الوحدة

الموضوع **الصفحة**

1. المقدمة

1.1 تمهيد

عزيزي الدارس:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد: فهذه هي الوحدة الثانية، من مقرر «التفسير» في برنامج التربية، تخصص التربية الاسلامية.

وموضوع هذه الوحدة هو تفسير سورة محمد ﷺ، لتتعرف على تفسير هذه السورة، وتقف على أهدافها ودروسها وأحكامها.

وتتكون هذه الوحدة من ستة أجزاء - عدا المقدمة والأجزاء الختامية.

يعرف الجزء الأول بالسورة، ويبين أسماءها، ومناسبتها لما قبلها، وما بعدها، ويحدد ترتيبها في النزول، ويبين مدنيتها، ويتحدث عن أهدافها.

ويتحدث الجزء الثاني عن الدرس الأول من دروس السورة، وهو الآيات: (1 - 3)، التي تبين سر الاختلاف بين المؤمنين، والكفار، في الأعمال وفي الجزاء، وتوضح حقيقة المؤمنين وحقيقة الكفار.

ويعرض الجزء الثالث الدرس الثاني من دروس السورة، وهو الآيات: (4 - 9)، التي تأمر بقتال الكفار، وتعالج بعض الآثار الناجمة عن قتالهم، وتبين بعض الأحكام المتعلقة بالأسرى منهم، كما تحدد شروط النصر للمؤمنين، والجزاء الحسن للمجاهدين، والحكمة من أمر الله لهم بالجهاد.

ويقدم الجزء الرابع الدرس الثالث من دروس السورة، وهو الآيات: (10 - 15)، التي تجري مقابلة وموازنة بين المؤمنين والكافرين، في الدنيا وفي الآخرة، وتقرر أن الفريقين لا يستويان.

ويبين الجزء الخامس الدرس الرابع من دروس السورة، وهو الآيات: (16 - 31)، التي تعرض بعض صفات المنافقين، وتقارن بينهم وبين المؤمنين، وتميز بين جزاء ومصير كل فريق، وتقرر الألوهية لله وحده، وتهدد المنافقين والمرتدين.

ويهتم الجزء السادس بالدرس الخامس من دروس السورة، وهو الآيات (32 - 38)، التي تبين للمؤمنين بعض تكاليف الجهاد، وتحثهم عليه، وترغبهم بالإنفاق في سبيل الله، وتدعوهم إلى طاعة الله ورسوله، وتهدد من يتثاقل عن الجهاد، ويبخل عن الإنفاق.

وقد حرصنا - عزيزي الدارس - في هذه الوحدة على تقديم تفسير موجز لهذه السورة، حيث قسمناها إلى دروس، وجعلنا عنواناً لكل درس، وحددنا آيات كل درس، وكنا نبين في كل درس، معاني الكلمات الغريبة في الآيات، ومعناها الإجمالي، وبعض اللطائف البيانية والبلاغية التي فيها، وبعض ما ترشد إليه تلك الآيات من دلالات وعبر وعظات.

وقدمنا في ثنايا الوحدة عدة تدريبات، بقصد استثارة الدافعية للتعلم في أثناء قراءتك الوحدة، وهذه التدريبات ذات طبيعة متباينة، فمنها ما تقدر أيها الدارس أن تجيب عنه خلال قراءتك للوحدة، ومنها ما يحتاج إلى مصادر أخرى في الموضوع لتجيب عليه.

وننصح لك بمناقشة إجابات التدريبات مع مشرفك.

وتجد أيها الدارس في نهاية كل جزء من أجزاء الوحدة أسئلة التقويم الذاتي، ويمكنك الإجابة عنها بعد قراءتك المتأنية للنص.

وعرضنا في آخر الوحدة خلاصة موجزة لتفسير سورة محمد ﷺ، وسجلنا إجابات التدريبات، وأهم مصطلحاتها، وقائمة مراجعها.

إن لهذه الوحدة أهمية كبيرة، لأنها تتحدث عن معاني سورة القتال «محمد ﷺ» ومعاني وحقائق هذه الوحدة مرتبطة ارتباطاً مباشراً بحياة الدارس العملية والاجتماعية، سواء منها ما يتعلق بالجهاد والانفاق، أم المقابلات بين صفات المؤمنين وصفات المنافقين والكافرين.

وتبنى على هذه الوحدة الوحدتان التاليتان من هذا المقرر، والمختصتان بتفسير سورة النور، وتقديم معانيها وحقائقها للدارس، وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياتك العملية والاجتماعية.

فأهلاً بكم إلى هذه الوحدة، ونرجو أن تستمتعوا بقراءتها، وأن تدركوا أهميتها، وأن تتفاعلوا معها، مستفيدين مما تثيره من مسائل.

2.1 أهداف الوحدة

عزيزي الدارس: بعد الانتهاء من دراسة هذه الوحدة، وإجابة تدريباتها، ينبغي أن تكون قادراً على أن:

1 - تعرف موضوع سورة محمد ﷺ، وأهدافها، ونزولها، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها.

2 - تبين معاني الكلمات الغريبة في السورة.

3 - تعدد القراءات الصحيحة في السورة، وتعرف معانيها وتوجيهها.

4 - تقارن بين المؤمنين والكافرين، وبين المؤمنين والمنافقين، من حيث الجزاء والمصير والصفات.

5 - تتذوق بعض الصور البيانية واللطائف البلاغية في السورة.

6 - تحدد بعض حقائق العقيدة، كالألوهية والربوبية، والعلم بلا إله إلاّ اللّه.

7 - تلاحظ أسباب النزول لبعض آيات السورة.

8 - تعدد بعض الأحكام الشرعية الواردة في السورة.

9 - تذكر بعض ما يؤخذ من الآيات من المعاني والدلالات.

10 - تتبين أهمية الجهاد والإنفاق عليه، ومصير المتقاعسين والمتثاقلين عنه.

11 - تحفظ السورة.

3.1 أقسام الوحدة

تتكون هذه الوحدة من مقدمة، ونص رئيس، وأجزاء ختامية. وقد قسم النص الرئيس ستة أقسام ترتبط بقائمة الأهداف السابقة، وهي:

القسم الأول: بين يدي سورة محمد «ﷺ».

القسم الثاني: «الدرس الأول: (1 - 3) حقيقة المؤمنين وحقيقة الكافرين».

القسم الثالث: «الدرس الثاني: (4 - 9) قتال الكفار وحكمته ونتائجه».

القسم الرابع: «الدرس الثالث: (10 - 15) مقابلة بين المسلمين والكفار».

القسم الخامس: «الدرس الرابع: (16 - 31) صفات المنافقين وتهديدهم».

القسم السادس: «الدرس الخامس: (32 - 38) تأكيد الحث على الجهاد».

علماً بأن هذا التقسيم أجري فقط لتسهيل الدراسة عليك، فالأجزاء متداخلة متكاملة متساوية، وليس من السهل الفصل بينها.

4.1 قراءات مساعدة

عزيزي الدارس، إن النص الوارد في هذه الوحدة لا يتضمن تفاصيل القول في تفسير سورة محمد ﷺ، وإنما يقدم لك خلاصة نافعة موجزة لتفسيرها. لذا ينبغي الاطلاع على تفاصيل تفسير السورة، والتوسع في ذلك، وهذا يتطلب منك جهداً إضافياً.

لذلك ننصح لك بقراءة تفسير سورة محمد ﷺ من كتب التفسير التالية:

1- الزحيلي: وهبة، التفسير المنير، بيروت - دار الفكر، ط1: 1411هـ- 1991م، جـ 26: 75 - 141.

2- القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، بيروت - مؤسسة مناهل العرفان - بدون تاريخ، جـ 15، 223 - 258.

3- قطب: سيد، في ظلال القرآن، القاهرة - دار الشروق، 1397هـ-1977م، جـ 6: 3277 - 3304.

4- ابن كثير، إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، بيروت - دار الخير، 1990م - 1410هـ، جـ 4: 181 - 192.

5.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة

عزيزي الدارس، تحتاج في دراسة الوحدة، وحل تدريباتها، إلى ما يلي:

1- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبد الباقي.

2- القاموس المحيط، للفيروز أبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب.

3- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: الحسين بن محمد بن المفضل. تحقيق: صفوان داوودي.

2. بين يدي سورة محمد «ﷺ»

1.2 مقدمة

عزيزي الدارس، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

أما بعد: فإن سورة محمد ﷺ، سورة مدنية، عليها طابع القرآن المدني، ولها موضوع، تعرضه وتتحدث عنه، ولها شخصية خاصة تميزها عن غيرها من السور - وهذه هي طبيعة كل سورة من سور القرآن الكريم.

فما هي أسماء السورة ؟ وما هو وجه ارتباطها بما قبلها وما بعدها ؟ وما هو جو نزولها؟ أو ما هو موضوعها ؟ وما هي أهدافها ؟ وما هي دروسها ؟

نخصص للإجابة عن هذه الأسئلة هذا الجزء من الوحدة، الذي جعلناه تعريفاً بالسورة، وتقديماً لها، تمهيداً لتفسير دروسها وعرض معانيها.

2.2 أسماء السورة

معلوم أن أسماء السور توقيفية، أي أن الله هو الذي سمى سور القرآن بأسمائها، وأمر الرسول ﷺ بإطلاق تلك الأسماء عليها والتزمها المسلمون.

وقد يكون للسورة اسم توقيفي واحد، وهذا غالب سور القرآن، وقد يكون للسورة اسمان توقيفيان، وقد يكون لها أكثر من ذلك.

وقد أطلق بعض العلماء أسماء اجتهادية على بعض السور، إضافة إلى أسمائها التوقيفية، واستخلصوا ذلك الاسم الاجتهادي من موضوع السورة، وتدبرهم في آياتها، وإدراكهم لمعانيها.

لسورة محمد ﷺ اسمان توقيفيان، واسم اجتهادي، وهذه الأسماء الثلاثة مأخوذة من آياتها، ومذكورة فيها.

1.2.2 الاسم الأول: سورة محمد ﷺ، وسميت بذلك لبيان نزول القرآن على محمد ﷺ. وقد ذكرت كلمة محمد ﷺ في الآية الثانية منها: « وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» (محمد/2).

نشاط (1)

استخرج الآيات التي ذكرت فيها كلمة «محمد» -ﷺ- في سور القرآن، وسجل الآية ورقمها والسورة التي وردت فيها، مستعيناً في ذلك بكتاب «المعجم المفهرس لآيات القرآن» لمحمد فؤاد عبد الباقي.

2.2.2 الاسم الثاني: سورة القتال

حيث بينت فيها أحكام قتال الكفار، وأحكام الأسرى، وحثت المؤمنين على قتال الكفار، وهددت المتثاقلين منهم.

وقد وردت كلمة «القتال» في الآية العشرين منها: «».

2.2.3 الاسم الثالث: سورة «الذين كفروا» وهذا الاسم اجتهادي

وقد ذكرت «الذين كفروا» في بداية أولى آياتها: « » (محمد/1).

وموضوع السورة هو قتال الذين آمنوا للذين كفروا، والأسماء الثلاثة للسورة متناسقة فيما بينها، وكلها تلتقي على موضوع السورة. فمحمد ﷺ هو إمام المؤمنين المجاهدين، في قتال أعدائهم الذين كفروا.

2.3 مدنية السورة وجو نزولها

سورة محمد ﷺ مدنية بالاتفاق، وآياتها ثمان وثلاثون آية.

وقد نزلت بعد سورة الحديد المدنية، وكان نزول السورة بعد غزوة الأحزاب، التي وقعت في السنة الرابعة من الهجرة.

وكانت السورة تحث المؤمنين على جهاد الذين كفروا، وترغبهم في ذلك، وتذم المنافقين؛ لتخلفهم عنه، وتهدد ضعاف الإيمان من المتثاقلين عنه، وتأمر بطاعة الله ورسوله، وتنفيذ أوامره بقتال أعدائه.

فهذا هو الجو العام الذي كانت تعيشه الجماعة المسلمة في المدينة، وقد حثت السورة المؤمنين على الجهاد، وإزالة آثار التثاقل والتردد عندهم.

وقد تربت الجماعة المسلمة على آيات القرآن، وأثرت تلك الآيات فيها أثراً ايجابياً

عظيماً.

ويبدو هذا التغيير الايجابي في الجماعة المسلمة، عند المقارنة بين سورة محمد ﷺ، وسورة الفتح التي تليها في ترتيب المصحف، مع أنه كان بين السورتين فترة زمنية تقدر بحوالي ثلاث سنوات، حيث كان نزول سورة محمد بعد غزوة الأحزاب في السنة الرابعة من الهجرة، وسورة الفتح في السنة السادسة من الهجرة، بعد صلح الحديبية.

4.2 مناسبة السورة لما قبلها

ترتيب السور في المصحف توقيفي، بأمر الله عز وجل، وهذا الترتيب ليس على أساس زمان النزول، وإنما على أساس التناسب والتناسق، والوحدة الموضوعية والارتباط.

فمن المعلوم أن القرآن كله وحدة موضوعية مترابطة متكاملة، وسوره متناسقة متناسبة فيما بينها، وموضوعات تلك السور بينها ترابط وتناسب وانسجام.

فعلى الرغم من وجود فترة زمنية بين سورة محمد، وبين السور التي قبلها؛ لأن ما قبلها سور مكية، إلاّ أنها متناسبة مترابطة معها.

قبل سورة محمد سبع سور مكية، تُسَمّى «الحواميم» ؛ لأن كل واحدة منها مبدوءة بقوله تعالى: «حم». وهي سور: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، والأحقاف.

وبين هذه « الحواميم » وبين سورة محمد تناسب وارتباط ؛ لأن موضوع هذه السور الأساسي هو: إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله، وإثبات الوحي والنبوة والرسالة، وبيان أن القرآن كلام الله، ودعوة الناس إلى التخلي عن الكفر، والدخول في الاسلام.

وأصبحت هذه الموضوعات العقدية واضحة بينة، وأصبح الكفر باطلاً وداحضاً، فمن قبل الدعوة إلى الإيمان الموجهة له في سور « الحواميم » فهو من المؤمنين الصالحين، ومن رفض هذه الدعوة بعد بيانها، وأصر على الكفر بعد دحضه وإبطاله، فهو خاسر هالك، معاد للحق وأهله.

لذلك جاءت سورة محمد بعد « الحواميم » تبين ضلال وهلاك الذين كفروا، وتأمر المسلمين بقتالهم وجهادهم.

فالصلة بين موضوع سورة محمد، وبين الحواميم، قبلها واضحة، والمناسبة بينها وبين تلك السور ظاهرة.

وأوضح ما تكون المناسبة والصلة بين آخر « الحواميم »، سورة الأحقاف، وبين سورة محمد.

وتبدو هذه الصلة بين السورتين فيما يلي:

1.4.2 موضوع سورة الأحقاف إثبات الوحدانية والوحي والرسالة، وإقامة الأدلة على ذلك، فمن قبل هذه الأدلة فهو من المؤمنين، ومن رفضها فهو من الكافرين.

وتأتي سورة محمد لتأمر المسلمين بقتال الكافرين الذين رفضوا الدعوة الموجهة لهم إلى الايمان في سورة الأحقاف.

2.4.2 آخر ما في سورة الأحقاف إنذار للكفار بالعذاب، وسورة محمد فيها تحقيق ذلك الانذار، حيث أمر الله المسلمين بقتالهم.

3.4.2 يأمر الله رسوله ﷺ في آخر آية من سورة الأحقاف بأن يصبر، كما صبر أولو العزم من الرسل.

وفي سورة محمد بيان لمجال من مجالات الصبر المأمور به، وهو الصبر على قتال الذين كفروا، وعدم التثاقل عن قتالهم .

4.4.2 يخبر الله رسوله في آخر آية من سورة الأحقاف أنه لا يَهلَك إلاّ القوم الفاسقون، وفي سورة محمد بيان لكيفية هلاك القوم الفاسقين الكافرين في الدنيا، حيث يضرب المؤمنون رقابهم أو يأسرونهم.

والآية الأولى من سورة محمد هي بيان للآية الأخيرة من سورة الأحقاف، ولو حذفت البسملة لكان الكلام في الآيتين متصلاً اتصالاً قوياً.

ويكون التقدير هكذا: فهل يَهلَك إلاّ القوم الفاسقون الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله.

5.2 مناسبة السورة لما بعدها

بين سورة محمد وسورة الفتح - التي بعدها في ترتيب المصحف - فترة زمنية تقدر بحوالي ثلاث سنوات، وقد نزلت في هذه الفترة سور وآيات أخرى من القرآن.

ومع ذلك يجمع بين السورتين تناسق وتناسب وارتباط:

1.5.2 في سورة محمد أمر من الله للمؤمنين بمواجهة الذين كفروا وجهادهم وقتالهم.

وسورة الفتح تشير إلى قيام المؤمنين بالأمر، وتنفيذهم لذلك التكليف، حيث تتحدث عن حركة الصحابة في مواجهة قريش واليهود، وتشير إلى صلح الحديبية، وبيعة الرضوان،

وعمرة القضاء، وفتح خيبر.

2.5.2 في سورة محمد وعد من الله للمؤمنين بالنصر، عند قتالهم للكفار، وفي سورة الفتح تحقيق ذلك الوعد، حيث نصرهم الله في مواجهة قريش ويهود خيبر.

3.5.2 في سورة محمد أمر بالجهاد، فهي سورة القتال والجهاد، وفي سورة الفتح بيان نتيجة الجهاد وثمرة القتال، وهي الفتح. فكانت بشرى للمسلمين بنيل ثمرة جهادهم، والفوز والظفر على الكافرين.

4.5.2 في سورة محمد بيان حقيقة قاطعة، وهي ضلال وضياع أعمال الكفار، وخسارتهم وهلاكهم، وفي سورة الفتح تطبيق هذه الحقيقة في عالم الواقع. حيث ضاعت أعمالهم، وخسروا حياتهم، فانهزموا في مواجهتهم للمسلمين وحربهم لهم.

6.2 الوحدة الموضوعية للسورة

بعد بيان المناسبة والصلة بين سورة محمد وبين ما قبلها وما بعدها من السور، وإظهار الوحدة الموضوعية بين هذه السور.

نبين الآن الوحدة الموضوعية بين آيات السورة، والصلة الوثيقة بين دروسها.

فمن المعلوم أن كل سورة من سور القرآن تعدّ وحدة موضوعية متكاملة، ولها شخصية خاصة مستقلة، وترتبط آياتها ودروسها برباط وثيق، وتلتقي موضوعاتها ومعانيها على أمر جامع يجمع بينها. وهناك خيط دقيق يربط بين حقائقها ومقاطعها وجزئياتها وتفصيلاتها. ولا يلحظ هذا الخيط إلاّ من تدبر السورة، وأمعن النظر في آياتها ودروسها.

وسورة محمد وحدة موضوعية مترابطة، فهي سورة القتال والجهاد في سبيل الله. و«القتال» اسم توقيفي من أسمائها.

القتال موضوعها، وهو العنصر البارز فيها، والخيط الدقيق الذي يجمع بين دروسها وآياتها، ويربط بين حقائقها ومعانيها، ويظهر واضحاً في صورها وظلالها، ويبدو في جرسها وإيقاعها.

بدأت السورة ببيان حقيقة الذين كفروا، وحقيقة الذين آمنوا، وسر الاختلاف بين الفريقين، وكان هذا البيان في بداية السورة هجوماً على الكفار، وإعلاناً من الله للحرب عليهم.

وبعد إعلان الحرب من الله على الكفار، جاء الأمر الصريح من الله للمؤمنين بقتال الكفار، وضرب رقابهم، وبيان ما يترتب على هزيمتهم من أسر، وما يتعلق بالأسرى من أحكام.

ثم تقدم آيات السورة مقابلة لطيفة بين المؤمنين الذين منّ الله عليهم بالنصر، وبين الكافرين الذين أوقع الله بهم الهزيمة، فتقدم مجموعة من صفات كل من الفريقين، تلك الصفات التي أدت إلى افتراق كل منهما في الدنيا والآخرة.

وتنتقل آيات السورة بعد ذلك لفضح المنافقين المندسين في صفوف المسلمين، الذين يظهرون الاسلام، ويخفون الكفر، وتقدم مجموعة من صفاتهم، وتحذر المسلمين منهم، وتهددهم بكشفهم أمام المؤمنين.

ثم تتكلم الآيات بعد ذلك عن المرتدين، الذين استجابوا للكفار، وخضعوا لهم، وخالفوا أوامر الله، واستسلموا للشيطان.

وتأمر آيات السورة بعد ذلك المؤمنين المجاهدين بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ. وتحضهم على الجهاد في سبيل الله، والثبات في مواجهة الكفار، وتحثهم على الإنفاق في سبيل الله، وتنهاهم عن التثاقل عن الجهاد، والبخل عن الانفاق، والوهن والاستسلام أمام الأعداء.

وتهدد الآية الأخيرة الذين لا يستجيبون لهذه التوجيهات من المسلمين. والذين ينكصون عن الجهاد، ويتولون عن القتال، بأنهم لن يضروا الله، وهم الخاسرون، لأن الله قادر على أن يستبدل قوماً غيرهم، مسلمين مجاهدين، ولا يكونون مثلهم في التخلف والتثاقل والتولي.



تدريب (1)

اقرأ مقدمة تفسير سورة محمد ﷺ في تفسير « في ظلال القرآن » لسيد قطب، واستخرج منها دروس السورة الخمسة، ذاكراً موضوع كل درس، ومواطن الصلة والارتباط بين هذه الدروس.

7.2 أهداف السورة

قلنا إن سورة محمد ﷺ هي سورة القتال. وموضوعها الجهاد في سبيل الله، والخيط الذي يجمع بين دروسها الحث على جهاد الأعداء.

وإن سورة محمد ﷺ، كانت تهدف إلى تقرير موضوعها - الجهاد في سبيل الله، وقتال الذين كفروا - وتوضيحه، وغرسه في حياة المسلمين.

وقد قامت السورة بتقرير ذلك، فالتزم بها المؤمنون، وكانوا مجاهدين في سبيل الله،
ويمكن أن نستخرج من آيات السورة ودروسها الأهداف التالية:

1- دعوة المؤمنين إلى حفظ الإسلام بقتال الكفار أعداء هذا الدين، والاستمرار في قتالهم.

2- إبطال مكائد الكافرين ضد الإسلام، وإفشال مؤامراتهم ضد المسلمين.

3- مقابلة بين الفريقين المتقاتلين، فريق المؤمنين المجاهدين، وفريق الكافرين والمنافقين، وذكر أهم صفات الفريقين.

4- بيان جزاء كل من الفريقين في الدنيا والآخرة. نصر الله للمؤمنين المجاهدين في الدنيا، وإدخالهم الجنة في الآخرة. في مقابل هزيمته للكافرين في الدنيا، وإدخالهم النار في الآخرة.

5- وعيد شديد وتهديد جازم للمنافقين والمرتدين، بكشفهم وفضحهم، إن لم يتراجعوا عن ما هم عليه، ولم يعودوا إلى دائرة الإيمان.

6- بيان أصالة مفهوم الجهاد في الإسلام، وتأصله في سيرة الرسول ﷺ وسيرة أصحابه المجاهدين، وحكمة أمر الله المؤمنين به.

7- عرض بعض الأحكام الفقهية المترتبة على الجهاد وقتال الأعداء، مثل قتلهم، وأسرهم، وما يترتب على الأسر من أحكام.

8- تحليل نفسيات المتثاقلين عن الجهاد، والمتخلفين عن القتال، ومعالجة ما يعتريها من ضعف وتخاذل، والارتقاء بها إلى عالم الرجولة والمجاهدة والتحدي.

9- تعريف المؤمنين المجاهدين بالسنن الربانية الثابتة في موضوع الجهاد، ووضع أيديهم على أسباب النصر.

10- ربط أنظار المجاهدين بالجنة، وتوجيههم إلى طلب نعيمها، والارتفاع عن الدنيا ومتاعها.

11- تهديد المسلمين المتثاقلين عن الجهاد، وترهيبهم من النكوص والتولي عنه، بعد ترغيبهم فيه، وحثهم عليه. فإن تولوا عنه فإن الله يستبدل قوماً غيرهم، ثم لا يكونون أمثالهم.

أسئلة التقويم الذاتي (1)

-1 اذكر الأسماء الثلاثة لسورة محمد ﷺ، وبين التوقيفي والاجتهادي منها. واذكر دليل كل اسم من آياتها، مظهراً التناسق بين الأسماء الثلاثة.

-2 حاول أن تحدد زمن نزول السورة، والجو العام الذي نزلت فيه، في حياة الجماعة المسلمة.

-3 سجّل أربع صور للصلة والتناسب بين سورة محمد ﷺ، وسورة الأحقاف التي قبلها.

-4 سورة محمد سورة الجهاد، وما بعدها سورة الفتح، فما هو وجه الارتباط بين السورتين؟

-5 ما موضوع سورة محمد والخيط العام الذي يجمع دروسها ؟

-6 بيّن الصلة والارتباط بين مقدمة السورة في آياتها الأولى وبين خاتمتها.

-7 دوّن ستة أهداف أساسية للسورة، وسجّل آية من آياتها على كل هدف منها.

3. الدرس الأول: الآيات (1 - 3)

حقيقة المؤمنين وحقيقة الكافرين

1.3 مقدمة

عزيزي الدارس: عرفت الآن أسماء سورة محمد ﷺ، ونزولها في المدينة، والجو العام الذي نزلت فيه، ومناسبتها لما قبلها من السور، وارتباطها بما بعدها أيضاً، ولاحظت الوحدة الموضوعية فيها التي وصلت بين دروسها، وربطت بين موضوعاتها، ووقفت على أهدافها التي حققتها في حياة الجماعة المسلمة.

والآن نأتي إلى التفسير التفصيلي لآياتها، والعرض المفصل لمعانيها، والوقوف أمام دروسها.

وقد سبق أن ذكرنا أن السورة تنقسم إلى ستة دروس متناسقة مترابطة.

وفيما يلي نقف مع آيات الدرس الأول، وندعوك إلى إتقان تلاوة هذه الآيات، وضبط ترتيلها، ثم حفظها، قبل البدء بتفسيرها.

قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ

(سورة محمد: 1-3)

2.3 معاني المفردات

1- صدوا عن سبيل الله: صرفوا الناس عن الدخول في الاسلام.

2- أضل أعمالهم: أبطل أعمالهم، وأحبطها بسبب كفرهم.

3- وهو الحق من ربهم: القرآن المنزل على محمد ﷺ هو الحق الثابت الذي لا شك فيه أنه من عند الله.

4- كفر عنهم سيئاتهم: ستر الله ذنوبهم، وغفرها لهم.

5- أصلح بالهم: أصلح الله لهم حالهم في الدنيا والآخرة.

6- ذلك: اسم الإشارة للأشياء السابقة من إضلال أعمال الكفار، وتكفير سيئات المسلمين، وإصلاح بالهم.

7- يضرب الله للناس أمثالهم: يبين الله لكل من المؤمنين والكافرين أحوالهم، ومصير أعمالهم.

3) معنى الدرس الإجمالي

الناس في هذه الحياة فريقان لا ثالث لهما، إما مؤمنون، وإما كافرون.

وقد تحدثت آيات هذا الدرس عن كل من الفريقين، وبينت حقيقة كل منهما كمقدمة لهذه السورة، التي تأمر بقتال المؤمنين للكافرين وجهادهم، وضرب رقابهم وأسرهم، وهذا القتال الذي بينته آيات ودروس السورة اللاحقة، مبني على معرفة حقيقة المؤمنين وحقيقة الكافرين، الذي بينه هذا الدرس.

بدأت آيات الدرس بالحديث عن الفريق الأول، فريق الكفار، ووصفتهم بأنهم كفروا بأنفسهم، وانصرفوا عن طريق الله، ثم توجهوا نحو غيرهم، ومنعوهم من الاسلام، وصرفوهم عن سبيل الله.

وبسبب هاتين الجريمتين منهم - الكفر والصد عن سبيل الله - فإن الله قد أضل أعمالهم التي عملوها، وأحبطها وأزالها، فإذا عملوا أعمالاً سيئة كالكيد لرسول الله ﷺ، ومحاربة المؤمنين، فإن الله يفشل هذه الأعمال، ويمحو آثارها.

وإذا عملوا أعمالاً صالحة في الظاهر، كصلة الأرحام وحسن الجوار والشجاعة والكرم، فإن الله يجازيهم فيها في الدنيا، غنى وصحة وعافية، ولكن لا ثواب لهم عليها في الآخرة.

ثم تحدثت الآيات بعد ذلك عن الفريق الآخر، وهم المؤمنون، الذين آمنوا، ثم عملوا الصالحات، وهؤلاء قد آمنوا بالقرآن الذي نزله الله على رسوله محمد ﷺ، وصدقوه، والتزموا بأحكامه، وهذا القرآن هو الحق الثابت من الله.

أكرم الله هذا الفريق الصالح، فقبل أعمالهم الصالحة، وأثابهم عليها الثواب الجزيل في الدنيا والآخرة، وكفر عنهم سيئاتهم التي عملوها بحسن نية، وغفر لهم ذنوبهم التي ارتكبوها دون تعمد.

وأصلح الله لهؤلاء المؤمنين بالهم، وحالهم، وشأنهم، ووفقهم لصالح الأعمال في الدنيا، ومنّ عليهم بتأييده ورحمته، فكانوا في الدنيا سعداء، وكانوا في الآخرة فائزين بجنات

النعيم.

وبعد بيان ما فعله الله بالفريقين، عللت الآيات فعل الله، وبيّنت حكمة الله في فعله بهؤلاء وأولئك، وأظهرت سنة ربانية قاطعة في هذا المجال.

لقد أضل الله أعمال الكفار، وأحبطها وأبطلها ؛ لأنهم تركوا الحق من الله، واتبعوا الباطل، وساروا مع الشيطان.

ولقد قبل الله أعمال المسلمين الصالحة، وغفر لهم ذنوبهم وسيئاتهم، وأصلح لهم بالهم وحياتهم، لأنهم اتبعوا الحق من ربهم، وآمنوا برسوله ﷺ، والتزموا بأحكام كتابه إليهم - القرآن الكريم -.

وضرب الله للناس أمثالهم، وبين لكل من المؤمنين والكافرين أحوالهم ومصير أعمالهم، ووضع لهم القواعد والحقائق والموازين التي يقيسون بها أعمالهم، لئلا يحتاروا في الوزن والقياس، وليعلموا سنة الله التي لا تحابي أحدا في جانب الهدى، أو في جانب الضلال.

4.3 من وجوه البيان والبلاغة في الدرس

من وجوه البلاغة وأساليب البيان في الآيات ما يلي:

1.4.3 في الآيات مقابلة بين الذين كفروا والذين آمنوا. فقوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»، يقابل قوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

وقوله عن الكفار: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» يقابل قوله عن المؤمنين:«كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ».

وقوله: «»، يقابل قوله: «».

2.4.3 وفي الآيات طباق، ويبدو الطباق فيما يلي:

طباق بين: «آمنوا» و «كفروا».

وطباق بين: «أضل» و، «كفّر».

وطباق بين: «الباطل» و «الحق».

* (انظر تعريف الطباق ص 146).

3.4.3 وفي الآيات ذكر الخاص بعد العام، وهو في قوله عن المؤمنين: « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» (محمد/2).

فإيمانهم بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ، يدخل ضمن

قولــــه: «آمنوا»، لأن الإيمان بالقرآن، وأنه كتاب الله، من أركان الإيمان.

لكنه ذكر الإيمان بالقرآن بعد ذكر الإيمان، من باب ذكر الخاص بعد العام، وعطفه على الإيمان، من باب عطف الخاص على العام، وفعل ذلك تعظيماً لشأن القرآن، وتنويهاً به، وإشعاراً بأن الإيمان لا يتم بدون الإيمان به.

4.3.4 وفي الآيات جملة معترضة للتوكيد، وهي قوله: «وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» ضمن قوله: «وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ».

فمعلوم أن القرآن حق من عند الله، لكنه أكد ذلك، وذكره ونص عليه في جملة معترضة.

4.3.5 وفي الآيات تصوير فني حي، وهو في قوله عن الكفار: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ».

فأعمال الكفار معنوية غير مادية، ولكنها معروضة في صورة حية شاخصة متخيلة، إذ نتخيل هذه الأعمال كأنها أشخاص حية، شردت عن القوم، وابتعدت عنهم، فضلت وهلكت، وذهبوا يبحثون عنها، فلم يجدوها، كما لم يجدوا دوابهم حين تشرد عنهم، فتضل.

تدريب (2)

اشرح المصطلحات التالية من كتاب «البلاغة الواضحة» لعلي الجارم: المقابلة، الطباق، التوكيد. واشرح معنى «التصوير الفني» من كتاب «التصوير الفني في القرآن» لسيد قطب.

3.5 مقارنة بين المؤمنين وبين الكفار

قلنا إن موضوع هذا الدرس هو بيان حقيقة المؤمنين، وحقيقة الكفار، وعقد مقارنة بينهما، من حيث الصفات، ومن حيث الأعمال، ومن حيث الجزاء والمصير، وبيان الحكمة الربانية من ذلك.

وقد جاء هذا كله مقدمة لموضوع السورة، وتعليلاً لأمر الله المؤمنين بجهاد وقتال الكافرين.

إن آيات الدرس تتكلم عن المؤمنين وعن الكفار بصورة عامة، ولا تخص أفراداً من هؤلاء أو أولئك، لأنه لم يرد دليل على التخصيص.

إن الآيات تتحدث عن المؤمنين أينما كانوا، في أي زمان أو مكان، وأبرز ما تنصرف إلى المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار الذين كانوا مع رسول الله ﷺ.

وتتحدث الآيات عن الكفار أينما كانوا، في أي زمان ومكان، وتشمل كفار العرب في عصر التنزيل، وكفار أهل الكتاب من اليهود والنصارى، والكفار الملحدين والمرتدين وغيرهم، وأبرز ما تنصرف إلى كفار مكة وبلاد العرب، واليهود والنصارى، في زمن رسول الله ﷺ.

تقدم آيات الدرس بعض صفات الكفار، وبعض صفات المؤمنين.

فالكفار:

1- كفروا بالله وبالحق وبالرسول: «الَّذِينَ كَفَرُوا».

2- وصدوا عن سبيل الله، فأفسدوا غيرهم، ودعوهم إلى الكفر، وحالوا بينهم وبين الإيمان،ومنعوهم منه: «وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

3- وهم بكفرهم وصدهم عن سبيل الله، قد اتبعوا الباطل، وتركوا الحق، وساروا في طريق الشيطان، وانصرفوا عن طريق الإيمان: «ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ».

وفي مقابل هذه الصفات الثلاث التي تصدر عنها أعمال الكفار، تقدم الآيات الثلاث صفات للمؤمنين، تصدر عنها أعمالهم:

فالمؤمنون:

1- آمنوا بالله، وصدقوا بكتابه، واتبعوا رسوله محمداً ﷺ والتزموا بأحكام القرآن: «وَالَّذِينَ آمَنُوا .....وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ».

2- وعملوا الصالحات، والتزموا بكل عمل حسن خير يحبه الله ويدعو إليه ويأمر به.

وهذه الأعمال الصالحة التي عملوها كثيرة عديدة، وهي صادرة عن إيمانهم الصادق: «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

3- وهم بإيمانهم، وعملهم للصالحات، قد اتبعوا الحق، وتركوا الباطل، وساروا في طريق الهدى والجنة، وتخلوا عن طريق الشيطان والنار، والتزموا بالحق الذي أتاهم من ربهم: «وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ».

وبعد ما تقدم الآيات ثلاثة أعمال سيئة للكفار، في مقابل ثلاثة أعمال حسنة للمؤمنين، تعقد مقابلة بين مصير أعمال الكفار، ومصير أعمال المؤمنين، ليظهر لنا أن النتيجة ملازمة للعمل، سواء كان حسناً أم سيئاً، وأن جزاء الكفار من جنس أعمالهم، وجزاء المؤمنين

من جنس أعمالهم.

فالكفار وقعوا نتيجة أعمالهم. فلأنهم كفروا، وصدوا عن سبيل الله، واتبعوا الباطل: أضل الله أعمالهم، وأبطلها وأحبطها، فلم يجدوا لها أثراً ولا نفعاً: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ».

وهم يستحقون هذا الجزاء، ولم يظلموا بهذه النهاية لأعمالهم ؛ لأنها سنة الله، أن من كفروا وصدوا عن سبيل الله، واتبعوا الباطل، فهم خاسرون هالكون.

والمؤمنون نالوا نتيجة أعمالهم، فلأنهم آمنوا، وعملوا الصالحات، وآمنوا بما نزل على محمد ﷺ - وهو الحق من ربهم - واتبعوا الحق، كافأهم الله بأن كفر عنهم سيئاتهم، وغفر لهم ذنوبهم، وقبل منهم أعمالهم الصالحة، وأثابهم عليها، وجزاهم بها جنة ونعيماً.

وقد منّ الله على المؤمنين أيضاً بأن أصلح بالهم وشأنهم وحالهم وحياتهم في الدنيا، ووفقهم لصالح الأعمال. فكانوا في حياتهم سعداء، يعيشون حياتهم بطمأنينة وراحة وثقة ورضى وسلام.

ومتى صلح البال، استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس، واستمتعت بالأمن والسلام، وماذا بعد هذا من نعمة أو متاع ؟ ألا إنه الأفق المشرق الوضيء الرفراف (في ظلال القرآن لسيد قطب 6: 3281).

بعد هذه المقابلة بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، في الأعمال والصفات، والجزاء والمصير، نعرف الحكمة من أمر الله للمؤمنين بقتال الكافرين.

6/3 دلالات من آيات الدرس

نستخرج من آيات الدرس الدلالات والعبر التالية:

1- الكفار لم يكتفوا بكفرهم وابتعادهم عن الحق، بل تعدوا هذا إلى الآخرين، فأفسدوهم وفتنوهم، ودعوهم إلى الكفر، وصدوهم عن سبيل الله: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

وهذا يعني أن الكافر لا يكتفي بكفره وفساده، بل يحرص على أن يفسد غيره، ليكون فاسداً مثله، وأن الكفر رذيلة لا تختص بصاحبها، بل تتعداه لتشمل غيره، وأن الصد عن سبيل الله، خطوة تالية لمن كفر بالله.

2- المؤمنون يقطفون ثمار الإيمان، فيقومون بالأعمال الصالحة، وهي كثيرة عديدة، تشمل جميع نواحي حياتهم العامة والخاصة، والفردية والجماعية.

فالإيمان ليس مجرد اعتقاد وتصديق، وليس تصوراً نظرياً فقط، لكن لا بد أن ينتج عنه

عمل صالح، يقوم به صاحبه، فإذا لم يثمر هذا الإيمان العمل الصالح، لم يكن قوياً حياً نافعاً لصاحبه.

والعمل الصالح الذي يقوم به المؤمنون، في مقابل صد أعدائهم الكافرين عن سبيل الله. فبينما يصد الكفار عن سبيل الله، يلتزم المؤمنون بالسير على الصراط المستقيم، واتباع سبيل الله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

ومن العمل الصالح الذي يعمله المؤمنون، الدعوة إلى الله، وإرشاد الناس إلى سبيل الله، ومواجهة أعداء الله، ومنعهم من الصد عن سبيل الله.

3- يعاقب الله الكفار، ويجازيهم بسوء أعمالهم، فلكفرهم وصدهم عن سبيل الله، يضل الله أعمالهم ويبطلها ويحبطها، ولا يقبلها منهم، حتى ولو كانت في ظاهرها حسنة، كالشجاعة والكرم وحسن الخلق، فهذه يجازيهم بها في الدنيا، صحة ورزقاً وسعة، أما يوم القيامة فليس لهم إلاّ النار.

وإضلال أعمال الكفار لكفرهم يدل على أن الكفر هو أساس إحباط عمل صاحبه وتدميره، وهو العلة في كل ما يوقعه الله على صاحبه من عقوبة، ويدل على أن الجزاء من جنس العمل، فمن اختار طريق الكفر، يجني ثمرته، ويصل إلى نهايته، وهي النار والعذاب وضياع الأعمال، ويدل على أن الايمان شرط لقبول الأعمال عند الله: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ».

4- يجزي الله المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجزاء الحسن، بسبب ايمانهم، فيمن عليهم في الدنيا بنعمتين غامرتين.

الأولى: أنه يكفر عنهم سيئاتهم، ويغفر لهم ذنوبهم، هذه الذنوب التي عملوها دون تعمد: «كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» وهذا يدل على أن المؤمن غير معصوم، فقد يرتكب الذنب، مع إيمانه وعمله الصالحات، ولكنه إذا أذنب يستغفر الله، ويرجع إليه، فيغفر الله ذنبه، ويكفر عنه سيئاته.

الثانية: أنه يصلح لهم بالهم، ويوفقهم في حياتهم، ويحفظهم في شئونهم، وإصلاح البال، والشعور بالطمأنينة والسعادة والرضى، نعمة جزيلة من الله: «وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ».

وإذا كان الكفر سبباً في إبطال وإحباط أعمال الكفار، فإن الايمان والعمل الصالح سبب في تكفير ذنوب المؤمنين، وإصلاح بالهم، وشعورهم بالسعادة والهدوء.

وإذا كان الايمان يقود إلى إصلاح البال، ونيل الرضى، وتحقيق السعادة، والعيش بطمأنينة، فإن الكافر محروم من هذه النعم العظيمة لكفره وصده عن سبيل الله.

5- هما طريقان اثنتان في الحياة. إما طريق الهدى أو طريق الضلال. والناس لن يخرجوا عن إحدى الطريقين. وهم مدعوون للاختيار والاتباع. والذي يؤثر في اختيارهم واتباعهم لإحدى الطريقين. هو ما هم عليه من كفر أو ايمان.

إن الذين كفروا يتجنبون طريق الايمان والهدى. ويتركون الحق والنور. ويختارون الضلال والفسوق. ويأخذون بطريق الكفر والباطل. ويتبعون الهوى والشيطان: «ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ».

أما الذين آمنوا فهم أولو ألباب. وذوو بصائر. ولهذا يختارون طريق الايمان والهدى.ويسيرون في طريق النور. ويتبعون الحق:«وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ».

لا بد من اتباع أي من الطريقين. طريق الباطل أو طريق الحق. وعلى من يختار ويتبع أن يجزم بالجزاء والمصير. وأن يتحمل مسؤولية ما اختار واتبع. فضلال وضياع الأعمال جزاء من اتبع طريق الباطل. وتكفير السيئات وإصلاح البال. ونعيم الجنة. جزاء ومصير من اتبع طريق الحق من ربه.

6- شرط في صحة الايمان الايمان بأن محمداً ﷺ رسول الله. وأن القرآن النازل عليه هو كتاب الله. ومن لم يؤمن بذلك فهو كافر. وإن حقق أركان الإيمان الأخرى.

لهذا كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى كفاراً ؛ لأنه م لم يحققوا هذا الشرط في الإيمان.

لهذا وصف الله المؤمنين بأنهم آمنوا بالقرآن المنزل على محمد ﷺ: «وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ».

7- يقدم الله للناس - رحمة بهم - القاعدة التي يرجعون إليها أعمالهم. والميزان الصحيح الذي يزنون به كل شيء. والمقياس الصادق الذي يقيسون به أنفسهم. حتى لا يخطئوا في الحكم. ولا يحتاروا في الوزن والقياس.

إن الله يضرب لهم أمثالهم. ويشبه لهم أشباههم. ويبين لهم أحوالهم. سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين. ويوضح لهم أمر الحسنات والسيئات.

لقد جعل الله اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار. وإضلال أعمالهم مثلاً لخيبتهم. كما جعل اتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين. وتكفير سيئاتهم وإصلاح بالهم مثلاً لفوزهم: «كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ».

?

أسئلة التقويم الذاتي (2)

1 - استخرج من آيات الدرس ثلاثة أعمال للكفار، وبيّن ما يقابلها من أعمال المؤمنين، موضحاً وجه استخراجك لها من كلمات الآيات.

2 - منّ الله على المؤمنين بنعمتين ذكرتهما الآيات. اذكرهما.

3 - سجل ثلاثة نماذج للطباق في كلمات الآيات.

4 - ما معنى قوله: «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ»؟ ولماذا يضرب الله لهم أمثالهم؟ وما الأمثال التي ضربها لهم في هذه الآيات ؟

5 - الايمان أساس قبول الأعمال، والكفر سبب رفضها. علل ذلك، مستشهداً له بكلمات الآيات.

6 - ماذا تسمي العطف في قوله: «آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» وما الأسلوب البلاغي الذي يشير هذا العطف إليه ؟ وما الدلالة العقديّة التي تستخرجها منه ؟

4. الدرس الثاني: الآيات (4 - 9)

قتال الكفار وحكمته ونتائجه

1.4 مقدمة

عزيزي الدارس، عرفت من آيات الدرس السابق حقيقة المؤمنين والكافرين والفرق بين الفريقين في الصفات والأعمال والمصير والجزاء.

وكان الدرس السابق بآياته الثلاث، مقدمة للسورة، وتمهيداً لموضوعها، ولذلك جاءت الدروس اللاحقة مبنية على تلك المقدمة، حيث تأمر المؤمنين بقتال الكافرين.

ونتحدث في هذا الجزء من الوحدة عن الدرس الثاني، وهو ست آيات.

ويرتبط هذا الدرس بالدرس السابق ارتباطاً وثيقاً، فبعد أن عرف الله المؤمنين في الدرس السابق بطبيعة الكفار، أمرهم في هذا الدرس بقتالهم وضرب رقابهم، لكفرهم وصدهم عن سبيل الله.

وتعالج آيات هذا الدرس بعض الأحكام الفقهية، الناتجة عن قتل الكفار وضرب رقابهم وتبين متى يأخذ المسلمون منهم أسرى، وتحدد الحكم في هؤلاء الأسرى.

وتخبر الآيات المسلمين عن الحكمة من تكليف الله لهم بقتال الكفار، كما تخبرهم عمّا أعد الله للشهداء من نعيم الجنة، وتدلهم على طريق نيل نصرة الله ليسلكوه، وتبين لهم سبب تعاسة الكفار وخسارتهم.

وندعوك إلى ضبط كلمات آيات هذا الدرس، وإحسان تلاوتها، وإتقان حفظها، قبل البدء بتفسيرها، قال تعالى:

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ

(محمد/4 - 9).

2.4 معاني المفردات

1- إذا لقيتم الذين كفروا: هو اللقاء للحرب والقتال، وليس مجرد اللقاء.

2- ضرب الرقاب: اقتلوا الكفار بضرب رقابهم وقطع أعناقهم.

3- أثخنتموهم: أكثرتم فيهم القتل، وأهلكتموهم. والإثخان شدة التقتيل حتى تتحطم قوة الكفار.

4- شدوا الوثاق: خذوهم أسرى. والوثاق: هو ما يربط ويوثق به الأسير من حبل أو غيره. وشد الوثاق: إحكام ربطه حتى لا يفلت الأسير.

5- إمّا منّاً: تمنون على الأسير مناً. والمن: إطلاق سراح الأسير دون مقابل.

6- وإما فداء: تفدون الأسير فداء. والفداء: إطلاق سراح الأسير مقابل مال يدفعه، أو مبادلته بأسير للمسلمين عند الكفار.

7- حتى تضع الحرب أوزارها: تنتهي الحرب وتنقضي، ولم يبق إلا مسلم أو مسالم.

والأوزار: الأثقال والاحمال التي تستخدم في الحرب كالسلاح والعتاد.

8- لانتصر منهم: لو شاء الله لانتقم من الكفار دون قتال، كالخسف أو الغرق.

9- ليبلو بعضكم ببعض: أمركم بقتال الكفار ليمتحنكم ويختبركم بهم، فيزداد أجركم بقتالهم، ويختبرهم بكم فيعذبهم على أيديكم.

10- عرفها لهم: بيّن الله الجنة للمسلمين عندما يدخلونها، وأعلمهم بها، فيذهب كل منهم إلى منزله فيها، كأنه يعرفه منذ مدة.

11- إن تنصروا الله: إن تنصروا دين الله، وتجاهدوا مع رسوله ﷺ.

12- تعساً لهم: دعاء علي الكفار من الله، بهلاكهم وخيبتهم وتعاستهم.

13- أحبط أعمالهم: لم يقبلها منهم، وأبطلها.

3.4 المعنى الإجمالي

ذكرت آيات الدرس السابق أن الناس فريقان:

فريق المؤمنين المتبعين للحق، وفريق الكفار المتبعين للباطل، والحق الذي عليه المسلمون هو الذي يجب أن يسود في الأرض، ويهيمن على حياة الناس، والباطل الذي عليه الكفار ينبغي أن يزال ويبطل.

ولذلك جاءت آيات هذا الدرس تأمر المؤمنين أصحاب الحق بقتال الكفار أصحاب الباطل، ليتخلوا عن باطلهم، ويتبعوا الحق.

تأمر الآيات المسلمين بأنهم إذا لقوا الكفار - في أي زمان ومكان - لقاء حرب وقتال، فعليهم أن يقاتلوهم بقوة وشدة وغلظة، وأن يمعنوا فيهم قتلاً، بضرب رقابهم، وقطع أعناقهم، وإزهاق أرواحهم، وقتل أكثر عدد منهم، للقضاء على قوتهم، وكسر شوكتهم، فهذه طبيعة الحرب.

وبعد إثخان المسلمين للكفار، وشدة تقتيلهم، وتحطيم قوتهم، فعليهم أن يلقوا القبض عليهم، من ميدان المعركة، وشد وثاقهم، وإحكام ربطهم، وأخذهم أسرى، وسوقهم إلى الأسر، حتى يحكم الإمام فيهم.

والإمام مخير في هؤلاء الأسرى، كما تبين الآيات، فله أن يمن عليهم مناً، بأن يطلق سراحهم، وبذلك يحملهم هم وقومهم منةً وجميلاً.

كما أن له أن يفاديهم فداء، بأن يطلق سراحهم مقابل مبلغ من المال يدفعونه للمسلمين، أو مقابل مبادلتهم بأسرى للمسلمين موجودين عند الكفار، فيكون تبادل للأسرى بين الفريقين.

وبينما تخير الآيات الإمام بين المن على الأسرى أو فدائهم بمقابل، فإن السنة - من خلال هدي الرسول ﷺ في الأسرى - تجيز له أن يقتل بعضهم في حالات خاصة، ولأسباب خاصة، كما تجيز له استرقاق بعضهم، في ظروف خاصة.

وتبين الآيات أن هذا الحكم في الكفار - من حيث قتلهم في الحرب، ثم أخذهم أسرى عند تحطيم قوتهم، والمن على الأسرى أو مفاداتهم - مستمر وباق، محكم غير منسوخ، ويبقى المسلمون يعملون به في معاركهم المستقبلية مع الكفار، حتى تنتهي الحرب بينهم وبين الكفار، وتضع أوزارها، وتسكت أسلحتها، وهذا لا يكون إلاّ عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان.

ثم تقدم الآيات الحكمة من أمر الله لهم بقتال الكفار، فالله ليس بحاجة لهم في قتالهم، ولا يستعين بهم على الكفار، وحاشاه من ذلك، فلو شاء لانتصر من أولئك الكفار، وانتقم منهم وأبادهم وأهلكهم، بالخسف أو الدمار أو غير ذلك.

ولكنه أراد أن يبتلي المؤمنين ويمتحنهم ويختبرهم، عندما يقاتلون الكفار، فالجهاد تربية عظيمة لهم، كما أنه يبتلي الكفار بقوة المؤمنين، فتتحطم قوتهم، ويقضي على الكفر فيهم، ويذهب غيظ قلوبهم، ولا يكون هذا إلاّ بالقتال والجهاد.

وبما أن قتال المسلمين للكفار ينتج عنه وقوع القتل في بعضهم، واستشهادهم في سبيل الله. لذلك قدمت الآيات بعض الجزاء والأجر الذي جعله الله لهم.

فهؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله، ولقوا وجه الله شهداء، فإن الله قد أكرمهم وأثابهم، وتقبل منهم جهادهم واستشهادهم، فهو لن يضل أعمالهم، ولن يحبط جهودهم، ولن يبطل حسناتهم.

ومن مظاهر قبوله لجهادهم واستشهادهم أنه يهديهم ويصلح بالهم بعد استشهادهم، كما هداهم وأصلح بالهم قبل استشهادهم، ولذلك سيدخلهم الجنة، ويخلدهم فيها، منعمين مكرمين.

وهم عند ذهابهم إلى قصورهم وجناتهم، لن يضلوا عنها، ولن يسألوا عنها، ولن يذهبوا إلى غيرها، رغم سعة الجنة، وسعة ملك المؤمنين فيها، فإن الله قد عرفهم بقصورهم فيها، وبينها لهم، فهم يذهبون إليها من غير سؤال ولا استدلال، وكأن أحدهم ساكن في قصره منذ زمن.

وتدل الآيات المؤمنين على أسباب النصر، وترشدهم إلى الأخذ بها، فإذا أرادوا أن ينالوا نصر الله، فعليهم أن ينصروا الله، ونصرهم لله يكون بالتزامهم بأحكامه، وطاعة رسوله ﷺ، ونصرهم لدينه، وجهدهم لأعدائه.

إنهم عندما يفعلون ذلك، فإن الله سيكرمهم، ويمن عليهم بالنصر، ويثبت أقدامهم في المعركة لدى مواجهة الكفار، فلا يفرون ولا ينهزمون . وبعد أن بينت الآيات جزاء المجاهدين، انتقلت للكلام عن عقوبة الله للكفار، فهم قد كتب الله عليهم التعاسة والخيبة، والخزي والشقاء والخذلان، وقد أحبط الله أعمالهم وأبطلها، فلم يعد لها أثر، ولم تنفعهم.

وقد فعل الله ذلك بالكفار، لأنهم يستحقونه، فهم قد كرهوا ما أنزل الله من آيات القرآن على رسوله محمد ﷺ، وحاربوه، واختاروا الباطل والكفر والضلال. وكل من فعل ذلك، فإن الله يحبط عمله، ويذله ويخزيه.

4.4 من وجوه البيان والبلاغة في آيات الدرس

4.4.1 في الآيات مقابلة: بين قوله عمن قتلوا في سبيل الله: «فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ»، وقوله عن الكفار: «وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ».

4.4.2 في الآيات طباق، وهو بين المنّ على الأسرى وعدم المن عليهم، وعدم المن يكون بالفداء أو الاسترقاق: «فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً» (محمد/4).

4.4.3 في قوله: «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا» استعارة تبعية، حيث شبهت الآية ترك

الحرب بوضع آلتها، واشتقت من الوضع كلمة « تضع » بمعنى تنتهي.

4.4.4 في قوله: «وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» مجاز مرسل، حيث أطلقت الآية الجزء وأرادت الكل، وعبرت بالأقدام، لأنها أداة الثبات. والمعنى: يثبت أقدامكم عند قتالكم لأعدائكم.

5.4.4 في الآيات تصوير فني فيما يلي:

الأول: في قوله: «فَضَرْبَ الرِّقَابِ». فالمراد به قتل الكفار، لكن الجملة تصوير لعملية القتل بصورتها الحسية المباشرة، وبالحركة التي تمثلها.

الثاني: في قوله: «فَشُدُّوا الْوَثَاقَ». فهو تصوير لعملية إلقاء القبض على الأسير، وإحكام ربطه، حيث نتخيل هؤلاء الأسرى، وهم يربطون بإحكام.

الثالث: في قوله: «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا». فالحرب معنوية، ولكنها هنا معروضة بصورة مجسمة شاخصة، فهي مخلوق حي، تحمل على ظهرها أثقالاً وأحمالاً، ثم تريد أن تخفف ما تحمل، فتضعه وتتركه على الأرض.

5.4 وجوه القراءات في قوله: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»

في قوله: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ» قراءتان من القراءات السبع:

الأولى: قراءة أبي عمرو بن العلاء، وحفص عن عاصم: « قُتلوا » بضم القاف، على ما لم يسمّ فاعله.

وحجتهما: أن الآية تتحدث عن الشهداء، وهؤلاء الشهداء قتلوا في سبيل الله، وقد قال الله عنهم في آية أخرى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا». (آل عمران/169)

الثانية: قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة عن عاصم: « قاتلوا » بالألف.

وحجتهم أن «قاتلوا» أبلغ في مدح المقاتلين الشهداء من « قُتلوا » وهي أشمل أيضاً، فالله يقدم الثواب والجزاء لكل من قاتل الأعداء، ولو لم يُقتل هو، ولم يلق الله شهيداً.

ثم إن الله وعد هؤلاء المقاتلين، الذين قاتلوا في سبيل الله، أن يهديهم، ويصلح بالهم، وهو يمنحهم هذه النعمة في الدنيا، قبل أن يموتوا.

والقراءتان صحيحتان؛ لأنهما من القراءات السبع، فلا ترجيح لإحداهما على الأخرى؛ لأن كلاً منهما كلام الله.

6/4 قتل الكفار وأسرهم

أمر الله المسلمين بقتال الكفار وضرب رقابهم، وبعد إكثار القتل فيهم وإثخانهم، أمر بأخذ الأسرى: «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ». ويؤخذ من هذا الجزء من الآية ثلاثة أحكام:

الأول: قتال الكفار وقتلهم وضرب رقابهم: «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ».

الثاني: الإكثار من قتلهم، وإيقاع قتلى كثيرين فيهم، والحرص على زيادة قتلاهم، لأن الإثخان هو شدة تقتيلهم: «حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ».

الثالث: بعد ضرب رقاب كثيرين منهم، والإكثار من قتلهم، وتحطيم قوتهم، وتدمير جيوشهم وأسلحتهم، أخذ الأسرى منهم، وشد وثاقهم: «حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ».

والظاهر أن هذه الآية كانت بعد غزوة بدر، التي أخذ المسلمون فيها أسرى من قريش، وقبل إثخانهم، وإكثار التقتيل فيهم، فلامهم الله وعاتبهم على ذلك: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ». (الأنفال/67).

ولا تعارض بين آية الأنفال وآية سورة محمد ﷺ.

ففي آية سورة الأنفال، يعاتب الله المؤمنين، لأنهم أخذوا في غزوة بدر الأسرى من كفار قريش. وكان هذا قبل إثخانهم وإكثار القتل فيهم، فما كان لهم أن يفعلوا ذلك. والأصل أن لا يأخذوا الأسرى إلاّ بعد الإثخان: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ».

وفي آية سورة محمد ﷺ، يبين الله أن أخذ الأسرى من الكفار يكون بعد إثخانهم: «فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ».

فالآيتان تلتقيان على تقرير حقيقة واحدة، لا أسر للكفار إلاّ بعد إثخانهم.

وهذا الحكم محكم لم ينسخ، فهو باق وسار حتى قيام الساعة. وينطبق على كل معركة بين المسلمين والكفار، والهدف منه هو تحطيم قوة العدو، وتعجيزه عن الهجوم على المسلمين.

7/4 حكم الأسرى

خير الله الإمام بين أمرين بشأن الأسرى، فقال: «فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً»

الأمر الأول: أن يمن الإمام على أسرى الكفار، ويطلق سراحهم دون مقابل، ويعيدهم إلى قومهم، إن كان في ذلك مصلحة المسلمين.

الأمر الثاني: أن يأخذ الإمام الفداء منهم، فيطلق سراحهم مقابل فدائهم لأنفسهم، وهذا الفداء يكون: إما بمبلغ من المال يدفعونه، أو يدفعه عنهم قومهم الكفار، وإما بعملية تبادل للأسرى بين المؤمنين والكفار، فيطلق المسلمون أسرى الكفار عندهم، مقابل إطلاق الكفار سراح أسرى المسلمين عندهم.

وهذه الآية التي تخير الإمام بين أمرين في الأسرى، هي النص الوحيد في القرآن، الذي يتضمن حكم الأسرى، وهو الأصل الدائم في المسألة.

فإذا ما انتقلنا إلى سنّة رسول الله ﷺ، لمعرفة هديه في الأسرى، فإننا نرى أنه فعل بهم أفعالاً أربعة:

الأول: المنّ عليهم، وإطلاق سراحهم دون مقابل. كما منّ على « قمامة بن أثال الحنفي» سيد بني حنيفة، ومنّ على سبي هوزان، ومنّ على قريش يوم فتح مكة.

الثاني: الفداء، وإطلاق سراحهم مقابل الفدية، كما فعل مع أسرى قريش في معركة بدر.

الثالث: قتل بعض الأسرى لخطورتهم ولجرائم أخرى ارتكبوها. حيث قتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث بعد معركة بدر، وقتل أبا عزة الشاعر بعد معركة أحد، وقتل أسرى يهود بني قريظة.

الرابع: استرقاق بعض الأسرى، وأخذهم عبيداً وإماء أرقاء، كما فعل مع بعض أسرى بني قريظة وبني المصطلق.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية منسوخة: «فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً» والذي نسخها هو قوله تعالى: «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» (التوبة/5).

فهذه الآية الناسخة منعت أخذ الأسرى من الكفار، وأمرت بقتلهم جميعاً.

لكن ذهب جمهور العلماء إلى أن الآية محكمة غير منسوخة، وهذا هو الراجح، وهو مذهب المالكية والشافعية والحنابلة.

قال الإمام ابن كثير يلخص القول في أحكام الأسرى، ويرد الدعوى بنسخ الآية: «قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه، منسوخة بقوله تعالى:

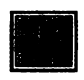
«فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ».

وقد رواه العوفي عن ابن عباس، وهو قول قتادة والضحاك والسدي وابن جريج. وقال الآخرون - وهم الأكثرون -: ليست بمنسوخة.

ثم قال بعضهم: إن الإمام مخير بين المنّ على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: ما عندك يا ثمامة ؟ فقال: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تمن تمن على شاكر، وإن كنت تريد المال فاسأل، تعط منه ما شئت.

وزاد الشافعي رحمه الله فقال: الإمام مخير بين: قتله، أو المن عليه، أو مفاداته، أو استرقاقه » (تفسير القرآن العظيم لابن كثير 4: 182 - 183).



نشاط (2)

اطلع على تفسير قوله تعالى:« حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً» في تفسير:

1 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م 8 جـ 16 صفحات: 226 - 228.

2 - في ظلال القرآن لسيد قطب 3282:6 - 3285.

وقدم تقريراً تلخص فيه تفسيرهما له .

4(8) جزاء المجاهدين وحكمة الجهاد

أمر الله المؤمنين بجهاد الكفار،وضرب رقابهم، ثم أخذهم أسرى، وهذا الأمر محكم ثابت، لم ينسخ ولم يبدل، وهذا الجهاد باق مستمر، لأن الله يقول:«فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا».

ووضع أوزار الحرب وأحمالها وأثقالها يكون بانتهاء أسبابها ومسوغاتها، حيث تنتهي الحرب، ويتوقف الجهاد.

وهذا لا يكون إلاّ قبيل قيام الساعة، عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام.

روى أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «الجهاد ماض إلى يوم

القيامة».

وروى أبو داود وأحمد عن عمران بن حصين رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي، ظاهرين على الحق، حتى يقاتل آخرهم الدجال».

ولهذا قال مجاهد رحمه الله: «حتى تضع الحرب أوزارها »: حتى ينزل عيسى بن مريم، عليه السلام.

وقد بينت الآيات أن أمر الله المؤمنين بجهاد الكفار لم يكن لحاجته إليهم في الجهاد، أو ليستعين بهم على الكفار، فهو القوي القادر القاهر - سبحانه وتعالى - ولو شاء لانتقم من الكفار، وأهلكهم ودمرهم، برجفة أو خسف أو عاصفة. لكنه أوجب الجهاد على المؤمنين، ليبتلي المؤمنين بالكفار، وليبتلي الكفار بالمؤمنين: «ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ».

كلف الله المؤمنين بالجهاد، ليبتليهم ويمتحنهم، وليربيهم ويصلحهم، ويعالج أمراضهم، ويسمو بهم، ويسعد البشرية بهم، وليكونوا ستاراً لقدره، ينفذ بهم مشيئته، في نصرة دينه، وهزيمة أعدائه، وليرفع درجاتهم عنده، ويتخذ منهم شهداء.

وهذا كله لا يتحقق إلاّ بالجهاد، فهذه هي حكمة تكليف الحكيم الخبير عباده المجاهدين بالجهاد في سبيله.

هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، الذين جاهدوا الكفار وقاتلوهم، فمنهم من قتل الكفار، ومنهم من قتل في سبيل الله، قد تقبل الله جهادهم.

وقد أخبرت الآيات أن الله لن يضل أعمالهم ولن يحبطها، ولن يضيع جهادهم، ولكنه سيهديهم، ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ».

وتبين هذه الآيات الجزاء الجزيل، والثواب العظيم، الذي أعده الله للمؤمنين المجاهدين الذين استشهدوا في سبيل الله:

1- إن الله لن يضل أعمالهم، ولن يحبطها، ولكنه يتقبلها منهم، ويكثرها وينميها ويضاعفها: «فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ».

وقد روى الترمذي وابن ماجه وأحمد عن المقداد بن معد يكرب الكندي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له في أول دفقة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الايمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، مرصع بالدر والياقوت، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين

إنساناً من أقاربه».

2- إن الله سيهديهم بعد استشهادهم إلى الجنة، ويرشدهم إلى منازلهم فيها.

وهذه الهداية لهم في الجنة كالهداية في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» (يونس/9).

3- إن الله سيصلح بالهم وأمرهم وشأنهم وحالهم بعد استشهادهم. حيث يجعلهم يعيشون حياتهم المشرقة في سناء وإشراق وصفاء، يحفظ لهم فيها أعمالهم، ويجري عليهم فيها كرمه وإنعامه وإحسانه. حتى قيام الساعة:«وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ».

4- إن الله سيدخلهم الجنة عند قيام الساعة، ويخلدهم في نعيمها وروضاتها وخيراتها.

وقد عرفهم الله بمنازلهم وقصورهم في الجنة، وبينها لهم، وأعلمهم بها، فمنذ أن يدخلوا الجنة، يذهب كل منهم إلى منزله وقصره الذي جعله الله له، دون استدلال أو استرشاد أو سؤال من مرشد أو دليل، على الرغم من سعة الجنة وامتداد بساتينها وجناتها، وكثرة منازلها وقصورها:«وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ».

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، إن أحدهم بمنزله في الجنة، أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا».

هذه هي نهاية الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، بما فيها من كرامة سعيدة، وحياة مديدة، وهذا بعض الجزاء الجميل والخير الجزيل، الذي جعله الله لهم.

9,4 شروط النصر للمؤمنين

بعدما بيّن الله للمؤمنين بعض ما أعده من جزاء ونعيم للمجاهدين والشهداء، دلهم على طريق النصر، وأرشدهم إلى شروطه، ودعاهم إلى السير في ذلك الطريق، وتحقيق تلك الشروط:«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ».

إنعام الله عليهم بالنصر مشروط بنصرهم هم لله، فإن حققوا هم الشرط الذي شرطه الله عليهم، نالوا الجزاء المبني عليه، والوعد الذي قطعه الله لهم، والله منجز وعده، فهو لا يخلف الميعاد، وهذه الآية كقوله تعالى: «وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ». (الحج/40).

وكيف ينصر المؤمنون الله حتى ينالوا نصره وتثبيته ؟!

إن الله قوي عزيز، ولا يحتاج إلى عونهم ونصرهم ومساعدتهم، ولكنه يريد لهم أن يخلصوا له، وأن تتجرد قلوبهم له، وأن يقبلوا على دينه، وأن يكونوا عباداً مخلصين له، مجاهدين في سبيله.

نصرهم لله في قلوبهم ونفوسهم أولاً، بأن تتوجه هذه القلوب إلى الله، وأن تخلص له، وأن يكون الله أحب إليها من كل شيء، وأن تتخلص من كل شرك أو رياء.

ثم نصرهم لله بنصرهم لدينه وشريعته، بالالتزام بأحكام الله، والدعوة إليها، وتحكيمها في الحياة، وإسعاد الناس بها.

ثم نصرهم الله بالجهاد في سبيل الله، ومواجهة أعداء الله، ورد كيدهم وحربهم للإسلام والمسلمين، والثبات في ساحات الجهاد والمواجهة.

إنهم إنْ فعلوا ذلك، يكونوا قد نصروا الله، وأصبحوا أهلاً لنيل نصر الله.

لقد وعدهم الله أمرين، عندما يحققون شرط النصر، وهما النصر وتثبيت الأقدام: «يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم».

إن الله ينصرهم بعد أن ينصروا دينه، وهذا يدل على أن الجزاء من جنس العمل، أما إذا لم ينصروا دينه، فكيف يتوقعون نصره، ويحلمون به؟ لقد أخلوا بالشرط وخالفوا السنة الربانية؟

وإن الله يثبت أقدامهم، فيجعلها ثابتة على الحق، لا تضعف ولا تتزلزل، ولا تهرب وتفر.

وليس هو ثبات الأقدام فقط، بل هو ثبات الأبدان والأجسام على الحق، وثبات الكيان على الإيمان، وثبات الأشخاص على الدين.

ونلاحظ في الآية أمراً مهماً: «يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم» فقد قدم نصر الله لهم على تثبيت أقدامهم، مع أن تثبيت الأقدام يكون قبل النصر، وثبات المجاهدين في المعركة، وعدم فرارهم منها، يسبق انتصارهم على الأعداء. فلماذا قدمت الآية النصر على تثبيت الأقدام ؟

إنهما تثبيتان للأقدام. تثبيت للأقدام قبل النصر، وهو شرط للنصر وتمهيد له، وهذا لم تتحدث عنه الآية. وتثبيت للأقدام بعد النصر بمعنى الثبات على النصر وتكاليفه، وعدم التكبر والبطر والزهو بعده، وعدم التراضي والتهاون بعده، وعدم التنازل والتخلي عن الحق بعده.

إن النصر في المعركة، ليس نهاية المواجهة بين الحق والباطل، والحرب بين الكفر والإيمان، فالمواجهة مستمرة، والثبات مطلوب، مطلوب عند المحنة والشدة قبل النصر في المعركة، ومطلوب أكثر عند النعمة والرخاء بعد النصر، وكثير من الناس يثبتون عند المحنة والشدة، لكن قليلاً منهم هم الذين يثبتون عند النعمة بعد النصر.

10.4 جزاء الكفار المكذبين

بعدما بين الله الجزاء الجميل والثواب العظيم الذي أعده للمؤمنين المجاهدين، أشار إلى الجزاء الذي جعله للكافرين المكذبين، ذلك الجزاء الذي يتفق مع أعمالهم القبيحة.

وهذا الانتقال للكلام عن جزاء الكافرين، من باب التقابل في أساليب العرض القرآني، حيث يعرض الصورة المقابلة للصورة التي تكلم عنها، حتى يعرف الناس الأمرين المتقابلين، فيختاروا ما شاءوا على بصيرة، حيث - يهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة.

قال الله عن الكفار: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ». وهذا الجزاء الذي أوقعه الله بهم من جنس أعمالهم، فهم كفار، وأعمالهم باطلة، والكفر داء خبيث يقود صاحبه إلى الخزي والتعاسة والخسارة، وهو يحبط الأعمال ويلغيها ويبطلها.

والآية دعاء من الله بالتعاسة للكفار، وهذا الدعاء من الله واقع لا محالة، وهو قضاء الله عليهم بالتعاسة والخيبة والخسارة والشقاء والخذلان.

أين هذا الجزاء والمصير والعذاب، من ذلك الإنعام والفضل من الله على المؤمنين المجاهدين، حيث نصرهم وثبت أقدامهم ؟

وقد بينت الآيات سبب تعاسة الكفار وشقائهم، وسبب إبطال أعمالهم:

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ». إنهم كفار، كفروا بالله. وكرهوا ما أنزل من القرآن، ولم يحبوا كلام الله، ولم يريدوا شرع الله، وحاربوا جنود الله، وهذه كلها جرائم قبيحة منهم، سببت لهم الخزي والشقاء والتعاسة، وإحباط الأعمال وضياعها.

أسئلة التقويم الذاتي (3)

1- أمعن النظر في آيات الدرس، ثم استخرج منها خمس دلالات، مع الإشارة إلى وجه الاستدلال.

2- كيف توفق بين قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ» وبين قوله تعالى في سورة الأنفال آية 67): «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ»؟

3- اذكر القراءتين في قوله: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، ناسباً كل قراءة إلى أصحابها، واشكل الكلمة على كل قراءة، ذاكراً حجة من قرأ بها.

4- بينت الآيات الجزاء الذي أعده الله للذين قتلوا في سبيله، استخرج من الآيات ذلك الجزاء.

5- متى تضع الحرب أوزارها؟ ولماذا؟ واذكر في ذلك الحديث عن رسول الله ﷺ.

6- بيّن الحكمة من تكليف الله لنا بالجهاد، واذكر الآية التي تقرر ذلك من آيات الدرس.

7- ما هو الراجح لك في حكم الأسرى في الآيات؟ هل هو محكم أو منسوخ؟ ولماذا؟

8- كيف ينصر المؤمنون الله، وما هو شرط نيلهم لنصر الله ؟

9- بيّن الحكمة من تقديم النصر على تثبيت الأقدام في قوله: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ».

10- بينت الآيات سبب تعاسة وشقاء الكفار، اذكر السبب من الآيات، ثم علّل ذلك، وقارن بين جزائهم، وجزاء المجاهدين.

5. الدرس الثالث: (10-15) مقابلة بين المسلمين والكفار

1.5 مقدمة

عزيزي الدارس، تحدثت آيات الدرس السابق عن قتال المسلمين للكفار، وعن حكم الأسرى من الكفار، واستمرار هذه الأحكام حتى تضع الحرب أوزارها قبيل قيام الساعة، وبينت الحكمة التربوية في تكليف الله للمؤمنين بقتال الكفار، وعرضت الجزاء الجميل الذي أعده الله لعباده المجاهدين، والجزاء الذي أوقعه الله بالكفار بسبب كفرهم وسوء أعمالهم، وعرفت المسلمين بشروط النصر التي لا بد أن يأخذوا بها؛ لينالوا نصر الله.

والآيات التي معنا في هذا الدرس تجري مقابلة، وتعقد مقارنة؛ بين المسلمين والكفار، لبيان اختلاف الفريقين، واختلاف مصير كل منهما.

فالمؤمنون أولياء الله، والله وليهم، ويدخلهم الجنة يوم القيامة، وقد عرضت الآيات صورة من نعيم الجنة وخيراتها والكافرون أهلكهم الله، ودمر قراهم، وتخلى عنهم لكفرهم، فلا ناصر لهم، وقد أعد لهم العذاب الأليم في النار، قال تعالى:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ

(محمد/ 10-15)

2.5 معاني المفردات

1 - دمر الله عليهم: أهلك الله أنفس الكفار وأولادهم وأموالهم.

2 - وللكافرين أمثالها: للكافرين في أي زمان ومكان أمثال تلك العقوبة التي أوقعها الله بالكافرين السابقين.

3 - الله مولى الذين آمنوا: الله ولي المؤمنين وناصرهم على أعدائهم.

4 - الأنعام: هي الإبل والبقر والغنم، لأن مجال النعمة فيها ظاهر بارز.

5 - النار مثوى لهم: النار منزل ومقام ومصير للكفار.

6 - كأين من قرية: كم من قرية، والاستفهام هنا للتكثير.

7 - قريتك: هي مكة، التي أخرج أهلها الكفار محمداً -ﷺ- منها.

8 - زين له سوء عمله: حسن له الشيطان قبيح فعله السيء.

9 - مثل الجنة: صفة الجنة العجيبة العظيمة.

10 - غير آسن: غير متغير الطعم والرائحة بطول المكث كماء الدنيا.

11 - لذة للشاربين: خمر لذيذة لشاربيها المؤمنين في الجنة.

12 - عسل مصفى: عسل منقى، خال من الشمع، وفضلات النحل.

3.5 المعنى الإجمالي لآيات الدرس

كان الكلام في آيات الدرس السابق عن تكليف المؤمنين بقتال الكافرين، وعن بيان حكمة الجهاد وأثره في المؤمنين، وعن نتائج القتال من حيث الأسرى، وحكم الأسرى، وعن شروط النصر، وعن الجزاء الحسن للمؤمنين المجاهدين، والعقاب الأليم للكافرين المكذبين.

وآيات هذا الدرس تتكلم عن الفرق بين الفريقين: المؤمنين والكافرين، وتجري مقابلات بينهم، وتعقد موازنات ومقارنات، تظهر فيه حقيقة الافتراق بينهم، نعرف منها أن الفريقين لا يستويان ولا يلتقيان، فما بينهما فروق متوازية أصيلة.

تبدأ آيات الدرس بلفت الأنظار إلى مصارع الكافرين السابقين، وتدعو إلى النظر في آثارهم، للاعتبار بماجرى لهم، والتخلي عن ما كانوا عليه من الكفر.

وتبين الآيات أن الله هو مولى المؤمنين، ولهذا ينصرهم على أعدائهم، أما الكفار فهم هالكون لا مولى، ولا ناصر لهم.

وتقارن الآيات بين المؤمنين والكافرين في الاستمتاع بخيرات الدنيا، والافتراق بينهم

فيه، وتبين الفرق بين الفريقين في الجزاء، فالمؤمنون لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، والكفار لهم النار.

كما توازن الآيات بين الفريقين في المنهج، فالمؤمنون على بينة من ربهم، والكفار متبعون لأهوائهم، ولهذا هم مختلفون في الحال والمنهج والاتجاه، وفي الميزان والمقياس، ومن ثم هم مختلفون في الجزاء والنهاية والمرجع والمصير.

وتقدم الآيات صورة للتفرقة بين الفريقين في المرجع والمصير، فتعرض لقطات ومشاهد لنعيم المؤمنين في الجنة، وما فيها من رضوان الله، مقابل ما فيه الكفار من العذاب في النار، وما يشربون فيها من الماء الحميم الذي يقطع أمعاءهم.

وبهذه المقارنات والموازنات والمقابلات بين الفريقين، يختار البصير العاقل طريق المؤمنين، وينفر من طريق الكافرين، لأنه لا مساواة بينهما في شيء.

وصدق الله تعالى إذ يقول:«لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ» (الحشر/20).

4.5 من وجوه البيان والبلاغة

1.4.5 في الآيات طباق بين: « آمنوا » و « كفروا » لأنهما أمران متقابلان متضادان متغايران. وفيها طباق بين « الجنة » و « النار ».

2.4.5 في الآيات مقابلة:

1) فقوله عن المؤمنين:«أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ» في مقابلة قوله عن الكفار «كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ» وقوله: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا » في مقابلة قوله: «وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ».

2) وقوله :«إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» في مقابلة قوله عن الكفار «وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ».

3.4.5 وفي الآيات مجاز مرسل:

المجاز المرسل في قوله:«وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ»، ولا تراد القرية في الحقيقة، وإنما يراد أهلها، فأطلقت الآية المحل - وهو القرية -، وأرادت الحال فيه - وهو أهلها. فالمعنى: وكأين من أهل قرية.

والمجاز المرسل في قوله: «أَخْرَجَتْكَ»، فالقرية لا تخرجه، وإنما يخرجه أهلها. فالمعنى: التي أخرجك أهلها.

4.4.5 وفي الآيات إطناب وهو تفصيل ذكر أنهار الجنة، وذكرت كلمة «أنهار» فيها أربع مرات، للتشويق والترغيب. قال تعالى: «فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى».

5.4.5 وفي الآيات تصوير فني في قوله تعالى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

وقد عرض سيد قطب هذا التصوير فقال: « وهي لفتة عنيفة مروعة، فيها ضجة وفرقعة، وفيها مشهد للذين من قبلهم، يدمر عليهم كل ما حولهم، وكل مالهم، فإذا هو أنقاض متراكمة، وإذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة» .

وذلك المشهد الذي يرسمه التعبير مقصود بصورته وحركته. والتعبير يحمل في إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقعته، في انقضاضه وحطمه.. » (في ظلال القرآن لسيد قطب 6: 3289 - 3290).

تدريب (3)

أمعن النظر في آيات الدرس (10-15)، واستخرج ثلاثة نماذج أخرى للتصوير الفني فيها، مبيناً جزئيات التصوير في كل مثال.

5.5 القراءات في قوله تعالى: «غَيْرِ آسِنٍ»

في قوله تعالى « غير آسن » قراءتان صحيحتان:

الأولى: قراءة ابن كثير المكي: «غير أسن» بقصر الهمزة، على أن «أسن» على وزن «فعل».

وحجته في هذه القراءة أن «أسن» مثل: «هرم» و «مرض» و «عرج» وكل منها اسم فاعل من فعله. تقول: أسِن، يأسن، فهو أَسِنٌ، كما تقول: مرِض، يمرض، فهو مرضٌ ومريض، وعرِج، يعرج، فهو عرجٌ وأعرج.

يقال: الماء آسنٌ، إذا تغيرت رائحته، والماء غير آسن، إذا لم تتغير.

الثانية قراءة الستة الباقين: نافع وعاصم وابن عامر وأبي عمرو وحمزة والكسائي: «غير آسن» بمد الألف. على أن « آسن » على وزن « فاعل ».

وحجتهم في هذه القراءة أن « آسن» أصلها همزتان: أأسن. همزة الكلمة الأصلية، وبعدها همزة مزيدة. فأبدل من الهمزة الثانية ألفاً، فصارت « آسن ».

و« آسن » من « أسن » مثل « ذاهب » اسم فاعل من ذهب.

وقد فرّق بعضهم بين « أسن » بالقصر. و « آسن » بالمد:

« قال الأخفش »:« أسن » على وزن «فعل ». وهو للحال التي يكون عليها الماء.

وأما من قال: « غير آسن »، على وزن « فاعل »، فإنما يريد أن الماء لا يصير إلى ذلك في المستقبل » (حجة القراءات لابن زنجلة: 667)

إذاً: « غير أسن » معناه: أن الماء لا يتغير الآن.

و: « غير آسن » معناه: أن الماء لا يتغير في المستقبل.

فمجموع القراءتين يدل على أن الماء في أنهار الجنة، لا يتغير الآن، ونحن ما زلنا في الدنيا، ولا يتغير في المستقبل عندما يدخل المؤمنون الجنة.

6 أسباب النزول

كان نزول قوله تعالى :«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ» في غزوة أحد.

قال قتادة: نزلت الآية يوم أُحُدْ، والنبي -ﷺ- في الشِّعب، إذ صاح المشركون: يوم بيوم، لنا العزّى، ولا عزّي لكم. فقال النبي ﷺ: قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم.

وكان نزول قوله تعالى: «وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ» في الطريق، لما هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة.

قال ابن عباس: لما خرج رسول الله ﷺ إلى غار « ثور » ليلة الهجرة، التفت إلى مكة وقال: أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك، لما خرجت منك، فأنزل الله الآية (انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير 4: -184 185).

7/5 مصارع السابقين

بدأت آيات هذا الدرس بالإشارة إلى مصارع الكفار السابقين، ولفت أنظار الكفار في عصر نزول القرآن إلى النظر في آثار الأمم السابقة الكافرة التي عذبها الله.

قال تعالى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا».

والاستفهام في قوله: «أفلم» للإنكار، فالله ينكر على كفار قريش وغيرهم، عدم نظرهم في آثار الأمم السابقة، وعدم اعتبارهم بما جرى لهم، وعدم سيرهم في الأرض وارتحالهم فيها ؛ ليعرفوا ماذا جرى لأسلافهم الكفار.

وليس المراد بالنظر المشار إليه في الآية، مجرد رؤية المناظر بالعين، وإنما المراد نظر التدبر والتفكر والاعتبار، نظر العين ونظر القلب ونظر الفكر والعقل.

لقد كان كفار من الأمم السابقة، يعيشون في الأرض، وكان كفار قريش يمرون على ديارهم وآثارهم، كقوم عاد وثمود ومدين، وقوم لوط. ولقد أوقع الله بأولئك السابقين العذاب والهلاك، بسبب كفرهم وتكذيبهم وطغيانهم.

وفي قوله: «دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» مبالغة في ذكر وتصوير الدمار والهلاك الذي وقع بهم.

إن قوله: «دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» يدل على أن الدمار والهلاك شملهم وشمل كل مالهم، فالله قد دمر كل ما يختص بهم من أهل وأموال وممتلكات، دمر كل ذلك عليهم. وهدم عليهم ديارهم وبيوتهم، واستأصلهم أجمعين، فلم يبق من الكفار السابقين أهل ولا أولاد ولا أموال.

وهذه هي سنة الله في الكفار أينما كانوا، ولذلك على كفار قريش وغيرهم أن يلاحظوها في آثار الهالكين السابقين ؛ ليتخلوا عمّا عليه من الكفر والتكذيب، ويدخلوا في دين الله.

إنهم إن فعلوا ذلك، نجوا من الدمار والهلاك الذي حل بأسلافهم الكفار، أما إذا أصروا على كفرهم فإن الدمار والهلاك قادم إليهم لا محالة.

ولهذا تلوح لهم الآية بالتدمير، فتقول لهم:«وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا». أي أن الله جعل للكافرين بالقرآن، المكذبين لمحمد ﷺ، أمثال تلك الوقعة التي دمر الله فيها الكافرين

السابقين. فهذه هي سنة الله في كل الكافرين. أينما وجدوا. لا تحابي أحداً. ولا يفلت منها أحد. فلا نجاة من العذاب والدمار إلاّ بالإيمان بالله. والدخول في دينه.

8/5 مقارنة بين المؤمنين والكافرين في الولاية والنصرة

لقد دمر الله على الكافرين السابقين ديارهم وأموالهم وأولادهم. وأنجى المؤمنين الذين كانوا يعيشون بينهم.

والسبب في إهلاك الكفار أنهم لا يجدون مولى ولا ناصراً ولا معيناً. والسبب في نصر المؤمنين ونجاتهم أن الله مولاهم.

وقد ذكرت الآيات ذلك. وقارنت بين المؤمنين والكافرين في الولاية والنصرة. فقالت: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ».

لا يستوي المؤمنون والكافرون في الولاية والنصرة. فشتان بين الفريقين في هذا الموضوع.

المؤمنون اتخذوا الله ولياً وناصراً. فاعتمدوا على قوته. وتوكلوا عليه. واطمأنوا إليه. ومن كان الله مولاه فهو القوي السعيد الآمن الغالب. وحسبه ذلك وكافيه. ففيه الكفاية والغناء. أما الكفار فلم يتخذوا الله ولياً. بل كفروا به. وكذبوا رسله. وحاربوا دينه. ولذلك ما كان الله مولى لهم.

ومن لم يكن الله مولى له. فلا مولى له. ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء. ومن تخلى عنه الله لكفره وطغيانه فلا ينفعه أحد مهما كان قوياً. ومن أعلن الله عليه الحرب. فلا ينصره أحد من الله. ومن أوقع الله به العقاب. فلا يرد عنه أحد عقاب الله.

الكفار لا مولى لهم إذاً. ولا ناصر ولا حافظ. ولا معين ولا وكيل. فهم مضيعون عاجزون ولو تجمعت لهم كل أسباب الحماية والقوة التي يعرفها الناس.

وتقدم الآية قاعدة قرآنية عامة مطردة. تنطبق على الناس في أي زمان أو مكان: الله مولى المؤمنين يحفظهم ويرعاهم. وينصرهم وينجيهم ويحميهم. وذلك لإيمانهم وطاعتهم واستقامتهم وصلاحهم. وهم في حياتهم آمنون سعداء. معتمدون على الله. لا يخافون ولا يحزنون. ولا يقلقون ولا يضطربون.

والكفار لا مولى لهم : لأن الله ليس مولاهم. فلا يجدون ناصراً ينصرهم من الله. إن أراد تدميرهم وإهلاكهم. وهم ضعاف عاجزون مهازيل.

وعلى البصير أن يختار إحدى الطريقين. طريق الأمن والاطمئنان بولاية الله. أو طريق

العجز والضياع بعدم ولاية الله. وعليه أن ينحاز إلى أحد الفريقين، المؤمنين الذين مولاهم الله، أو الكفار الذين لا مولى لهم.

ومن هو العاقل الذي يختار الطريق الثاني ؟! وينحاز إلى الفريق الثاني ؟!

9/5 مقارنة بين المؤمنين والكافرين في الاستمتاع والجزاء

بعدما قارنت الآيات بين المؤمنين والكفار في الولاية والنصرة، وفرقت بينهما في ذلك، انتقلت للمقارنة بينهما في موضوع الاستمتاع بالحياة الدنيا، وفي الجزاء المترتب على ذلك الاستمتاع.

قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ».

لقد أباح الله للناس التمتع بالحياة الدنيا، والاستمتاع بما فيها من متع وملذات، المؤمن يعيش في حياته الدنيا، ويتمتع بما فيها من طيبات، ويستمتع بما فيها من مباحات، من طعام وشراب، وتملك وزواج، ونعم ولباس، ولا يحرم ما أباح الله له من ذلك: قال تعالى:«قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

(الأعراف/32)

لكن استمتاع المؤمنين بهذه الطيبات المباحات، استمتاع عبادة، فيكتفون بما أباح وأحل الله منها، ولا يجاوزونه إلى ما حرم الله ونهاهم عنه، ويتوجهون بما يمارسونه من ذلك الاستمتاع إلى الله، فيحمدونه ويشكرونه عليه، ويبتغون به الأجر منه سبحانه.

ولا ينسون وهم يستمتعون بذلك المتاع الدنيوي الزائل، المتاع الأخروي الباقي، وهو ما أعده الله لهم من نعيم الجنة وخيراتها، وهو النصيب الحقيقي الضخم، والاستمتاع الحقيقي العظيم، فينظرون إليه، ويعملون له، ويرغبون فيه.

فهذا هو استمتاع المؤمنين بمتاع الدنيا وخيراتها ومباحاتها، من طعام وشراب، وزواج ولباس ومال.

أما الكافرون فعلى النقيض من ذلك، إنهم يتمتعون بمتاع الدنيا بطريقة غير إنسانية، فلا يسألون عن كون ذلك المتاع حلالاً أم حراماً، ولا يرون منه إلاّ الجانب المادي الشهواني الغليظ.

ويغفلون عن أبعاده الإنسانية الإيمانية الشعورية السامية.

وهم في أكلهم، يأكلون كما تأكل الأنعام، فحياتهم ودنياهم ما هي إلاّ مائدة طعام، وفرصة متاع، يعيشونها كالحيوانات، دون هدف إيماني، ولا رسالة سامية.

«ونصيب الذين كفروا متاع وأكل «كما تأكل الأنعام» وهو تصوير زريّ، يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه، ويلقي ظلال الأكل الحيواني الشره، والمتاع الحيواني الغليظ، بلا تذوق، وبلا تعفف عن جميل أو قبيح. إنه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة، ولا من اختيار، ولا حارس عليه من تقوى ولا رادع عنه من ضمير» (في ظلال القرآن لسيد قطب 6:3292).

وبسبب هذه «الحيوانية» عند الكفار في المتاع والأكل، فإن الله أعد لهم جزاء يناسبها في الآخرة، حيث جعل النار مثوى لهم، وجهنم منزلاً ومسكناً، يقيمون فيها مخلدين في عذابها الأليم، في مقابل خلود المؤمنين في الجنات، مستمتعين بما فيها من نعيم.

10.5 مقارنة بين المؤمنين والكافرين في المنهج والسلوك

انتقلت آيات الدرس للمقارنة بين المؤمنين والكفار في موضوع آخر، وبيان الافتراق بينهما فيه، وهو الحال والاتجاه والسلوك الذي عليه كل منهما، وهو الذي يصدر عن المنهج الذي يتبعه كل منهما.

إن المؤمنين يختلفون عن الكفار في المنهج، ومن ثم يفترقون عنهم في السلوك والاتجاه، ولهذا كان الفرق بينهما في الاستمتاع بطيبات الدنيا، والفرق في الجزاء الذي ناله كل منهما بعد ذلك في الآخرة.

قال تعالى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ».

المؤمن على بينة من ربه، وعلى بصيرة ويقين من أمر دينه، إن منهجه واضح وثابت، إنه يؤمن أنه على حق، وأن دينه هو الصواب، وأن مهمته معروفة، وأن طريقه واضحة، وأن جزاءه محدد.

هذه البينة الظاهرة، وهذا المنهج الواضح، أخذه المؤمن من حقائق الاسلام، وقواعد القرآن، وهبها الله له منحة وتفضلاً وعطاءً.

ووضوح المنهج عند المؤمن نتج عنه وضوح الطريق الذي يسير عليه، ووضوح رؤيته لذلك الطريق، وهذا المنهج أدى إلى استقامة سلوكه، وإحسان حاله وسلامة اتجاهه، فهو عارف طريقه، وهو عابد لربه، ملتزم بأحكام دينه، متبع للحق الواضح له.

أما الكافر فهو في جانب آخر مقابل ومغاير، إنه على عمى من أمره، وعلى ضلال من شأنه، إن الكفر غبش ولبس وخلط، وليس بينة ونوراً ووضوحاً، وضلال المنهج عنده أدى إلى عمى في النظر، ولبس في الاتجاه، وغبش في الطريق، وانحراف في السلوك.

وقد استلم الشيطان هذا الكافر الأعمى الضال الحيران، فزين له سوء عمله، وحسن له كفره، وأوهمه أنه على حق وصواب، وأراه القبيح حسناً، والباطل حقاً، والهوى هدى. ومن ثم اتبع هذا الكافر هواه، بتضليل الشيطان له.

هل يستوي المؤمنون بوضوح منهجهم، واستقامة سلوكهم، مع الكفار بضلال منهجهم، وتزيين الشيطان لهم، واتباعهم لأهوائهم ؟ لا يستوي الفريقان.

ولهذا قال تعالى: «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ» (الرعد/19)

وقال تعالى:«لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ» (الحشر/20)

ونلاحظ أن جواب الاستفهام مقدر في قوله تعالى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» (محمد/14).

والتقدير: لا يستوي من كان على بينة من ربه، مع من زُين له سوء عمله.

11.5 مقارنة بين المؤمنين والكافرين في النهاية والمصير

بعد أن بينت الآية السابقة افتراق المؤمنين والكفار في المنهج والسلوك، واختلافهم في الحال والاتجاه، جاءت آية أخرى تقرر الفرق بينهما في مجال آخر جديد، وتقارن بينهما فيه.

قال تعالى:«مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ».

تقارن هذه الآية بين المؤمنين والكافرين في المرجع والمصير، وتبين التفرقة بينهما في النهاية والمآل. هذه التفرقة المبنية على التفرقة بينهما في المنهج والسلوك. فبما أنهما يختلفان في المنهج والاتجاه والسلوك، فلا يمكن أن يتفقا في المآل والنهاية والمصير.

بدأت الآية بالحديث عن المصير الحسن للمؤمنين، فعرضت بعض مظاهر النعيم الحسي والمعنوي

الذي أعده الله لهم في الجنة.

«مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ»: إن صفة الجنة التي أعدها الله للمتقين، وشأنها العظيم، هو ما ستسمعون:

«فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِنٍ»: أنهار الماء فيها جارية، وماؤها غير متغير اللون أو الطعم أو الريح، ولكنه عذب فرات متدفق، من شربه لا يظمأ بعده أبداً.

«وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ»: اللبن في الجنة غزير، فهو في أنهار، وهذا اللبن - الحليب - في غاية البياض والحلاوة والدسومة. لم يتغير طعمه ولم يحمض كلبن الدنيا، ولم يخرج من ضروع الماشية كلبن الدنيا.

«وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ»: وخمر الجنة تجري بأنهار، وهي لذيذة الطعم، طيبة الشرب، حسنة المنظر، وليست كخمر الدنيا المسكرة، التي تزيل العقل، وتورث الصداع.

قال تعالى عن خمر الجنة: «لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ» (الصافات/47)

أي: ليس فيها ضرر، ولا مادة مسكرة، تغتال العقل وتزيله، ولا يصيب شاربها صداع.

«وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى»: والعسل الحلو اللذيذ في الجنة في أنهار، وهذا العسل في غاية الصفاء والحلاوة، وفي غاية الجمال في لونه وطعمه ورائحته، وهو مصفى، لم يخالطه شيء من الشمع والأذى، والعكر والكدر، والسكر وبقايا النحل، كالعسل في الدنيا.

ونلاحظ أن هذه الأنهار الأربعة في الجنة، مرتبة في الآية حسب أهميتها للإنسان. فبدأت الآية بأنهار الماء ، لأن الماء أعم نفعاً من باقي المشروبات، ولا يستغني عنه إنسان في الدنيا.

ثم ثنت الآية بأنهار اللبن، لأن اللبن ضروري للناس كلهم، وهو غذاء كامل، وطعام شهي.

وذكرت في المرتبة الرابعة أنهار الخمر، لأن الخمر ليست ضرورية، وإنما فيها متعة ذوقية، فتناولها للذة بعد الري والشبع.

وذكرت في المرتبة الرابعة أنهار العسل، لأن العسل جمع بين مختلف الطعوم والإحساسات الذوقية المرغوبة، وفيه الشفاء في الدنيا مما ينتج عن المطعوم والمشروب من مضاعفات وأخطار.

وبذلك تكون الآية قد جمعت بين: الضرورة وهي الماء، والحاجة وهي اللبن، والمتعة وهي

الخمر غير المسكرة، والعلاج النافع وهو العسل (التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي 26: 102 - 103).

وبعدما ذكرت الآية النعيم المادي في هذه المشروبات الأربعة، ذكرت النعيم المادي في التمتع بالمأكولات، فقالت: «وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

أي: للمتقين في الجنة مختلف أنواع الثمار، وأصناف الفواكه، وذات الألوان البديعة، والروائح الزكية، والطعوم الشهية.

وبما أن الأكل في الجنة للذة لا للحاجة، ذكرت الآية الثمار، ولم تذكر اللحم والخبز، اللذين يحتاج إليهما الإنسان في الدنيا، لاستمرار حياته.

وبعدما عرضت الآية بعض ألوان النعيم المادي في المأكول والمشروب، ذكرت ما هو أهم منه، وهو النعيم المعنوي، المتمثل في التكريم الرباني لهؤلاء المتقين في الجنة:

«وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ».

لقد منّ الله على المتقين في الجنة، بمغفرته ورضوانه، تكرماً وفضلاً ورحمة وإنعاماً.

فهذا هو مصيرهم ومآلهم، وتلك هي نهايتهم وعاقبتهم، وهذا يتفق مع ما كانوا عليه في الدنيا من وضوح المنهج، واستقامة السلوك.

أما الفريق الآخر، فما هو مصيره ؟ «كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ».

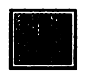
إذا كان طعام المؤمنين في الجنة من كل الثمرات، وإذا كان شرابهم فيها من أنهار الماء العذب واللبن والخمر والعسل، فإن شراب الكفار في النار ماء حميم حار شديد الحرارة والغليان، فإذا ما شربوه قطع أمعاءهم وأحشاءهم، وأذاب ما في بطونهم.

وإذا كان المؤمنون في الجنة خالدين، يتقلبون في النعيم، وينعمون بالرضوان، فإن الكفار خالدون في النار، يتعذبون بالعذاب الأليم، ويشربون من الماء الحميم !

وبهذه المقارنة بين المؤمنين والكافرين في النهاية والمصير، تختم آيات هذا الدرس المقارنات والموازنات، التي عقدتها بين المؤمنين والكفار.

من خلال الآيات عرفنا أن الفريقين لا يستويان: في الولاية والنصرة، ولا في الاستمتاع والجزاء، ولا في المنهج والسلوك، ولا في النهاية والمصير.

وبذلك نتعرف الى الفريقين،وتتضح لنا الطريقان، وعلى البصير أن يختار: «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ» (الأنفال/42).



نشاط (3)

أمعن النظر في آيات الدرس: (10-15) مستخرجاً منها سبع دلالات وعبر، مما تشير وترشد إليه، مع بيان مواطن الاستدلال.

أسئلة التقويم الذاتي (4)

1 - اذكر أربعة من أنواع المشروبات للمؤمنين في الجنة، وبيّن الحكمة من ترتيبها في الآية على ذلك الترتيب، واصفاً كل واحدة بما وصفت به.

2 - ما هما القراءتان في قوله: «غَيْرِ آَسِنٍ» وانسب كل قراءة لإمامها، واشكل الكلمة على كل قراءة، وحجة من قرأ بها .

3 - اعقد مقارنة بين المؤمنين والكفار، واستخرج ست صفات ايجابية للمؤمنين ذكرتها آيات الدرس، واذكر ما يقابلها عند الكفار.

4 - ما هو سبب نزول قوله تعالى:«وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ»؟

5 - لماذا تلفت الآيات الأنظار لمصارع السابقين، وما هي السنة الربانية التي تستخرجها من ذلك ؟

6 - مثّل لإطناب وطباق ومقابلة من آيات الدرس.

7 - ما الفرق بين تمتع المؤمن والكافر بمتع الحياة الدنيا.

8 - لماذا قال النص الكريم: «دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» ولم يقل «دمرهم الله»؟

6. الدرس الرابع: (16 - 31) صفات المنافقين وتهديدهم

1.6 مقدمة

عزيزي الدارس: ننتقل الآن معاً إلى الدرس الرابع من دروس سورة القتال التي تكفلت بتعريف المؤمنين على خصومهم الأعداء الكفار، من المشركين والمنافقين والمرتدين وأهل الكتاب.

وآيات هذا الدرس ست عشرة آية، وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بآيات الدروس السابقة، فقد كان الدرس الأول في بيان حقيقة المؤمنين وحقيقة الكفار، والدرس الثاني في قتال المؤمنين للكفار، وما ينتج عنه من أسرى وشهداء، ونصر المؤمنين وهزيمة الكفار، والدرس الثالث في اجراء موازنات ومقارنات بين معسكري الجبهة وفريقي القتال، المؤمنين والكافرين، وبيان أسباب التفرقة بينهما في الدنيا والآخرة، وذلك لتتضح الطريقان، ويسلك من يريد أياً منهما بعد البيان والإرشاد.

وتنصّب آيات هذا الدرس الرابع على نفس أهداف آيات الدروس السابقة، في التفرقة بين المؤمنين والكفار، وتعريف المؤمنين بأعدائهم.

لكنها تتناول موضوعاً أخص، حيث تتحدث عن فرقة خاصة من فرق الأعداء الكافرين، وهي فرقة المنافقين.

فتقوم آيات هذا الدرس بجولة حول المنافقين، وتعرف المسلمين على صفاتهم، وتدلهم على كيدهم وحقدهم، وتكشف للمسلمين ارتباطهم باليهود وبالمشركين، وتعرض طائفة من أعمالهم الخبيثة، وتخبر عن عداوتهم لرسول الله ﷺ. وعن موقفهم عندما يسمعون آيات القرآن، وجبنهم عن الجهاد مع المؤمنين في سبيل الله، وتهددهم بالكشف والفضح، إن لم يتخلوا عن نفاقهم.

فالآيات تتحدث عن صفات المنافقين، وتهددهم، وتحذر المسلمين منهم.

وندعوك عزيزي الدراس إلى إحسان تلاوة آيات هذا الدرس، وإجادة حفظها، قبل البدء بتفسيرها.

قال تعالى:

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ

قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ

(محمد: 16 - 31)

6.2 معاني المفردات

1- ماذا قال آنفا: ماذا قال في الساعة السابقة، التي قبل الوقت الذي نحن فيه، وأنف الشيء هو ما تقدم منه.

2- آتاهم تقواهم: ألهمهم التقوى، وبيّن لهم ما يتقون به ربهم.

3- تأتيهم بغتة: تأتيهم فجأة.

4- جاء أشراطها: جاءت علاماتها ومقدماتها.

5- أنى لهم: كيف لهم ؟

6 - يعلم متقلبكم ومثواكم: يعلم تقلبكم وتصرفكم لأشغالكم في النهار، ويعلم سكونكم ومأواكم إلى مضاجعكم في الليل.

7- لولا نزلت سورة: هلا أنزلت سورة تأمر بالجهاد.

8- سورة محكمة: سورة مبينة واضحة غير منسوخة.

9- أولى لهم: إرشادهم إلى الأولى الذي عليهم أن يفعلوه. أي: أولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا.

10- إذا عزم الأمر: جد الأمر ووجب الجهاد.

11- فهل عسيتم إن توليتم: ماذا تتوقعون إن أعرضتم عن الجهاد.

12- لعنهم الله: طردهم الله من رحمته.

13- أصمهم وأعمى أبصارهم: آذانهم لا تسمع الحق، وعيونهم لا تبصر الهدى.

14- يتدبرون القرآن: يتفهمونه ليتعظوا به.

15- الشيطان سوّل لهم: زين لهم الشيطان خطاياهم، وسهلها لهم.

16- أملي لهم: مد الشيطان لهم في الآمال والأماني الباطلة.

17- الله يعلم إسرارهم: يعلم الله كل ما أسروه وأخفوه عن الناس.

6.3 المعنى الإجمالي

قارنت آيات الدرس السابق بين المؤمنين والكافرين، وذكرت مجموعة من صفات المؤمنين، ثم ذكرت ما يقابلها من صفات الكافرين.

وآيات هذا الدرس متصلة بآيات الدرس السابق، حيث تكلمت عن صنف خاص من أصناف الكافرين، وهم المنافقون. والمنافقون من أخطر أصناف الكافرين على المسلمين ؛ لأنهم

تظاهروا بالإسلام، واعتبروا أنفسهم من المسلمين، بينما هم في الحقيقة كافرون حاقدون على المسلمين، متآمرون عليهم.

بيّنت هذه الآيات مجموعة من صفات المنافقين المرذولة، وأعمالهم القبيحة، وارتباطهم باليهود والمشركين، وهددتهم بفضحهم وكشفهم.

بدأت آيات الدرس ببيان الفرق بين المؤمنين والمنافقين عند سماع آيات القرآن، فإذا سمع المنافقون الآيات لم يهتدوا بها، وادعوا عدم فهمهم لها، وقالوا ماذا قال محمد ﷺ؟ أما المؤمنون فإنهم يتأثرون بما يسمعون من القرآن، ويزدادون به هدى وتقوى.

وتهدد الآيات المنافقين بالعذاب، وتدعوهم إلى التفكير في النجاة من عذاب يوم القيامة، ويوم القيامة قريب، وهم يعيشون أشراطه ومقدماته وعلاماته.

وتلتفت الآيات للمؤمنين، تدعوهم إلى أن يعلموا أنه لا إله إلاّ الله، ولا يكتفوا بمجرد نطقها بدون اعتقاد أو إيمان، كما فعل المنافقون، كما تدعوهم إلى اللجوء إلى الله، والشعور بمراقبته، واستغفاره والتوبة إليه.

وتنتقل آيات الدرس للكلام عن جبن وخوف وهلع المنافقين، فعندما يكلفهم الله بالجهاد، في آيات سورة محكمة واضحة، يجبنون ويخافون، وينظرون نظر المغشي عليه من الموت.

وتدعوهم الآيات إلى ما هو أولى، وترشدهم إلى التصرف المناسب، إذ عليهم أن يسمعوا الأوامر والتكاليف، وأن يطيعوا بتنفيذها، ويثبتوا على طريق الحق، وعندما يكلفون بالجهاد، عليهم أن يصدقوا الله، وأن يكونوا رجالاً مجاهدين.

وتذكر الآيات بديل الجهاد، وهو الإفساد في الأرض، وقطع الروابط والأرحام، فإما أن يجاهدوا في سبيل الله، فيصلحوا البلاد والعباد، وإما أن يتخلفوا عنه، فيتحقق الإفساد في الأرض، وقطع الأرحام، ومن نكص عن الجهاد، وأفسد وقطع الأرحام، فهو ملعون، لعنه الله وأعماه عن الحق والهدى.

وتنكر الآيات على المنافقين عدم تدبرهم لآيات القرآن، بسبب الأقفال والمغاليق التي على قلوبهم، وتدعوهم إلى إزالة تلك الأقفال، وفتح القلوب لأنوار القرآن.

ثم تبين الآيات أن الشيطان قد استحوذ على المنافقين، وزين لهم رذائلهم، وأطمعهم بالأماني الباطلة، عن طريق تطويل آمالهم.

وتعتبر الآيات المنافقين كافرين مرتدين، لأنهم أطاعوا شياطينهم اليهود، وقالوا لهم: سنطيعكم، ولا نطيع الله ورسوله.

وتعرض الآيات صورة لهم عند احتضارهم، وهم يعذبون في سكرات الموت، حيث تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم.

وتهدد الآيات المنافقين بكشفهم وفضحهم أمام المؤمنين، فالله سيخرج أضغانهم وأحقادهم على المسلمين، وسيبين صفاتهم للمسلمين، ليعرفوهم ويحذروهم، وتقدم الآيات وسيلة للمسلمين، يتعرفون بها على المنافقين، حيث سيعرفونهم عندما يلحنون ويميلون في أقوالهم، ويحرفون في كلامهم.

وتختم آيات الدرس بإخبار المؤمنين بحكمة ابتلاء الله لهم، حيث ابتلاهم بالكافرين عموماً، وبالمنافقين على وجه الخصوص، وهذا الابتلاء بالكافرين والمنافقين، ليظهر المجاهدين الصادقين والصابرين منهم، ويكشف المترددين والضعفاء.

4.6 من وجوه البيان والبلاغة في آيات الدرس

1.4.6 في الآيات سجع رصين جميل غير متكلف. مثل « أهــــواءهم » (16). و « تقواهم » (17) و « ذكراهم » (18).

2.4.6 في قوله تعالى: «فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ» مجاز عقلي، حيث نسب العزم إلى الأمر، مع أن العزم لصاحب الأمر.

3.4.6 هناك التفات من الغيبة إلى الخطاب، فالغيبة في الإخبار عن المنافقين: «فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» ثم التفت اليهم مخاطباً لهم:«فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ».

4.4.6 في قوله: «أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»: استعارة تصريحية، حيث شبه قلوبهم بالأبواب المقفلة، فهي لا تفتح لأي خير.

5.4.6 في قوله:«ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ» كناية، حيث كنى بهذه الجملة عن الكفر بعد الإيمان.

6.4.6 ومن بدائع التصوير الفني، التصوير لجبن وخوف المنافقين، عند تكليفهم بقتال الأعداء:

«فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ».

قال سيد قطب في جمال هذه الصورة: « وهو تعبير لا يمكن محاكاته، ولا ترجمته إلى أي عبارة أخرى. وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع، والضعف إلى حد الرعشة. والتخاذل إلى حد الغشية ! ويبقى بعد ذلك متفرداً، حافلاً بالظلال والحركة، التي تشغف الخيال، وهي صورة خالدة لكل نفس خوارة، لا تعتصم بإيمان، ولا بفطرة صادقة، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر » (في ظلال القرآن 6: 3296).

5.6 من وجوه القراءات في الآيات

1.5.6 في قوله تعالى: «وَأَمْلَى لَهُمْ» قراءتان:

الأولى: قراءة أبي عمرو البصري: «وأمِلي» بضم الهمزة وكسر اللام، بصياغة الفعل على ما لم يسم فاعله. وحجته في هذه القراءة أن الشيطان يسول للكفار ويزين لهم. لكنه لا يملي لهم ؛ لأن الإملاء هو الإطالة في العمر، والإطالة في العمر بيد الله وحده. وقد أسند القرآن الإملاء إلى الله. فقال تعالى: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » (آل عمران/178).

الثانية: قراءة الستة الباقين: نافع وعاصم وابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي: «وَأَمْلَى» بفتح الهمزة واللام. والفاعل يعود على الشيطان، فالشيطان هو الذي أملى للكافرين. وحجتهم في هذه القراءة أن الإملاء هنا ليس بمعنى إطالة العمر والإمهال، ولكنه بمعنى التزيين، فالشيطان مد لهم في آمالهم العريضة، وأمانيهم الباطلة.

2.5.6 وفي قوله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ» قراءتان:

الأولى: قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: « إسرارهم » بكسر الهمزة، على أنه مصدر. تقول: أسرّ، يُسر، إسراراً.

وحجتهم في هذه القراءة أن « السر »، فرد لا يجمع، كما في قوله تعالى:

«أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ»(سورة التوبة/78).

وكما أن « السر » أفرد ولم يجمع لأنه مصدر، فكذلك الإسرار مفرد وليس جمعاً

لأنه مصدر.

الثانية: قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة عن عاصم: « أسرارهم » بفتح الهمزة، على أن « أسرار » جمع « سر » مثل: أحمال، جمع حمل.

وحجتهم في هذه القراءة: أن « أسرارهم » جمع، لأنها أنواع مختلفة. وضروب كثيرة، فبسبب اختلاف وتعدد أجناس السر، عبر عنها بالجمع.

5.6 (3) وفي قوله تعالى: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ» قراءتان، وهما في فعلي « لنبلونكم.. نبلو »:

الأولى: قراءة شعبة عن عاصم: بالياء في الفعلين: « ليبلونكم.. يبلو » من باب الإخبار عن الله. أي: الله يبلوكم ويبلو أخباركم.

وحجته في هذه القراءة، أن الفعل في الآية السابقة، مسند إلى الله، من باب الإخبار: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ»، وبما أن « يعلم » بالياء، فإن فعلي « يبلونكم.. ويبلو أخباركم » بالياء.

الثانية: قراءة الباقين: نافع وابن كثير وابن عامر وأبي عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: « ولنبلونكم... ونبلو » بالنون في الفعلين. فالله يخبر عن نفسه بنون العظمة.

وحجتهم في هذه القراءة، ورود فعل في الآية السابقة بالنون: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ». فالأفعال كلها بالنون: ولو نشاء لأريناكهم، ولنبلونكم، ولنبلو أخباركم.

والقراءتان متقاربتان في المعنى.

6.6 حال المؤمنين والمنافقين عند سماع القرآن

تبدأ آيات الدرس بالإشارة إلى حقيقة قاطعة، وهي اعتبار المنافقين من الكافرين، ولهذا قالت:

حرف «من» في الآية للتبعيض، وهو يوحي بأن المنافقين فئة من فئات الكفار، وصنف من أصنافهم.

والمعنى: من الكفار الخالدين في النار منافقون يستمعون القرآن من محمد ﷺ: «كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ».

وبعد أن تربط الآية بين الدرسين بحرف « من » تبين حال المؤمنين وحال المنافقين، في استماعهم القرآن، والفرق بينهما في استقبال آياته:«وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (61) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ».

لقد كان المنافقون يأتون إلى رسول الله ﷺ، ويظهرون له حرصهم على استماع القرآن منه، والانتفاع به، مع أنهم كفار غير صادقين، ولا راغبين في القرآن، وكان الرسول ﷺ يسمعهم القرآن.

فإذا خرجوا من عنده، وقابلوا أهل العلم من الصحابة المؤمنين، أثاروا الشبهات ضد القرآن، ونسبوا العجز إلى رسول الله ﷺ، وشككوا المسلمين في دينهم، وقالوا لهم: «مَاذَا قَالَ آنِفًا». أي: ماذا قال محمد ﷺ قبل قليل ؟ لقد كنا جالسين معه، وكنا حريصين على أن نستمع القرآن منه، وقرأ علينا القرآن، لكننا لم نفهم معناه.

وتساؤلهم هذا سخرية واستهزاء بالمؤمنين أولي العلم، واتهام لهم بعدم العلم والمعرفة، وهو يدل على كفرهم ونفاقهم، وخبثهم ولؤمهم، وتشكيكهم للمسلمين.

وقد عللت الآيات هذا التصرف الذي يقوم به المنافقون عند سماعهم القرآن، وادعاءهم عدم فهمه لغموضه، بأن السبب هو في قلوبهم:«أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ».

وفي هذا التعليل بيان للصفة الحقيقية التي يتصف بها المنافقون، لقد طبع الله على قلوبهم لكفرهم ونفاقهم، ولذلك لم يفهموا القرآن، وكانوا في حياتهم ضالين، متبعين لأهوائهم وشهواتهم، سائرين مع الباطل، تاركين للحق.

والطبع على القلوب، وما ينتج عنه من الضلال واتباع الهوى، هو الحجاب الذي حجب المنافقين عن فهم القرآن، الذي يسره الله للذكر.

هذه هي حال المنافقين عند سماع القرآن، أما المؤمنون، فلهم حال أخرى، جميلة مشرقة، حيث أثنى الله عليهم بقوله:«وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ».

لقد ابتدأ المؤمنون بالاهتداء، فاختاروه وبحثوا عنه وطلبوه، وأقبلوا على الهدى، وساروا في طريقه، فأكرمهم الله لما علم من صدقهم في ذلك، فزادهم هدى، وألهمهم رشدهم، وثبتهم على إيمانهم، وآتاهم تقواهم، وبذلك كافأهم الله الغني بما هو أعمق وأكمل.

وبما عليه المؤمنون من هدى وتقوى، أقبلوا على القرآن، ففهموه وطبقوه وعاشوا به. إنهما حالتان في التعامل مع القرآن، وكل حالة تقود إلى نتيجة:

حالة المؤمنين بهداهم وتقواهم، التي قادت إلى فهمهم للقرآن، وانتفاعهم به. وحالة المنافقين بنفاقهم وغفلتهم وانطماس قلوبهم واتباعهم لأهوائهم، التي قادت إلى عدم فهمهم للقرآن، وكفرهم به، وتشكيكهم فيه.

7/6 العلم والاستغفار

بعدما فرقت الآيات بين حال المؤمنين وحال الكافرين عند استماعهم لآيات القرآن، وبينت ضلال المنافقين، واتباعهم لأهوائهم، هددت الآيات هؤلاء المنافقين بالعذاب القادم إليهم، وهم غافلون عنه: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ».

والاستفهام في الآية للإنكار، حيث ينكر عليهم غفلتهم، وعدم تفكيرهم في عاقبة أمرهم، وعدم استفادتهم من أدلة الإيمان التي عرضها الله لهم.

ماذا ينتظر المنافقون ليؤمنوا ؟ إنهم لم تنفعهم الآيات البينة، التي تقدم لهم أدلة الايمان وبراهينه، ولم يتعظوا بما قدم الله لهم من نذر، لم يبق إلاّ أن تأتيهم الساعة، وأن تقوم القيامة.

هل ينتظر المنافقون مجيء الساعة ليؤمنوا ؟ إنها لا تأتيهم إلاّ فجأة وبغتة، دون إخبار سابق، وعندها لا يجدون وقتاً للايمان، حيث يقضي الله عليهم وهم غافلون.

وقد جاءتهم أشراط الساعة وعلاماتها ومقدماتها، فليتعظوا بذلك، وليستفيدوا من الفرصة السانحة قبل أن تنتهي.

ومن علامات الساعة بعثة محمد ﷺ. روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى».

فإذا لم يؤمنوا، وبقوا على نفاقهم وغفلتهم حتى مجيء الساعة، فلن ينفعهم التذكر والتيقظ والايمان عندئذ: « فأنى لهم - إذا جاءتهم - ذكراهم ؟ ».

وهذا كقوله تعالى عن التذكر الذي لا ينفع صاحبه يوم القيامة: «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى» (الفجر/23).

وبعد تهديد المنافقين بالساعة تلتفت الآيات إلى الرسول ﷺ والمؤمنين الصادقين الذين معه بالعلم والمعرفة، والوعي والثقافة، والثبات على الطاعة والاستغفار من الذنب:

«فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ».

والتوجيه إلى العلم بأنه لا إله إلاّ الله مقصود هنا، لأنه رد على المنافقين، فالمنافقون اكتفوا بالقول والنطق بلا إله إلاّ الله، دون العلم بمعناها والتصديق بها، ولهذا لم تقبل منهم.

إن المسلم مطالب بالنطق بلا إله إلاّ الله، والعلم بها، والإيمان واليقين والاعتقاد بمعناها، والمعرفة بمضمونها، لأنها منهاج حياة، وخلاصة الإسلام وأساس العقيدة، فالألوهية لا تكون إلاّ لله وحده.

والعلم بأنه لا إله إلاّ الله، يقود إلى الاتصال بالله، وإخلاص عبادته، والالتزام بأحكامه، والتحرز من المخالفة، والحذر من المعاصي.فإذا غفل المسلم وعصى، تذكر الله، فاستغفره لذنبه. فالاستغفار والمراقبة لله، مبني على العلم بأن الألوهية لله وحده.

إن استغفار المؤمنين لربهم، بسبب ذنوبهم التي قد يعملونها دون تعمد، أما استغفار الرسول ﷺ، فليس بسبب ذنب يذنبه، فهو معصوم، عصمه الله من الذنوب والآثام والمعاصي، وحفظه ورعاه. وإنما استغفاره إما لأنه قد يفعل خلاف الأولى، وهو لا يرتقي إلى مرتبة الذنب والمعصية، وإما من باب ذكره لربه، فاستغفاره ذكر منه لله.

وقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ كان يقول: « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي».

واعتراف الرسول ﷺ بذلك في استغفاره ليس على ظاهره، ولا يؤخذ منه إثبات الذنب له عليه السلام، وإنما هو من تواضعه وذكره لربه.

والمؤمن الذي يعلم إيمانه، ويعرف إسلامه، يتصل بربه، ويستغفر لذنبه، ويبقى دائم المراقبة لله، والشعور بأن الله يراه في كل أحواله، ويطلع على أعماله، سواء في تقلبه في معاشه بالنهار، أم في سكونه في بيته بالليل:«وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ».

8)6 جبن المنافقين عن الجهاد

بعد ما بينت الآيات غفلة المنافقين، واتباعهم لأهوائهم، ونسيانهم للآخرة، انتقلت لبيان موقفهم من آيات الجهاد،وتحدثت عن جبنهم وهلعهم وفزعهم، عندما يكلفون بالقتال،

ورسمت لهم صورة منفرة، ودعتهم إلى الالتزام بالأمر، وتنفيذ التكليف: «وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ»

إن هذه الآيات تفرق بين المؤمنين والمنافقين في نظرتهم لآيات الجهاد.

المؤمنون مجاهدون شجعان، عندما يكلفهم الله بالجهاد يصدقونه وينفذون أمره، ويجاهدون في سبيله. وإذا تأخر عنهم التكليف الرباني بالجهاد، كانوا يتمنونه ويطلبونه.

«وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ» هلا أنزل الله علينا سورة محكمة، أمرنا فيها بعبادته وطاعته، ودعانا فيها إلى الجهاد في سبيله، لو أنزلها الله علينا، لنفذناها وجاهدنا الأعداء.

أما المنافقون فهم عاصون لله، رافضون تنفيذ أوامره، جبناء عن قتال الأعداء، مذعورون خائفون عند الأمر بمواجهتهم، فإذا أنزل الله سورة بينة محكمة لا تحتمل تأويلاً أو تحريفاً، أصيبوا بالفزع والهلع: «فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ».

وهذه الصورة المعروضة لهم تزري بالرجال، ولا تليق بهم، وهي صادقة في التعبير عن جبن المنافقين الجبناء، وتشخيص خوفهم وهلعهم ورعبهم وتخاذلهم، ومنظر المحتضر الذي يشخص بصره عندما يغشى عليه من الموت معروف.

تدريب (4)

هناك آيات في سورتي التوبة والأحزاب، تبين جبن وخوف المنافقين. اذكرها، واستخرج ملامح وسمات الصورة المرسومة للمنافقين من هذه الآيات الثلاث.

وبعدما بينت الآيات جبن وهلع المنافقين أرشدتهم إلى ما هو أولى لهم، وأليق بهم. إنه طاعة الله، وتنفيذ أوامره، واتباع رسوله ﷺ، وانتظار التكاليف الجديدة بالجهاد، إن هذا أولى لهم من هذا الخور والهلع، وهذه الفضيحة المرذولة «فَأَوْلَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ».

ثم أرشدتهم الآيات إلى ما هو أولى لهم عندما يعزم الأمر، ويكلف الله المؤمنين بالقتال،

وهو أن يصدقوا الله صدقاً عملياً، بالنفير للجهاد، ومقاتلة الأعداء برجولة وشجاعة: «فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ».

إن الصدق مع الله بتنفيذ أوامره، والجهاد في سبيله، خير للمسلم من التخلف والقعود، وحتى لو قتل المسلم في المعركة، فهو خير له، لأنه يذهب إلى الله شهيداً، ويدخل جنته.

فلماذا الجبن والهلع والفزع عند القتال ؟ ولماذا التخلف عنه إيثاراً للدنيا ؟

9,6 البديل عن الجهاد هو قطع الأرحام والفساد

بعدما فضحت الآيات المنافقين لجبنهم وهلعهم، وبعدما أرشدتهم إلى ما هو أولى، من السمع والطاعة، وصدق الله في قتال أعدائه، وبيان أن هذا هو خير، وهو الأفضل لهم. وبّخَتْ هؤلاء المنافقين، وذمتهم، لنكوصهم عن الجهاد.

وقد بينت الآيات أن البديل عن الجهاد هو الإفساد في الأرض، وقطع الروابط والأرحام بين الناس، وهذه نتيجة حتمية. يقع فيها الذين يتولون عن الجهاد،ويعرضون عنه. فإما الجهاد في سبيل الله، وإما الإفساد في الأرض، وقطع الأرحام: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ».

وهذا التحذير معناه أن غير المجاهدين في سبيل الله، يعودون إلى حياة الجاهلية، التي كان الناس فيها قبل الالتزام بالإسلام، التي كان من طبيعتها الإفساد في الأرض، وقطع الأرحام.

قال الإمام ابن كثير: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ»: عن الجهاد، ونكلتم عنه «أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ»: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام. ولهذا قال تعالى:«أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ». وهذا نهي عن الفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً. بل قد أمر الله بالإصلاح في الأرض، وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب، في المقال والأفعال وبذل الأموال.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق، قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك ؟ قالت: بلى. قال: فذلك لك.

قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم قول الله: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ». (تفسير القرآن العظيم لابن كثير 4: 188).

10.6 تدبر القرآن وإزالة أقفال القلوب

بينت الآيات السابقة أن المنافقين معرضون عن القرآن، وقلوبهم محجوبة عنه، فإذا سمعوا بعض آياته من رسول الله ﷺ لم يفقهوها، وقالوا: ماذا قال آنفاً ؟

وقد أمرهم الله بعد ذلك بتدبر القرآن، وفتح قلوبهم لأنواره، وإزالة الأقفال والحواجز والحجب التي تحجبه عنها: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا».

وقوله: «فَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ» حث للمسلمين أينما كانوا على تدبر القرآن، وفهم معانيه، وإدراك حقائقه وأحكامه وشرائعه. والاتعاظ بما فيه من المواعظ والزواجر، والتزام ما أمرهم الله به في القرآن، والانتهاء عما نهاهم عنه فيه.

والاستفهام في الجملة توبيخي، لتوبيخ الذين لا يتدبرون القرآن، ويعرضون عنه، ولا ينتفعون به.

و « أم » في الآية بمعنى « بل ». والجملة بعدها للتقرير بمعنى: بل على قلوب أقفالها. وهي لبيان سبب عدم تدبرهم للقرآن، الذي أمر الله بتدبره. فالذي منعهم من تدبر القرآن، هي الأقفال والحجب التي على القلوب.

وإضافة الأقفال إلى القلوب يوحي أنها أقفال خاصة بها، وعلى مقاسها، ومناسبة لها. وهذه الأقفال هي التي تحول بين تلك القلوب وبين أنوار القرآن.

وهذه الأقفال والحجب معنوية غير مادية، وهي كل ما حجب القلوب عن القرآن، مثل: الشر، والشك والهوى والشهوة والغفلة والمعصية.

وبسبب تلك الأقفال على قلوب المنافقين اختاروا الكفر، فلعنهم الله، وأصمهم، وأعمى أبصارهم، كما قالت الآية السابقة: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ».

11.6 طاعة الكفار ومشهد الاحتضار

ومن تعريف آيات الدرس بالمنافقين، أنها تقرر أن المنافقين كفار مرتدون، كفروا بعد معرفتهم بالإيمان، وارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى والحق. والشيطان هو الذي

دعاهم إلى الكفر، وزين لهم الكفر والمعصية، وحببه إليهم، ومد لهم في أمنياتهم وآمالهم، وخدعهم وغرهم بالأماني والآمال: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ».

ومن أسباب اعتبار المنافقين كفاراً مرتدين، ومن مظاهر ضلالهم وردتهم، اتباعهم لليهود على باطلهم، ومناصحتهم لهم: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ».

واليهود هم الذين كرهوا ما نزل الله من الوحي على محمد ﷺ، فكفروا به، وحاربوا دينه، وحقدوا على المسلمين، فمال إليهم المنافقون ووالوهم على المسلمين، وقالوا لهم: «سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ» فأطاعوهم في التآمر والدس والكيد على الإسلام والمسلمين.

والصلة السرية بين المنافقين واليهود يعلمها الله، وما يخفونه من الأسرار والمؤامرات والخفايا على المسلمين لا يخفى على الله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ»، فيبطل مكائدهم، ويحمي المسلمين منهم، ويكشفهم للمسلمين.

وتشير الآية الى أن طاعة الكفار في بعض الأمور التي حرمها الله، وموالاتهم في بعض المظاهر، تقود إلى الارتداد على الأدبار، والتخلي عن الإيمان والهدى.

وهؤلاء المنافقون المرتدون بموالاتهم لليهود والكافرين طمعاً في الدنيا، يعيشون حياة بائسة تعيسة، وعند الاحتضار يتعرضون لأهوال رهيبة، حيث تضرب ملائكة العذاب وجوههم وأدبارهم: «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ».

فكيف يصنع هؤلاء المنافقون المرتدون، عندما تجيئهم ملائكة العذاب عند قبض أرواحهم، حيث تستخرجها من أجسادهم بالعنف، وتضرب وجوههم وأدبارهم؟

وهذه الآية في ضرب الملائكة للكفار عند الاحتضار، كقوله تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ» (الأنعام/93).

وكقوله تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» (الأنفال/50).

وقد عللت الآية سبب ما يلاقيه المنافقون من العذاب والأهوال عند الاحتضار، فقالت: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ».

إنهم هم الذين جنوا على أنفسهم، لأنهم اختاروا واتبعوا كل ما كرهه الله، مثل النفاق والكفر والمعصية، والتآمر مع أعداء الله، وكرهوا كل ما رضيه الله من الإيمان والعبادة والطاعة، ولذلك أحبط الله أعمالهم وأبطلها.

وهذا يدل على أن ارتكاب ما يبغضه الله من الأعمال، وكراهية ما يحبه الله ويرضاه منها، محبط ومبطل لكل الأعمال التي يعملها الإنسان، وسبب الضرب والتعذيب على أيدي الملائكة عند الاحتضار.

6 - 12 التهديد بفضح المنافقين

لقد كان المنافقون يتسترون بالإسلام، ويعيشون مع المسلمين زاعمين لهم أنهم منهم، بينما هم حاقدون عليهم، محاربون لهم.

ولقد هددهم الله بكشف أمرهم للمسلمين: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ» والأضغان هي الأحقاد التي في قلوبهم على المسلمين.

أيعتقد هؤلاء المنافقون، الذين في قلوبهم شك ونفاق وعداوة للمسلمين أن الله لن يكشف أمرهم للمؤمنين، ولن يبرز حقدهم وعداوتهم ؟ كلا إن الله سيفضحهم، ويكشف ما في نفوسهم للمسلمين : ليعرفوهم ويحذروهم.

وقد فضحهم الله وكشف ما في نفوسهم من نفاق للمسلمين، في آيات القرآن وسوره، وبخاصة سورة « التوبة »، التي كانت تسمى « الفاضحة » لفضحها المنافقين.

ثم أكد الله أنه لو شاء لعرّف رسوله ﷺ بأسمائهم، فخاطبه قائلاً: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ».

أي: لو نشاء يا محمد لأعلمناك أشخاصهم، وعرّفناك أعيانهم، معرفة يقينية، تعرفهم من خلال سيماهم وعلامتهم الخاصة، وصفتهم المميزة، التي تميزهم بنفاقهم، حتى لترى أحدهم فتعرفه من ملامحه أنه منافق.

وقد أعلم الله رسوله ﷺ بعد ذلك بأسماء طائفة من المنافقين، فعرفهم بسيماهم وأسمائهم وأعيانهم. وكان هذا في طريق عودته من غزوة تبوك، عندما تآمر عليه المنافقون لقتله، فحماه الله منهم، وأخبره بأسمائهم، فأخبر الرسول ﷺ حذيفة بن اليمان بأسمائهم.

وقدم الله لنا وسيلة لنتعرف على المنافقين من ملامحهم ونطقهم وكلامهم«وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ».

و«لَحْنِ الْقَوْلِ»: أسلوب وطريقة النطق بالكلام، حيث يلحن المتكلم بكلامه، بأن لا يصرح بما يريد تصريحا، وإنما يلحن كلامه ويميل به عن وجهه الصريح إلى الكناية والتعريض.

وقد كان اللحن في القول هو طريقة المنافقين في النطق والتعبير، حيث كانوا يستخدمون التورية والتعريض، جبناً عن التصريح في الكلام. وقد كانوا يخاطبون الرسول ﷺ والمسلمين بألفاظ ظاهرها حسن، وباطنها قبيح، لما يضمرونه من حقد على المسلمين.

لكن لحن المنافقين في قولهم، وتحريفهم لمعاني كلامهم، لا يخفى على الله، فيهدد المنافقين، ويتوعدهم بعلمه بأحوالهم وخفاياهم وأعمالهم:«وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ».

13/6 حكمة ابتلاء الله للمؤمنين

وعد الله المؤمنين أن يبتليهم، ويبلو أخبارهم:«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ».

والابتلاء هو الامتحان والاختبار، حيث يأمر الله المؤمنين بالأوامر، ويكلفهم بالتكاليف، ومنها الجهاد في سبيل الله، وقتال أعداء الله، وموالاة المؤمنين، والبراءة من الكفار.

و « بلاء » أخبار المؤمنين بتمحيصها، وإظهار حسنها من قبيحها. والحكمة من هذا الابتلاء والبلاء، هي إظهار المجاهدين والصادقين من المؤمنين ؛ ليتميزوا بالصبر على الجهاد، وتصبح أخبارهم ومواقفهم معروفة، وكشف المتخلفين والمنافقين والجبناء ؛ ليُعرفوا بين الناس.

وبذلك تتميز الصفوف، ويزول الالتباس، ويقضى على تخفي المنافقين والضعفاء بين المجاهدين والصابرين.

إن الناس لا يتميزون إلاّ بالابتلاء والاختبار، وإن الضعفاء والجبناء لا ينكشفون إلاّ بالابتلاء والاختبار، وإن الرجال الصادقين المجاهدين الصابرين، لا يعرفون ولا يظهرون إلاّ بالابتلاء والاختبار.

والمراد بقوله تعالى:«حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ»، حتى نكشف للناس علمنا الأزلي بالمجاهدين والصابرين، ونظهرهم للناس، ونريهم إياهم، ونعرفهم عليهم، ليقتدوا بهم.

أسئلة التقويم الذاتي (5)

1- بيّن معاني الكلمات التالية في سياقها القرآني: آنفا، بغتة، أشراط الساعة، أنّى لهم، متقلبكم ومثواكم، لولا نزلت سورة، سول لهم وأملى لهم، إسرارهم، أضغانهم.

2- استخرج من آيات الدرس ست صفات مرذولة للمنافقين، مع الإشارة إلى وجه الاستشهاد.

3- في قوله تعالى:«وَأَمْلَى لَهُمْ» قراءتان صحيحتان. اذكرهما، ناسباً كل قراءة لمن قرأ بها من القراء السبعة، واشكل الكلمة على كل قراءة، واذكر حجة لكل قراءة.

4- ما هو الأولى بالمؤمنين قبل نزول الآيات التي تأمر بالجهاد، وبعد نزولها، مستشهداً لما تقول بآيات الدرس ؟

5- ما هو البديل الذي ينتج عن ترك الجهاد في سبيل الله، كما تبينه آيات الدرس ؟

6- ما هي الصفة التي نتعرف بها على المنافقين من خلال نطقهم ؟ ولماذا ؟

7- طاعة الكفار في بعض ما حرم الله ردة. استشهد على ذلك بكلمات من آيات الدرس، وعلّل ذلك.

7. الدرس الخامس (32 - 38)، تأكيد الحث على الجهاد

1.7 مقدمة

عزيزي الدارس: كان الكلام في آيات الدرس السابق على صفات المنافقين، حيث بينت موقفهم من آيات القرآن عندما يسمعونها، وجبنهم عن القتال عندما يكلفون به، ودعتهم إلى الطاعة والالتزام والصدق مع الله، وقارنت في ذلك بينهم وبين المؤمنين الصادقين المطيعين المجاهدين.

وهددت الآيات الذين يتخلفون عن الجهاد، وذكرت أن الذي ينتج عن ترك الجهاد هو الإفساد في الأرض، وقطع الأرحام. ودعت إلى إحسان تدبر القرآن، وإزالة الأقفال التي تحجب أنواره عن القلوب.

وبينت موالاة المنافقين لليهود والمشركين، وطاعتهم في التآمر على المسلمين، وأنهم بذلك صاروا كفاراً مرتدين، وعرضت لنا صورة للتعذيب والضرب الذي تصبه الملائكة عليهم عند احتضارهم.

وذكرت الآيات أن الله سيخرج أحقاد قلوبهم، وسيعرف رسوله ﷺ بهم، وقدمت لنا الطريقة في معرفتهم عند نطقهم، حيث إنهم يلحنون في كلامهم، ويحرفون قولهم.

وختمت آيات الدرس السابق بالحديث عن أهمية ابتلاء الله للمؤمنين وضرورته، وعرّفت المسلمين الحكمة منه، وهي إظهار المجاهدين والصابرين أمام المسلمين.

وآيات هذا الدرس هي آخر آيات سورة القتال، وهي تعد المجاهدين للجهاد، وتدلهم على الوسائل التي توصلهم إلى النصر، وتعرّفهم على خصومهم الكفار، فالكفار قد كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول ﷺ، وستحبط أعمالهم إن ماتوا على الكفر.

تأمر الآيات المسلمين بطاعة الله ورسوله ﷺ، وعدم إبطال أعمالهم، وتنهاهم عن الضعف والذل والاستسلام أمام الأعداء، وتبين لهم قيمة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة.

وتدعوهم إلى الإنفاق في سبيل الله لتجهيز المجاهدين، وتنهاهم عن الشح والبخل في ذلك، وتهددهم بأن الله يستبدل بهم قوماً آخرين، إن تولوا وأعرضوا وبخلوا.

عزيزي الدارس: إننا ندعوك إلى إتقان تلاوة آيات هذا الدرس، وإجادة حفظها، قبل البدء بتفسيرها.

قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37) هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ

(محمد/32 - 38)

2.7 معاني المفردات

1 - شاقوا الرسول: خالفوه، بأن كانوا في الشق والجانب المعادي له.

2 - من بعدما تبين لهم الهدى: بعدما وضح لهم طريق الحق.

3 - لا تبطلوا أعمالكم: لا تحبطوا أعمالكم، ولا تبطلوا ثوابها، بالكفر والنفاق والعجب والرياء والمنّ والأذى.

4 - لا تهنوا: لا تضعفوا ولا تذلوا أمام الأعداء.

5 - تدعوا إلى السلم: لا تدعوا إلى الاستسلام أمام الأعداء.

6 - لن يتركم أعمالكم: لن ينقصكم الله أعمالكم، ولن يبطل ثوابها. يقال: وتره حقه: إذا

نقصه إياه.

7- ﴿يحفكم﴾ يبالغ في الطلب منكم، ويشق عليكم، والإحفاء والإلحاف: المبالغة في الطلب، وبلوغ الغاية فيه.

8- ﴿يخرج أضغانكم﴾ يظهر أحقادكم، وأمراض قلوبكم.

9- ﴿يبخل عن نفسه﴾ عاقبة بخله تنعكس عليه، فبخله على نفسه.

10- ﴿يستبدل قوماً غيركم﴾ يجعل بدلكم ومكانكم قوماً آخرين، صادقين مجاهدين.

3.7 المعنى الإجمالي

تبدأ آيات الدرس بالحديث عن الكفار، وتعرض بعض صفاتهم، فهم قد كفروا، وصدوا الآخرين عن الإيمان بالله، وحاربوا رسول الله ﷺ، وكفروا به بعد ما تبين لهم الهدى، وأيقنوا أنه رسول الله، وهؤلاء ضعاف عاجزون، لن يضروا الله شيئاً بكفرهم، وسيحبط الله أعمالهم ويبطلها ويزيلها.

وهؤلاء الكفار منهم قوم مشركون، وهم مشركو العرب من قريش وغيرهم، ومنهم أهل الكتاب، وهم اليهود الذين كانوا في المدينة.

وتجعل الآيات الحديث عن الكفار مناسبة للالتفات إلى المؤمنين، حيث توجههم إلى طاعة الله، وطاعة رسوله ﷺ، وتنهاهم عن إبطال ثواب أعمالهم بالشرك أو الرياء أو المن أو الأذى أو غير ذلك.

ثم تبين الآيات أن أعمال الكفار باطلة، وأن الله لن يغفر لهم، إذا ماتوا وهم كفار.

وتدعو الآيات الأخيرة - من سورة القتال والجهاد - المؤمنين إلى مواصلة الجهاد بالنفس والمال، دون تراخٍ أو ضعف. وتنهى المجاهدين عن الاستسلام أمام الأعداء، والوهن والذل في مواجهتهم، وتملأ نفوسهم شعوراً بالاستعلاء والتميز، وتخبرهم أن الله بقوته معهم، وأنه لن ينقصهم أجور أعمالهم وإنفاقهم وجهادهم.

وتدعوهم إلى الزهد في الدنيا، وعدم إيثارها على الآخرة، فهي لعب ولهو بالقياس إلى الآخرة، وترغبهم في الإيمان والتقوى، لنيل الثواب والنعيم.

وتخبرهم باليسر وعدم المشقة أو الحرج، عندما أمرهم الله بالإنفاق، فالله يعلم طاقتهم وقدرتهم، ولذلك كلفهم بما في وسعهم واستطاعتهم، ولم يكلفهم بما لا يطيقون، ولم يطلب منهم كل أموالهم.

وتعالج الآيات البخل عند بعض المسلمين، وتبين أن عاقبة البخل السيئة تعود

عليهم، فالبخيل يبخل عن نفسه، وهو الخاسر بذلك، والله غني عن عباده جميعاً، وهم الفقراء المحتاجون إليه، الذين لا يستغنون عنه.

وتهدد آخر كلمات السورة الذين يتولون ويعرضون، ولا ينفذون أحكام السورة في الجهاد والإنفاق والطاعة والقوة، بأن الله يحرمهم من هذه النعم، ويستبدل بهم قوماً آخرين غيرهم، ولا يكونون مثلهم، بل يكونون مجاهدين صادقين.

4.7 من وجوه القراءات

في قوله: «فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ» قراءتان:

الأولى: قراءة حمزة وشعبة عن عاصم: « السِّلم » بكسر السين.

وحجتهما في ذلك أن « السِّلم » بكسر السين، بمعنى الاستسلام.

الثانية: قراءة الباقين: نافع وابن كثير وابن عامر وأبي عمرو والكسائي وحفص عن عاصم: « السَّلم » بفتح السين.

وحجتهم في ذلك: هناك فرق بين « السِّلم » بالكسر، و « السَّلم » بالفتح.

فهو بالكسر بمعنى الاسلام. وعلى هذا قوله تعالى:«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً» (البقرة/208)

أي: ادخلوا جميعاً في الاسلام.

وهو بالفتح بمعنى الاستسلام والهوان أمام الأعداء، كما في هذه الآية، حيث ينهى الله المسلمين عن الهوان والدعوة إلى الصلح مع الكفار، وهم أذلاء مهزومون أمامهم.

وقال بعض أهل اللغة: « السلم » بالكسر والفتح، بمعنى الصلح، وهما لغتان في الكلمة.

5.7 صفات الكافرين

تعرض آيات الدرس مجموعة من صفات الكافرين، ومنها:

-1 هم كفار كفروا بالله، وكذبوا رسوله ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا».

-2 هم صدوا عن سبيل الله، ومنعوا الآخرين عن الدخول في الإسلام، وحاربوا دين الله: «وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

-3 وهم شاقوا الرسول ﷺ وحاربوه، ووقفوا في الشق والجانب المقابل له، وانحازوا إلى الكفار الآخرين في حربه:«وَشَاقُّوا الرَّسُولَ».

4- هم ضلوا بعد الهدى، وكفروا بعد العلم، فقد تبين لهم الهدى، ومع ذلك اختاروا الكفر، وقامت عندهم الأدلة اليقينية على صدق رسول الله ﷺ، وأنه رسول الله، ومع ذلك كذبوه وحاربوه: «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى».

هؤلاء الكفار يظنون أنهم يعجزون الله، وأنهم يهزمون رسوله، وأنهم يقضون على دينه، وهم واهمون في ذلك الظن. إنهم ضعاف مهازيل أمام قوة الله، ولهذا قررت الآيات أنهم بتلك الصفات والأعمال لن يضروا الله: «لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا ».

وقد وعد الله أن يهزمهم ويبطل كيدهم، ويحبط أعمالهم: «وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ» ولهذا هم فاشلون في حربهم لهذا الدين، مهزومون في مواجهتهم لرسول الله ﷺ.

والكفار في كل زمان ومكان خاسرون في حربهم للحق، لن يضروا الله شيئاً، ولن يؤثروا في دينه، لأن الله يهزمهم ويقضي عليهم، ويحبط أعمالهم، وينصر أولياءه، ويظهر دينه.

6.7 الأمر بالطاعة والإخلاص

بعد بيان المصير المخيف للكفـــار،وتحديد النهاية المفجعة لهم،تلتفت الآيات للمؤمنين، تأمرهم بطاعـــة الله، وطاعة رســـوله ﷺ، وتنهاهـــم عـــن إبطـــال أعمالـــهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ».

يجب على المؤمنين أن يطيعوا الله طاعة مطلقة، بالالتزام بأحكامه، والوقوف عند حدوده، كما يجب عليهم طاعة رسوله ﷺ طاعة مطلقة، لأنه من يطع الرسول فقد أطاع الله.

وأداء العبادات، والقيام بالواجبات، يجب أن يكون خالصاً لوجه الله، فالمؤمن مخلص في طاعته لله، يرجو رحمته ويخشى عذابه، ولا يدخل في عمله شركاً ولا رياء.

ونهي الآية للمؤمنين عن إبطال أعمالهم، كما أبطل الكفار أعمالهم بكفرهم، وهذا نهي لهم عن إبطال ثواب اعمالهم، بأن يتوجهوا بأعمالهم لله، وأن يكونوا في أدائها مخلصين لله، وأن لا يشوبها رياء أو عجب، ولا يخالطها منّ ولا أذى.

قال عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما-: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ، نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلاّ مقبولاً. حتى نزل قوله تعالى:«أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» فقلنا: ما الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش.

حتى نزل قوله تعالى:«إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (النساء/116).

فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك. فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصبها.

وقال عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: «وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ»: لا تبطلوها بالرياء والسمعة، أو بالشك والنفاق.

7/7 الموت على الكفر محبط للعمل

بعدما أمرت الآيات المؤمنين بالطاعة والإخلاص لله، وحذرتهم من إبطال ثواب أعمالهم، إذا خالطها شائبة من رياء أو عجب، بينت أن الموت على الكفر هو الذي يحبط عمل صاحبه، ويغلق باب التوبة والمغفرة له،ويوجب له الخلود في النار:«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ».

إن الفرصة متاحة أمام الكافر، ليتخلى عن كفره، ويدخل في الإسلام، ما دام حياً. فإن انتهز هذه الفرصة وأسلم وتاب وأناب، فإن الله يقبل ذلك منه، ويغفر له ويرحمه، ويبدل سيئاته السابقة حسنات.

ولكنه إن أصر على كفره وصده عن سبيل الله، وبقي على ذلك حتى غرغر، وبلغت الروح الحلقوم، ومات وهو كافر، فقد ذهبت الفرصة المتاحة له، وختم له بالكفر، وأغلق باب التوبة، ولهذا لن يغفر الله له.

إن الموت على الكفر هو الذي يحبط عمل الكافر، ويفقده رحمة الله ومغفرته، ويخلده في النار.

وهذه الآية كقوله تعالى :«إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (النساء/116).

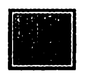
8.7 النهي عن الاستسلام للأعداء

تتوجه الآيات إلى المؤمنين فتنهاهم عن الاستسلام للأعداء، وتحذرهم من الوهن والذل أمامهم، وتربط بين الوهن والدعوة إلى السلم، وتذكرهم بالاستعلاء، وتملؤهم شعوراً وإحساساً به، فهم الأعلون، وإن الله معهم بنصره وتأييده، وهو لا ينقصهم شيئاً من أجور حسناتهم، وثواب جهادهم: «فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ».

وقد بين سيد قطب معنى الاية، ولمستها التربوية لنفوس المسلمين، وعلاجها لخواطر الاستسلام والوهن والضعف، فقال: « أنتم الأعلون، فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم، أنتم الأعلون اعتقاداً وتصوراً للحياة، وأنتم الأعلون ارتباطاً وصلة بالعلي الأعلى، وأنتم الأعلون منهجاً وهدفاً وغاية، وأنتم الأعلون شعوراً وخلقاً وسلوكاً.. ثم... أنتم الأعلون قوة ومكاناً ونصرة، فمعكم القوة الكبرى « والله معكم ».. فلستم وحدكم، إنكم في صحبة العلي الجبار القادر القهار، وهو لكم نصير، حاضر معكم، يدافع عنكم، فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم ؟

وكل ما تبذلون، وكل ما تفعلون، وكل ما يصيبكم من تضحيات، محسوب لكم، لا يضيع منه شيء عليكم:«وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ» ... ولن يقطع منها شيئاً لا يصل إليكم أثره ونتيجته وجزاؤه.

فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم، من يقرر الله - سبحانه - له أنه الأعلى، وأنه معه، وأنه لن يفقد شيئاً من عمله، فهو مكرم منصور مأجور ؟» (في ظلال القرآن 6: 332)



نشاط (4)

اقرأ تفسير قوله تعالى : «وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» في تفسير الإمام القرطبي، واذكر خلاصة الخلاف فيمن بدأ عبادة ثم أبطلها وعدل عنها.
واذكر خلاصة كلامه عن دعوى النسخ في قوله:«فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ» (الجامع لأحكام القرآن 16: 255 - 256).

9.7 الحث على الإنفاق للجهاد

بما أن هذه السورة هي سورة الجهاد والقتال، فقد أمرت المؤمنين بجهاد الكافرين، لذلك كانت خاتمتها في آياتها الأخيرة حثاً على الإنفاق في سبيل الله، للإعداد للجهاد، وتجهيز

المجاهدين.

وقد بدأت الآيات بالدعوة إلى الزهد في الدنيا، وبيان حقيقتها، وقيمتها بالقياس إلى الآخرة: «إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ».

أي: قاتلوا أيها المؤمنون أعداءكم أعداء الله من الكفار، ولا تؤثروا الدنيا على قتالهم، ولا تركنوا إليها وتتخلوا عن الواجب عليكم، فإنها لعب ولهو، وباطل وغرور، لا ثبات له ولا اعتداد به، فاسترخصوها، واطلبوا الجنة ونعيمها من خلال جهادكم في سبيل الله.

والفرق بين اللعب واللهو: أن اللعب ما لا منفعة فيه في المستقبل، لكنه لا يشغل عن الواجبات.

واللهو: هو ما لا منفعة فيه، ويشغل صاحبه عن الواجبات المفروضة عليه. لكن متى تكون الدنيا لعباً ولهواً ؟

إنها لعب ولهو حين يعيشها الإنسان لذاتها،ولا يكون له وراءها غاية أكرم وأبقى، ويعدها كل شيء، ويقطعها عن منهج الله، ويتبع فيها أهواءه وشهواته، فيفسد ويظلم ويطغى.

أما إذا عاشها الإنسان على منهاج الله، وأحسن العمل فيها، فإنها تكون وسيلة ومزرعة للآخرة، ويكون صاحبها مأجوراً فيها، عابداً مطيعاً لله.

وحتى يحقق المؤمن رسالته الإيمانية في الدنيا، دعته الآيات إلى الإيمان والتقوى: «وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ».

الإيمان والتقوى هو الذي يخرج الدنيا عن أن تكون لعباً ولهواً، ويطبعها بطابع الجد، ويرتفع بها عن مستوى المتاع الحيواني، إلى مستوى الخلافة عن الله في الأرض، فيخلص المؤمن التقي العمل فيها، ويكون عمله موصولاً بالآخرة، ولهذا يعطيه الله أجره كاملاً يوم القيامة، ولا ينقصه منه شيئاً.

وتدعو الآيات المؤمنين المتقين إلى الإنفاق في سبيل الله، للإعداد للجهاد وتجهيز المجاهدين، وتبين لهم رحمة الله بهم حيث لم يطالبهم بإنفاق كل أموالهم، لأنه يعلم أنهم لن يقدروا جميعاً على ذلك: «وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ».

لا عسر ولا حرج ولا مشقة في أمر الله للمؤمنين بالإنفاق، لكنه اليسر، ومراعاة الوسع والطاقة والقدرة، وهكذا كل الفرائض والواجبات والتكاليف التي أوجبها الله على المسلمين ؛ لأن الله عليم حكيم، فما جعل علينا في الدين من حرج، وأراد بنا اليسر ولم يرد بنا

العسر، ولم يكلفنا إلاّ وسعنا وطاقتنا.

إنه يعلم محبة الإنسان الشديدة للمال، وأن هذا مركوز في فطرته، فلم يطلب منه أن يدفع كل ماله، ولم يُلح عليه. فلو طلب منه كل ماله، ولو ألح وبالغ في الطلب، وأجهده بذلك، لضن كثيرون بأموالهم، وبخلوا بها، وامتنعوا عن الإنفاق والبذل، وبذلك تظهر أمراضهم، وتبدو أحقادهم، ويرى الآخرون ضعفهم وشحهم وبخلهم.

10.7 تحذير من البخل والإعراض

بعدما أمرت الآيات المؤمنين بالإنفاق على الجهاد، وبينت الحكمة الربانية في عدم طلبه أموالهم كلها، ذكرت أن منهم من يرفض الدعوة الموجهة له للإنفاق في سبيل الله، ويبخل عن النفقة: «هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ».

المؤمنون أمام آيات الإنفاق فريقان: فريق ينفذ ما فيها، ويسارع للإنفاق في سبيل الله. وفريق آخر - وهم قلائل - يبخل عن الإنفاق، ويضن بماله.

وتعالج الآيات الشح والبخل عند هؤلاء، فتبين لهم أن بخلهم عليهم، وضرر البخل يعود إلى نفوسهم، لأنهم يخسرون الأجر والثواب، ويبتعدون بسبب ذلك البخل عن مرضاة الله: «وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ».

فعندما طالبهم الله بالإنفاق، وحذرهم من البخل، إنما أراد مصلحتهم، والخير إليهم، وزيادة أجورهم، لأن ما يقدمونه من المال إنما هو رصيد مدخر مذخور لهم، يجدونه عندما يحتاجون إليه يوم القيامة.

إن الله غني عنهم وعن أموالهم، أما هم فإنهم فقراء إليه: «» الله غني عنهم، ولهذا منحهم الأموال ورزقهم إياها، وأعطاهم عن سعة وغنى، ولهذا غني عما أعطاهم من المال. أما هم فإنهم فقراء إلى رزق الله في الدنيا، وفقراء إلى فضله وأجره وجنته في الآخرة، فلماذا لا ينفقون بعض أموالهم، وهذا حالهم ؟

وتختم سورة القتال آياتها بالتحذير من التولي والإعراض، وتهدد الذين يتولون ويعرضون عن الإنفاق في سبيل الله، وقتال أعداء الله، وحمل رسالة رسول الله ﷺ: «وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ».

وهذا بيان لسنة الله في الاستبدال، حيث يغير من يعرض ويتولى عن حمل الأمانة، ويأتي بغيره، ممن هو أفضل منه.

« إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومنّ وعطاء. فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلاً لهذا الفضل، وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة، وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم، فيهون عليكم كل ما عداه.. فإن الله يسترد ما وهب، ويختار غيركم لهذه المنة، ممن يقدّر فضل الله. وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان، وأحس بكرامته على الله..

وما يطيق الحياة إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها، ثم تسلب منه...

إن الإيمان هبة ضخمة، لا يعدلها في هذا الوجود شيء، والحياة رخيصة رخيصة، والمال زهيد زهيد، حين يوضع الإيمان في كفة، ويوضع في الكفة الأخرى كل ما عداه...

(في ظلال القرآن 6: 3303 - 3304).

وقد فعل هذا التهديد بالاستبدال فعله في نفوس المؤمنين، فسيطروا على وساوس التولي والإعراض، ولبوا الدعوة إلى الإنفاق، وبذلوا أموالهم في سبيل الله، وضربوا أروع الأمثلة والنماذج.

كما أنهم حملوا الأمانة، ونشروا الدعوة، وقاموا بواجب الجهاد في سبيل الله، وقاتلوا أعداء الله، والتزموا بالتكاليف التي دعتهم إليها هذه السورة - وباقي سور القرآن - وصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

لم يتولوا، ولم يعرضوا، فأبقاهم الله حاملين للأمانة، مجاهدين في سبيله.

قال الحسن وعكرمة: شرط في الاستبدال توليهم، لكنهم لم يتولوا. فلم يستبدل سبحانه قوماً غيرهم بهم.



نشاط (5)

أمعن النظر في آيات السورة كلها، ثم استخرج منها أهم ما ترشد إليه من دلالات وعبر، على أن لا تقل عن عشرين دلالة. مع الإشارة إلى وجه الاستدلال.

أسئلة التقويم الذاتي (6)

1- استخرج من آيات الدرس ست صفات للكافرين، واذكر ما يقابلها من صفات إيجابية عند المؤمن.

2- في قوله: «وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» كلمة مقدرة. ما هي ؟ ولماذا قلنا بتقديرها ؟

3- متى يغفر الله للكافر، ومتى لا يغفر له، ولماذا ؟ واستشهد لكلامك بشاهد من آيات الدرس، وشاهد آخر من القرآن الكريم.

4- اختلف الفقهاء في جواز التخلي عن التطوع إذا شرع فيه المسلم، اذكر قولين لهم. ووجه استدلال أصحاب كل قول بقوله «وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ».

5- في قوله:«وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ» قراءتان. اذكرهما، وانسب كل قراءة لمن قرأ بها. واشكل الكلمة على كل قراءة، ووجه تلك القراءة.

6- كيف ترد على من زعم أن قوله «فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ» منسوخ.

7- ما الحكمة في أن الله لم يأمر بإنفاق كل الأموال في سبيل الله ؟

8- لماذا هدد الله المسلمين باستبدال قوم غيرهم بهم إن تولوا ؟ وما هو أثر هذا التهديد فيهم ؟

عزيزي الدارس: هذه هي الوحدة الثانية من مقرر «التفسير» في برنامج التربية، تخصص التربية الاسلامية. وموضوعها هو تفسير سورة «محمد» ﷺ.

وقد انتهيت من قراءة هذه الوحدة، واطلعت على تفسير هذه السورة، موضوع الوحدة.

لقد عرفت -بعد قراءتك للوحدة -موضوع سورة محمد ﷺ، وعرفت دروس السورة ومقاطعها، ومعاني الكلمات الغريبة فيها، وأسباب نزول بعض آياتها، والقراءات الصحيحة في بعض كلماتها، والأحكام الفقهية فيها، والدروس والدلالات والعبر التي تؤخذ منها.

ونلخص لك فيما يلي أهم ما عرضناه في هذه الوحدة:

1- أسماء السورة التوقيفية والاجتهادية.

2- جو نزول السورة، وحياة الصحابة وقت نزولها، ودرجة المواجهة بينهم وبين الكفار عندما أنزلها الله.

3- مناسبة السورة لما قبلها من السور، ولما بعدها، والارتباط الوثيق مع تلك السور.

4- الوحدة الموضوعية للسورة، والتناسق والترابط بين دروسها ومقاطعها، وبين موضوعاتها ومعانيها.

5- الأهداف التي سعت السورة إلى تحقيقها في واقع وحياة المسلمين.

6- دروس السورة الخمسة، بذكر آيات الدرس، وموضوعه، والترابط بين آياته، والتناسب بين معانيه، والمعنى الإجمالي له، وما فيه من قراءات صحيحة، وكلمات غريبة، وأسباب نزول، وأحكام فقهية، ووجوه بلاغية، ودروس وعبر مستفادة.

7- بيان حقيقة كل من المؤمنين والكفار، وإجراء مقابلة بين الفريقين كما وردت في آيات الدرس الأول من دروس السورة.

8- بيان الحكمة من الأمر بقتال الكفار، ومعالجة بعض الآثار الناجمة عن قتالهم، وتقرير أحكام فقهية حول قتل الكفار وأسرهم ونتائج ذلك الأسر. وتوضيح شروط النصر للمؤمنين، كما وردت في آيات الدرس الثاني من دروس السورة.

9- إجراء مقابلة ومقارنة بين المؤمنين والكافرين، كما وردت في آيات الدرس الثالث من دروس السورة. حيث تمت المقابلة بين الفريقين في الولاية والنصرة. وفي الاستمتاع والجزاء، وفي المنهج والسلوك، وفي النهاية والمصير.

10- عرض أهم صفات الكافرين والمنافقين والمرتدين، وتهديدهم بالقتل والكشف والفضح، وتصوير حال المنافقين عند سماع القرآن، ورسم صورة شاخصة لجبنهم وخوفهم، وعرض مشهد حي لاحتضارهم عند خروج أرواحهم. كما ورد في آيات الدرس الرابع من دروس السورة.

11- ملاحظة تأكيد السورة - سورة القتال - للحث على الجهاد، واستنهاضها لهمم المسلمين لقتال الكافرين، وأمرها لهم بالطاعة والانفاق في سبيل الله، ونهيها لهم عن المعصية وإحباط الأعمال والجبن والضعف والوهن، والذل أمام الأعداء، وتحذيرها لهم بالاستبدال إن لم يلتزموا بما فيها من توجيهات. كما ورد في آيات الدرس الخامس من دروس السورة.

لمحة مسبقة عن الوحدة الدراسية الثالثة

عزيزي الدارس: ستنتقل بعد دراستك لهذه الوحدة، إلى الوحدة الثالثة التالية في هذا المقرر. والوحدة الثالثة مخصصة للنصف الأول من سورة النور (الآيات 1 - 34).

سورة النور مدنية كلها، كسورة محمد ﷺ، وهي تقرر طائفة من الأحكام الفقهية، وتقدم مجموعة من التوجيهات الأخلاقية والاجتماعية الإسلامية، وتعالج بعض الأحداث والمشكلات التي وقعت في حياة الجماعة المسلمة في عهد رسول الله ﷺ.

ستقف في الوحدة الثالثة على بعض الأحكام والحدود الاسلامية، مثل: حد الزنا، وحد القذف، وأحكام اللعان. كما ستتعرف بعض التوجيهات والآداب التي تقررها آيات السورة، مثل آداب الاستئذان للدخول في البيوت، وأحكام النظر، والأمر بستر العورة، وحدود الزينة التي يجوز للمؤمنات إظهارها، وبيان ما لا يجوز لهن إظهاره منها على الرجال الأجانب. والأمر بتزويج غير المتزوجين من المؤمنين والمؤمنات.

وستقف في هذه الوحدة على قصة حديث «الإفك» الذي أثاره المنافقون في المدينة، واتهموا به العفيفة الطاهرة «عائشة» - رضي الله عنها-، وكيف عالجت آيات السورة

هذه المشكلة، وقدمت للمؤمنين منهجاً قرآنياً سديداً في مواجهة الإشاعات، وإبطال مكائد الأعداء من المنافقين، وحسن الظن بالصالحين والصالحات.

10. إجابات التدريبات

عزيزي الدارس: مر بك في هذه الوحدة، أربعة تدريبات، وفيما يلي نساعدك على تقديم إجابة موجزة لكل منها.

تدريب (1)

اقرأ مقدمة سورة محمد ﷺ من تفسير «في ظلال القرآن». واستخرج منها دروس السورة الخمسة، وموضوع كل درس، والارتباط بينها:

الإجابة: بيّن سيد قطب في تعريفه بسورة محمد ﷺ دروس السورة الخمسة، وعرفنا على موضوعاتها، وربط بينها، وهذه الدروس هي:

الدرس الأول: آياته (1 - 3)، وموضوعه: بيان حقيقة كل من المؤمنين والكفار، وهذا الدرس بمثابة مقدمة للسورة ؛ لأن السورة تأمر المؤمنين بقتال الكفار، ولذلك ناسب أن تكون هذه الآيات الثلاث، تعريفاً لفريقي المعركة، فريق المؤمنين، وفريق الكافرين.

الدرس الثاني: آياته: (4 - 9)، وموضوعه: الأمر بقتال الكفار، وبيان ما يترتب على قتالهم من نتائج، مثل قتل بعضهم أثناء المعركة، وأسر آخرين بعد هزيمتهم، وحكم التصرف في هؤلاء الكفار الأسرى، من منّ أو فداء. وتحدد آيات الدرس شروط النصر في المعركة للمؤمنين، وتقدم بعض ما أعد الله من ثواب للمجاهدين والشهداء.

وهذا الدرس مرتبط مع الدرس السابق ارتباطاً مباشراً، فبعدما يعرف المؤمنون حقيقتهم وصفاتهم، وحقيقة خصومهم الكفار وصفاتهم، يتوجهون لقتال هؤلاء الكفار.

الدرس الثالث: آياته: (10 - 15)، وموضوعه: إجراء مقابلة بين فريقي المعركة، المؤمنين والكافرين، حيث تجري آيات الدرس مقارنة بين الفريقين في عدة مجالات ؛ لتبين الفرق بينهما فيها، وهذه المجالات التي يفترقان فيها، كما بين هذا الدرس هي: الولاية والنصرة، والاستمتاع والجزاء، والمنهج والسلوك، والنهاية والمصير.

وهذا الدرس مرتبط مع الدرس السابق، وهو بمثابة تعليل له، فالله ينصر عباده المؤمنين المجاهدين، ويهزم أعداءه الكافرين. كما بينت آيات الدرس السابق، وتبين آيات هذا الدرس الصفات الإيجابية التي اتصف بها المؤمنون، والتي أهلتهم لنصر الله، والصفات السيئة التي اتصف بها الكافرون، والتي استحقوا بها عذاب الله.

الدرس الرابع: آياته: (16 - 31)، وموضوعه: بيان صفات المنافقين والمرتدين وتهديدهم، حيث يبين حالهم السيئة عند سماعهم للقرآن، وجبنهم وخوفهم من المعارك والقتال، وطاعتهم للكفار، وقطعهم للأرحام، وإفسادهم في الأرض، وتعرض صورة لمشهدهم عند الاحتضار.

وهذا الدرس مرتبط مع الدرس السابق، حيث يتكلم عن الأعداء الكافرين في الجبهة الداخلية، المتخفين بين المسلمين، ويبين موالاتهم للأعداء المكشوفين من اليهود والمشركين، ويكشف هؤلاء الأعداء المتخفين للمؤمنين.

الدرس الخامس: آياته (32 - 38)، وموضوعه: تأكيد الحث على الجهاد، وأمر المؤمنين المجاهدين بطاعة الله ورسوله ﷺ، وحثهم على الإنفاق على الجهاد، وتحذيرهم من البخل، ونهيهم عن الذل والوهن والاستسلام للأعداء.

وهذا الدرس مرتبط مع الدرس السابق، وهو خاتمة للدروس السابقة كلها، فالمؤمنون مطالبون بجهاد الأعداء . سواء أكانوا كفاراً مكشوفين، أم كفاراً متخفين كالمنافقين، ومطالبون بتمويل هذا الجهاد وتقديم ما يحتاجه من أموال ونفقات. ولا يجوز لهم الوهن والضعف والذل والاستسلام.

إنهم إن نفذوا توجيهات آيات السورة نالوا ما وعدهم الله به من نصر وثواب وجزاء، وإن نكثوا وتولوا وأعرضوا، فلن يضروا الله شيئاً، لأن الله يستبدل قوماً غيرهم، ولا يكونون مثلهم.

تدريب (2)

اشرح المصطلحات التالية من كتاب «البلاغة الواضحة» لعلي الجارم: المقابلة، الطباق، التوكيد. واشرح «التصوير الفني» من كتاب «التصوير الفني في القرآن» لسيد قطب.

الإجابة:

الطباق هو: الجمع بين الشيء وضده في الكلام، وذكرهما في الجملة، كالجمع بين الإيمان والكفر،الحياة والموت،والضحك والبكاء، والغنى والفقر. فقوله تعالى: «ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ» فيه « طباق » بين الضدين « آمنوا » و « كفروا ». والضدين: « الباطل » و « الحق ».

المقابلة: هي: أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك.

فقوله تعالى: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ» يقابل قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

وقوله عن الكفار: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» يقابل قوله عن المؤمنين:«كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ».

التوكيد هو: أن يقرر معنى في جملة، ثم يؤتى بجملة أخرى توكيداً له، كما في قوله تعالى:«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ».

فالجملة الأخيرة في الآية للتوكيد، فمعناها تتضمنه الوحدة السابقة، فالقرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ، حق، والمؤمنون يؤمنون أنه حق، وهذا تضمنه قوله: «وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ»، ولكن الجملة التالية جيء بها توكيداً لهذا الحق: «وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ».

التصوير الفني: هو تعبير القرآن عن موضوعاته بطريقة مصورة، حيث تعرض كلمات الآية صورة متخيلة، فعندما يقرؤها القارئ، يتخيل صورة حية في خياله.

كما في قوله تعالى: «حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا». فالحرب معنوية وليست مادية حية، والتعبير عنها بوضع أوزارها كناية عن انتهائها، ولكن التعبير في الآية يرسم صورة متخيلة شاخصة في خيال القارئ، حيث يراها في خياله كأنها مخلوق حي يتحرك ويمشي، ويحمل على ظهره أحمالاً ثقيلة، يتعب من حملها، فيضعها على الأرض، ليتخفف منها.

تدريب (3)

أمعن النظر في آيات الدرس (10 - 15) واستخرج منها ثلاثة نماذج للتصوير الفني، وبيّن جزيئات التصوير في كل نموذج.

الإجابة:

النموذج الأول:قوله تعالى:«وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ». حيث يبين طريقة الكفار في الأكل والاستمتاع بلذات الدنيا، التي تقوم على الحيوانية والشهوانية.

لقد شبههم في أكلهم واستمتاعهم بالأنعام في أكلها واستمتاعها.

ويتخيل القارئ صورة هؤلاء الكفار في أكلهم، وكأنهم مجموعة من الأنعام، ترتع في أعشاب وزرع الأرض.

النموذج الثاني: قوله تعالى:«مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى». حيث يعرض ما أعده الله من شراب لأصحاب الجنة، مثل شراب الماء واللبن والخمر والعسل، وهذا الشراب في أنهار جارية.

ويتخيل القارئ في خياله صورة شاخصة لهذه الأنهار العريضة في الجنة، وهي صورة مؤثرة للماء الكثير في النهر الغزير، وصورة عجيبة للبن الطازج يملأ النهر الغزير، وصورة لطيفة للخمر اللذيذة غير المسكرة تملأ النهر الغزير، وصورة أخاذة للعسل المصفى يملأ النهر الغزير.

النموذج الثالث: قوله تعالى:«وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ» حيث يعرض صورة للكفار في أثناء تعذيبهم في النار، وهم يسقون من الحميم الحار، الذي يدخل أجوافهم، فيقطع أمعاءهم، ويبيد لحومهم.

ويتخيل القارئ في خياله صورة لهؤلاء الكفار في النار، ويراهم في خياله وهم تفتح أفواههم، ويصب فيها الحميم الحار، فينزل إلى أمعائهم وبطونهم، فيشويها شياً، ويقطعها تقطيعاً، ويرى ملامحهم وهي تتألم من ذلك العذاب تألماً لا يطاق.

تدريب (4)

هناك آيات في سورتي التوبة والأحزاب، تبين جبن وخوف المنافقين. اذكرها. واستخرج ملامح تلك الصورة المرسومة للنافقين فيها.

الإجابة: قال تعالى في سورة التوبة عن المنافقين:«وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ» (التوبة/56 - 57).

تصور الآيتان جبن وخوف المنافقين في صورة حية شاخصة، وهي صورة منفرة زرية. فهم يفرقون ويخافون عندما يدعون للجهاد، ويفرون من ميدان القتال، ويحرصون على أن يدخلوا أي مكان يؤويهم، سواء أكان ملجأ أو مغارة أو زقاقاً أو شارعاً أو أي شيء آخر.

وهم في إسراعهم في الهروب خوفاً وهلعاً كالخيل عندما تجري وتسرع في الجري، وهي جامحة لاهثة مضطربة مترنحة، وهذه الصورة منفرة قبيحة.

وقال تعالى عن جبن المنافقين في سورة الأحزاب:«أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» (الأحزاب/19).

ترسم هذه الآية صورة أخرى منفرة للمنافقين، في خوفهم وهلعهم وجبنهم، تضاف للصورة السابقة، التي رسمتها آيتا سورة التوبة، وهم في هذه الصورة تزيغ أبصارهم، وتدور عيونهم، من شدة الخوف والهلع، فينظرون بهذه الأبصار الزائغة، وتكون عيونهم دائرة من شدة الجبن، كما تدور عين الذي يغشى عليه من الموت.

ومنظر الإنسان عندما يغشى عليه من الموت معروف، ونظراته في هذه الحالة نظرات زائغة قلقة مضطربة خائفة معروفة.

وهكذا المنافق في جبنه وهلعه وخوفه وقلقه واضطرابه.

وتتكامل الآيتان - من سورة الأحزاب وسورة محمد ﷺ - في رسم صورة المنافقين عند خوفهم، وبيان ملامحهم في أثناء جبنهم وهلعهم.

«فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» (الأحزاب/19).

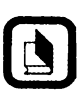
و «فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ»(محمد/20).

11. مسرد المصطلحات

عزيزي الدارس: مرت بك في هذه الوحدة مصطلحات عديدة في التفسير وعلوم القرآن والبلاغة والبيان، ونعرف لك في ما يلي أهم هذه المصطلحات:

- الآية: هي مجموعة من الكلمات والجمل القرآنية، لها بداية ونهاية، وهي مرتبطة بما قبلها وما بعدها من الآيات، وقد تكون آية طويلة، أو آية متوسطة، أو آية قصيرة، والآيات توقيفية. والآية بمعنى العلامة، فهي علامة ودلالة على أنها كلام الله، وليس كلام أحد من البشر.
- الأسرى: هم الأفراد من الأعداء، الذين يلقي المسلمون القبض عليهم في أثناء محاربتهم للكفار، ويسوقونهم مأسورين، حيث يخير الخليفة بين أن يطلق سراحهم ويعيدهم إلى قومهم دون مقابل، أو يطلق سراحهم مقابل فدية مالية، أو تبادل مع مسلمين مأسورين عند الكفار، وله أن يقتل بعضهم لأسباب خاصة، وأن يسترق بعضهم إذا استرق الكفار أسرى من المسلمين.
- أشراط الساعة: هي العلامات والأحداث التي تقع في هذه الدنيا، قبيل قيام الساعة، وجعلها الله مقدمة وتمهيداً للساعة، حيث تقوم القيامة بعدها مباشرة، ومن أشراط الساعة الكبرى: ظهور المسيح الدجال، ونزول عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها.
- الجهاد: هو بذل المسلم لجهده في خدمة دين الله، والالتزام به، والدعوة إليه، ومواجهة أعدائه، وهو واجب عليه، حيث أمره الله بأن يجاهد في الله حق جهاده. وهذا الجهاد قد يكون بالقول أو الفعل أو المال أو القتال.
- السورة: هي التي ضمت مجموعة آيات من كتاب الله، وقد تكون هذه السورة طويلة كسورة البقرة، وقد تكون متوسطة كسورة الكهف، وقد تكون قصيرة كسورة الكوثر. والآيات في السور توقيفية من عند الله. واشتقاقها من « سور » وشبهت بالسور الذي يحيط بالمنزل، لإحاطتها بالآيات التي حوتها.
- الشهيد: هو المسلم الصادق الملتزم بدين الله، التزاماً عملياً، يجاهد في سبيل الله، ويقاتل أعداء الله، يبتغي بذلك وجه الله، ويقتل في سبيل الله، وتخرج روحه بسبب ذلك، وبذلك يقدم شهادة من دمه أن دين الله أغلى عنده من حياته، ولذلك بذل حياته انتصاراً لدينه.

- القتال: هو صورة عليا من صور الجهاد، هي أسمى صورة، وهو حمل السلاح، ومواجهة الكفار به، والاشتباك معهم، وصد عدوانهم، وحفظ الدين والوطن والمال والناس من مكائدهم.
- المناسبة بين السور: هي الصلة والترابط بين السور، من حيث موضوعاتها ومعانيها وأحكامها ومقاصدها، واتفاقها على تحقيق ذلك، بحيث تبدو هذه السور وحدات متكاملة متناسقة، وكأنها جواهر منظومة في سلك متين.
- المنافقون: هم قوم جبناء، كارهون للإسلام، راغبون في الكفر، لكنهم لا يجرءون على إظهار كفرهم، ويجبنون عن مواجهة المسلمين علانية، فأظهروا الإسلام بألسنتهم، وشاركوا المسلمين - في الظاهر - في بعض عباداتهم، لكنهم أخفوا أو أسروا الكفر في قلوبهم، وتآمروا مع الكفار الآخرين على الإسلام والمسلمين.
- الوحدة الموضوعية للسورة: هي إظهار التناسب والتناسق والاتفاق والترابط والانسجام بين آيات السورة، بحيث تتكامل على تحقيق موضوع السورة، وإظهار ذلك بين دروس السورة ومقاطعها، لتبدو متلائمة متحدة، وإظهار ذلك بين موضوعات السورة ومعانيها، لتلتقي على موضوع جامع، ومعنى عام.



12. المراجع

* القرآن الكريم.

1- الأصفهاني: الحسين بن محمد بن المفضل - الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن. تحقيق صفوان داوودي. دمشق -دار القلم - ط 1 - 1412 هـ - 1992م.

2- الجارم: علي، البلاغة الواضحة. القاهرة - دار المعارف - 1979م.

3- الزحيلي: وهبة، التفسير المنير. بيروت - دار الفكر - ط 1: 1411هـ - 1991م.

4- ابن زنجلة: عبد الرحمن بن محمد، حجة القراءات. تحقيق سعيد الأفغاني، بيروت - مؤسسة الرسالة - ط 3 - 1982م.

5- عبد الباقي: محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. بيروت - دار الفكر - 1401هـ - 1981م.

6- الفيروز أبادي: مجد الدين، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط. بيروت - مؤسسة الرسالة - 1406 هـ - 1986م.

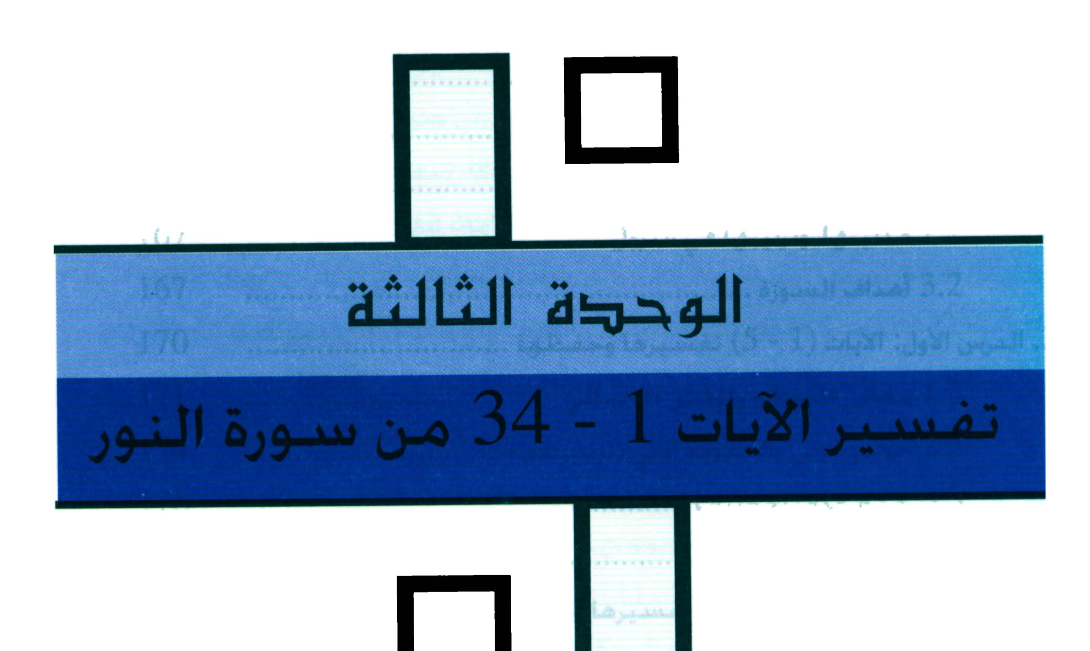
7- القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن. بيروت - مؤسسة مناهل العرفان، د. ت.

8- قطب: سيد، التصوير الفني في القرآن. القاهرة - دار الشروق - د. ت.

9- قطب: سيد، في ظلال القرآن. القاهرة - دار الشروق- 1397هـ- 1977 م.

10- ابن كثير: إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم. بيروت - دار الخير - 1990 م- 1410هـ.

11- المراغي: أحمد مصطفى، تفسير المراغي. القاهرة - مكتبة مصطفى الحلبي، 1953م.


الوحدة الثالثة
تفسير الآيات 1 - 34 من سورة النور

محتويات الوحدة

1. المقدمة

1.1 تمهيد

عزيزي الدارس: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد: فهذه هي الوحدة الثالثة من مقرر التفسير في برنامج التربية « تخصص التربية الاسلامية »، وموضوع هذه الوحدة، تفسير سورة النور (1 - 34).

وقد حرصنا عند كتابة هذه الوحدة على تقديم خلاصة موجزة نافعة للدارس عن موضوعات أجزاء هذه الوحدة، استقيناها من مصادر التفسير الأصيلة قديمها وحديثها، وذكرنا ما نطمئن إليه من المسائل والقضايا التفسيرية.

تتكون هذه الوحدة من خمسة أجزاء، عدا المقدمة والأجزاء الختامية.

يتحدث الجزء الأول « بين يدي سورة النور» عن سبب تسميتها وصلتها بما قبلها، وعن مدنيتها وترتيبها في النزول ويبين أهم أهداف هذه السورة، التي لا غنى عنها.

أما الجزء الثاني، فيهتم بمعرفة معاني الألفاظ الغريبة الواردة في الآيات (1 - 5) والمعنى الإجمالي لها، ويهتم بمعرفة حكم الزّنى والعقوبة التي تترتب عليه، وحكم قذف المحصنات الغافلات، كما يعتني بذكر سبب نزول قوله تعالى: «الزاني لا ينكح إلاّ زانية» ويستنتج ما ترشد إليه هذه الآيات الكريمة.

ويعرض الجزء الثالث تفسير الآيات (6 - 10). فيبين سبب نزول آيات الملاعنة وحكم اللعان ورأي الفقهاء فيه هل هو شهادة أو يمين، ويعرض القراءات في الآية السادسة ومواطن البلاغة والإعجاز في الآية العاشرة ويوضح أهم ما ترشد إليه الآيات الكريمة.

أما الجزء الرابع تفسير الآيات (11 - 26)، فيتحدث عن سبب نزول آية الإفك، ويبين معاني الألفاظ الغريبة والمعنى الإجمالي، كما يظهر براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وحكم من أشاع الفاحشة، ويهتم بتأديب الله تعالى للمؤمنين في هذه الحادثة بإبراز السلوك الصحيح والتثبت من صحة الأخبار واستعظام هذه المقالة وعدم إذاعة الفواحش،ويبين رحمة الله تعالى بالإمهال وقبول التوبة والتحذير من العودة إلى تلك المقالة. كما ينهى عن إشاعة الفواحش بين المؤمنين ويحث على العفو الجميل عن الأذى.

ويعرض الجزء الخامس تفسير الآيات (27 - 34)، فيبين سبب نزول هذه الآيات ومعاني الكلمات الغريبة والمعنى الإجمالي لها.

ويتحدث عن حكم الاستئذان عند دخول البيوت والاماكن غير المسكونة، وآداب الاختلاط والأمر بغض البصر، وحفظ الفروج وعدم إظهار الزينة لغير المحارم، ويحرص على تحصين أفراد المجتمع، وسترهم بالزواج الشرعي، ويحث على إعتاق العبيد وإكرامهم، ويحرم البغاء، ويأمر بالعفة والطهارة، ويذكر أوجه القراءات في الآية 34 ويستخلص أهم ما ترشد إليه الآيات.

وقد أوردنا في ثنايا هذه الوحدة تدريبات متعددة بقصد استثارة الدافعية للتعلم في أثناء قراءة الوحدة وهذه التدريبات ذات طبيعة متباينة، فبعضها موضوعي وبعضها عملي.

ويمكن لك، عزيزي الدارس، أن تجيب عن بعضها بالقراءة المتأنية للوحدة، وتطالبك تدريبات أخرى بالعودة إلى مصادر أخرى لا تجد الإجابة عنها في ثنايا الوحدة. وننصح لك بمناقشة الإجابات لهذه التدريبات مع مشرفك الأكاديمي.

وتجد في نهاية كل جزء من أجزاء الوحدة أسئلة التقويم الذاتي، ويمكنك الإجابة عنها من خلال قراءتك المتأنية للنص. وقدمنا في آخر الوحدة خلاصة موجزة لها، وإجابات لتدريباتها وقائمة بأهم مراجعها.

إن لهذه الوحدة أهمية كبيرة، فهي تتحدث عن معاني سورة النور، ومعاني وحقائق هذه السورة الكريمة مرتبطة ارتباطاً مباشراً بحياة الدارس العملية والاجتماعية، سواء منها ما يتعلق ببيان بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بالزنى وقذف المحصنات واللعان، أو المتعلق منها بالآداب العامة كالاستئذان ونحوه.

وتبنى على هذه الوحدة الوحدة التالية من هذا المقرر والمختصة بتفسير الآيات (25 - 36) من سورة النور وتقديم معانيها وحقائق مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياتك العملية والاجتماعية.

عزيزي الدارس، أهلاً بك مرة أخرى إلى هذه الوحدة، ونرجو أن تستمتع بدراستها، وأن تستفيد منها، وعند وجود أي استفسارات لا تتوان عن الاتصال بمشرفك الأكاديمي.

2.1 أهداف الوحدة

عزيزي الدارس: بعد الانتهاء من دراسة هذه الوحدة، وحل تدريباتها ينبغي أن تكون قادراً على أن:

1. تعرف سبب تسمية سورة النور، ومناسبة آياتها لما قبلها.
2. تعرف مقاصد السورة.
3. تحدد الألفاظ الغريبة، وتعرف معناها.
4. تعدد ثلاثة أحكام شرعية موجودة في الآيات (1 - 26).
5. تعرف بعض وجوه القراءات.
6. تعرف بعض مواطن البلاغة والإعجاز.
7. تبين أسلوب القرآن الواقعي في معالجة حادثة الإفك.
8. تظهر فضل زوجات الرسول ﷺ خاصة، ومكانة المرأة المسلمة عامة.
9. تعدد صفات المنافقين، والآثار السيئة المنبثقة من وجودهم بين المسلمين.
10. تستخلص العظات من هذه الآيات (2 - 34)، وتربط ما جاء فيها من أحداث بالواقع الحالي.
11. تحفظ هذه الآيات (1 - 34).

3.1 أقسام الوحدة

تتكون هذه الوحدة من مقدمة، ونص رئيس، وأجزاء ختامية، ويقسم النص الرئيس خمسة أقسام:

القسم الأول: بين يدي سورة النور.

القسم الثاني: تفسير الآيات (1 - 5) وحفظها.

القسم الثالث: تفسير الآيات (6 - 10) وحفظها.

القسم الرابع: تفسير الآيات (11 - 26) وحفظها.

القسم الخامس: تفسير الآيات (27 - 34) وحفظها.

وتحقق الهدفين الأول والثاني من دراسة: «بين يدي السورة». أما الهدف الثالث فتحققه من دروس السورة، في حين تحقق الهدف الرابع بدراستك الدرس الأول والثاني

والثالث من دروس الوحدة. وتنجز تحقيق الهدف الخامس من الدرسين الثاني والرابع. وتجد نفسك محققاً الهدف السادس باستيعابك الدرس الثاني استيعاباً جيداً. وتنجز الهدفين السابع والثامن من خلال الدرس الثالث. وفي فهم واستيعاب الدرس الرابع تنجز الهدف التاسع في حين تتكامل الأقسام جميعاً لتحقيق الهدفين العاشر والحادي عشر.



4.1 قراءات مساعدة

عزيزي الدارس: تدرك يقيناً أن ما يتضمنه النص الوارد في هذه الوحدة لا يتضمن تفاصيل هذه الأقسام الخمسة في كتب التفسير. والاطلاع على تفاصيل هذه المباحث يتطلب منك جهداً إضافياً. لذا ننصح لك بالدراسات الآتية:

1 - الأصفهاني. الراغب. أبو القاسم الحسين. مفردات القرآن. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. مصر (1381 هـ - 1961م).

2 - الألوسي. شهاب الدين محمود. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. بيروت. دار إحياء التراث العربي ج 18 /74 - 160.

3 - ابن العربي. أبو بكر محمد بن عبدالله المالكي. أحكام القرآن. ط 2. الناشر عيسى البابي الحلبي. القاهرة. 1387هـ. 1967م/ القسم الثالث/ 1312 - 1375.

4 - المراغي. أحمد مصطفى. تفسير المراغي. ط 2. مطبعة مصطفى البابي وأولاده. القاهرة. 1953م. 18 - 66 - 106.

5.1 وسائط مساندة

عزيزي الدارس. تحتاج في دراسة هذه الوحدة. وحل تدريباتها إلى ما يلي:

1. الحجة في القراءات السبع لابن خالويه: تحقيق وشرح الدكتور عبد العال سالم مكرم - دار الشروق - بيروت 1971م.

2. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. لمعرفة الآيات الكريمة وسورها.

3. أشرطة مسجلة للقرآن الكريم يقرؤه أحد القراء المشهورين مثل محمد رفعت. أو محمود الحصري.

6.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة

عزيزي الدارس، في ثنايا هذه الوحدة مجموعات من أسئلة التقويم الذاتي وردت في أعقاب كل قسم من أقسامها، والهدف منها تمكينك من الحكم على قدرتك في فهم المادة واستيعابها، كما عززت هذه الوحدة بعدد من التدريبات بهدف الإجابة عنها، ثم مقارنة إجاباتك بالإجابات الواردة لهذه التدريبات في آخر الوحدة.

وهنالك بعض النشاطات التي يؤمل منك القيام بها وتقديم المطلوب منها للجهة المعنية في الجامعة. وتحتاج إلى الإرادة والطموح، والأمل الباسم لمتابعة المسيرة، وفقك الله.

2. بين يدي سورة النور

1.2 سبب تسميتها، وصلتها بما قبلها

★ سبب تسميتها:

اختلف العلماء في تسمية السور: هل هي توقيفية تلقاها النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام، أم اجتهادية ؟

أظهرها أنها توقيفية، وممن قال بذلك السيوطي -رحمه الله تعالى- يقول: «وقد ثبت جميع السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار» (السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ج 1/52).

وسميت السورة بالنور: لتنويرها طريق الحياة الكريمة للناس بتشريع الأحكام وبيان الفضائل والآداب، ولتضمنها الآية وهي قوله تعالى: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(علموا رجالكم سورة المائدة، وعلموا نساءكم سورة النور) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد مرسلاً باب في تعظيم القرآن فصل في فضائل السور والآيات 2 / 469 رقم (2428).

★ صلتها بما قبلها:

لو تأملت في لطائف نظم سور القرآن الكريم؛ وفي بدائع ترتيبه لعلمت أن القرآن الكريم معجز بجودة سبكه، ونظم آياته، ولذا عد بعض العلماء أن معرفة الصلة التي وقعت بين آيات القرآن وسوره - وهو ما يعبر عنه بالمناسبة - في غاية الأهمية ؛ لأن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون مقطعاً، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء قال تعالى: «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» (هود/1).

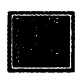
فالناظر في سورة النور والسورة التي قبلها «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» (المؤمنون/1) يرى أن الصلة بينهما جلية واضحة كأنهما سورة واحدة متسقة المعاني:

فقد ذكر الإمام البقاعي - رحمه الله تعالى - هذه الصلة: قال: «قال الإمام أبو جعفر ابن الزبير في برهانه: لما قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ» (المؤمنون/5)

ثم قال تعالى: «فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» (المؤمنون/7)

استدعى الكلام بيان حكم العادي في ذلك، ولم يبين فيها، فأوضحه في سورة النور فقال تعالى: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي» ... الآية. ثم أتبع ذلك بحكم اللعان والقذف وانجرّ مع ذلك

الإخبار بقصة الإفك تحذيراً للمؤمنين من زلل الألسنة رجماً بالغيب» (البقاعي، نظم الدرر في الآيات والسور (202 - 203)).



نشاط (1)

ارجع إلى تناسق الدرر في تناسب السور لجلال الدين السيوطي، وجواهر القرآن في تناسب سور القرآن لأبي الفضل عبدالله محمد الصديق الغماري الحسيني واستخرج منهما المناسبة بين السورتين، ناقش هذا النشاط مع مشرفك الأكاديمي.

2.2 مدنيتها، وترتيبها في النزول

1.2.2 مدنيتها

المشهور بين العلماء أنهم قسموا القرآن الكريم إلى مكي ومدني، مع اشتمال بعض السور المدنية على آيات مكية وبالعكس، إلاّ أن العبرة بالغالب، وقد لاحظوا في هذا التقسيم زمن النزول ؛ ليكون حاصراً لجميع أجزاء القرآن فما كان قبل الهجرة فهو المكي، وما كان بعدها فهو المدني.

وسورة النور أجمع العلماء على مدنيتها، نزلت السورة بعد غزوة بني المصطلق، أي في السنة الخامسة للهجرة كما رجح ذلك الأستاذ أبو الأعلى المودودي في تفسير سورة النور.

2.2.2 ترتيبها في النزول

عن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: نزلت بعد سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) وقد عدت هذه المئة في ترتيب سور القرآن الكريم (ابن عاشور 18 / 140).

3.2 أهداف السورة

عزيزي الدارس: عرفت أن سورة النور من السور التي حث رسول الله ﷺ على تعلمها، وما كان كذلك إلاّ لاشتمالها على مقاصد جمة رفيعة، وأهداف نبيلة، وليس بإمكاننا استيعاب تلك المقاصد، وإنما نشير إلى الخطوط الرئيسة الكبرى لتلك المقاصد التي لا غنى عنها لأي مجتمع يهدف إلى الطمأنينة، والاستقرار وتحقيق السعادة لأفراده في الدنيا والآخرة.

وإليك عزيزي الدارس أهم الأهداف التي تضمنتها هذه السورة الكريمة:

أولاً: بدأت هذه السورة بتقرير وجوب الطاعة، وتنفيذ ما جاء فيها من أحكام وآداب لتثبيت قواعد المجتمع.

* ثانياً: معالجة فاحشة الزنى بوضع حدٍ لمن يرتكبها، وعقوبة زاجرة تحمل النفوس على النفور منها والبعد عنها، واتخاذ أسباب الوقاية والحماية من الوقوع في تلك الرذيلة التي تفتت المجتمع، وتثير الفتن بين أفراده، فيقع الخصام ويدب الاختلاف.

* ثالثاً: المحافظة على الأعراض من خلال الآتي:

(1) بينت حكم الذين يرمون النساء العفيفات بالفاحشة، الذين يرمون أزواجهم بها من دون علم أو بينة، وفي ذلك إزالة للحرج، الذي وقع فيه بعض الناس، وبلسم شاف لجراح أولئك المعذبين عند وقوع هذه المصيبة.

(2) وضحت آداب الاستئذان السامية حفظاً للأعين عن النظر المحرم، وصيانة للحرمات بحفظها وللأعراض بسترها.

(3) وجوب غض البصر سواء للرجال والنساء لغير الأزواج لما في ذلك طهارة للنفس، وعدم إبداء الزينة لغير المحارم، خوفاً من الإفتتان.

(4) تعويد صبيان المؤمنين ومماليكهم الذين لم يبلغوا الحلم على الاستئذان في الدخول عليهم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وعند وقت الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء، فإن هذه الأوقات قد تكون المرأة أو الرجل فيها على وضع لا يصح الاطلاع عليه.

* رابعاً: فضح المرجفين والمنافقين الذين خاضوا في حرمة بيت الرسول - عليه الصلاة والسلام-، وتبرئة عائشة زوج الرسول - رضي الله عنها- مما ألصق بها من تهمة باطلة واهية.

* خامساً: ترغيب المؤمنين بالزواج من أهل الدين والصلاح دون أن يمنعهم من ذلك الفقر، وعلى الذين لم تتيسر لهم سبل الزواج أن يعتصموا بالعفاف وأن يصونوا أنفسهم عن الفواحش ويستمروا على ذلك، إلى أن يرزقهم الله القدرة عليه.

* سادساً: الحض على التثبت من صحة الأخبار ووجوب حسن الظن بعضها ببعض، عصمة لهم من الوقوع في الضلال، وصيانتهم من الاختلاف.

* سابعاً: التحذير من اتباع خطوات الشيطان والوقوع في حبائله، وقد ركزت الآيات الكريمة على التحذير من اتباع الشيطان حفظاً للمجتمع وصيانة له من الهلاك والبوار.

* ثامناً: الربط بما جاء من توجهات ربانية بمنزّل هذه الأحكام وهو الله تعالى، (الهادي من في السموات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون).

* تاسعاً: المقارنة بين المؤمنين القائمين على حدود الله والمنافقين الذين لا مبدأ لهم.

عاشراً: وعد الله تعالى المؤمنين النصر والاستخلاف في الأرض والتمكين في الدين وتبديل خوفهم أمناً.

أسئلة التقويم الذاتي (1)

(1) ما سبب تسمية سورة النور بهذا الاسم ؟ وما الدليل على ذلك ؟

(2) ما صلة سورة « النور » بما قبلها ؟

(3) ما ترتيب سورة النور في النزول ؟ أهي مكية أم مدنية ؟

(4) اذكر ثلاثة أهداف تضمنتها سورة النور.

(5) ما أهم القضايا التي عالجتها هذه السورة ؟ ولماذا ؟

(6) اذكر ثلاثة أحكام وثلاثة آداب اشتملت عليها هذه السورة الكريمة.

(7) لم حذرت آيات سورة النور من اتباع الشيطان ؟

(8) أجب بـ (لا) أو (نعم) على ما يأتي:

أ - تسمية السورة أمر اجتهادي.

ب - كان نزول سورة النور في أواخر السنة الثالثة.

جـ - بدأت سورة النور ببيان صفات المؤمنين.

د - ما حرصت عليه سورة النور ترغيب المؤمنين الزواج من أهل الدين.

3. الدرس الأول: الآيات (1 - 5) تفسيرها وحفظها

عزيزي الدارس: عرفت فيما سبق سبب تسمية سورة النور، وصلتها بما قبلها، وأنها مدنية بإجماع العلماء وقد ابتدأ نزولها في أواخر السنة الأولى للهجرة، أو أوائل السنة الثانية أيام كان المسلمون يتلاحقون للهجرة، وعرفت كذلك ترتيبها في النزول، ووقفت على أهم المقاصد والأهداف التي تضمنتها والتي لا غنى عنها لأي مجتمع يهدف إلى تحقيق السعادة لأفراده في الدنيا والآخرة.

والآن نأتي إلى التفسير التفصيلي لآياتها، وذكر الألفاظ الغريبة مع بيان معناها، ثم ذكر المعنى الإجمالي مع ما تدعو الحاجة في ذلك المعنى، ثم ذكر بعض المباحث التي تتعلق بما شرحناه من الآيات، وفيما يلي نقف مع آيات الدرس الأول وندعوك إلى تلاوة هذه الآيات، ثم حفظها قبل الشروع في تفسيرها.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (2) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

(النور/5-1)

1.3 معاني المفردات والمعنى الاجمالي

أ- معاني المفردات:

* السورة: تطلق على المنزلة الرفيعة مأخوذة من السورة بمعنى الرتبة. قال النابغة الذبياني:

«ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل فلك دونها يتذبذب »

والمراد بها: طائفة من الآيات متفاوتة العدد ذات فاتحة وخاتمة، وهما معلومتان شرعاً بالتوقيف.

* آيات: جمع آية وهي جزء من السورة لها مبدأ ونهاية منقطعة لفظاً عما قبلها وعما بعدها.

* الزنى: وطء الرجل المرأة في فرجها سواء أكان عن غير تراض بينهما أم عن تراضٍ بينهما من غير نكاح، ولا شبهة نكاح.

* فاجلدوا: من الجلد: وهو الضرب وسمي به؛ لأن فيه إصابة الجلد بالسوط ونحوه.

* الطائفة: الجماعة التي يحصل بهم التشهير والزجر.

* يرمون: من الرمي: وهو الإلقاء بحجر أو ما يشبهه.

والمراد به: الافتراء باتهام أعراض الناس بفاحشة الزنى.

* المحصنات: الإحصان لغة المنع.

والمراد: النساء العفيفات البعيدات عن كل ريبة وفاحشة.

* شهداء: جمع شهيد: وهو الذي يخبر عن شهادة وعلم وأمانة.

* التوبة: من تاب: بمعنى رجع.

والمراد بها: الرجوع إلى الله والفرار إليه من الإثم والمعصية إلى الطاعة والتقوى.



تدريب (1)

ارجع إلى القرآن الكريم واكتب أربع آيات قرآنية جاء فيها كلمة (آية) وبيّن معناها في كل موضع. يمكنك الاستعانة بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي.

ب- المعنى الإجمالي:

بينت الآيات الكريمة السابقة أهمية سورة النور، فقد افتتحت بافتتاح لم تشترك معها فيه سورة أخرى من سور الكتاب العزيز؛ ليسترعي انـــتباه المؤمن لها فينظر إلى ما

تضمنته من أحكام وتشريعات وآداب وأمثال؛ ليتذكروها ويعملوا بـها، ولذا جمع الله تعالى بـين الإنزال والفرضية فقال: «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا»، وأعـقب ذلك بتكرير «أَنْزَلْنَاهَا» مع اسـتلزام إنزال السورة لإنزالها: لإبراز كمال العناية بشأنها (أبوالسعود، إرشاد العقل السليم، 6/155).

ترى لم هذه العناية الخاصة بهذه السورة الكريمة ؟

عزيزي الدارس: بينا فيما سبق سبب هذه العناية، فقد وضعت للمجتمع الأسس السليمة والمنهج القويم الذي تقوم عليه الحياة الكريمة من الأخلاق الفاضلة والأحكام المهذبة للنفوس والإرشادات التي تنظم الحياة وتحقق الإخاء والمحبة والتعاون.

وجاءت الآيات الكريمة تفصل الأحكام التي أشار الله تعالى إليها في الآية الأولى ، ابتدأت ببيان حد الزاني والزانية، مقدمة الزانية على الزاني أولاً ثم قدم عليها ثانياً ؛ لأن زناها أفحش وأكثر عاراً، ولأنها هي الأصل في الفعل، وإلاّ بماذا تفسر خروجها على هذا الوضع المشاهد من التبرج والتزيين بشتى الوسائل المغرية من ملابس ضيقة ومساحيق وغيرها، أليس هو السبب في وقوع هذه الفاحشة ؟

فـ (المرأة هي المادة التي منها نشأت الجناية ؛ لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تمكنه، لم يطمع ولم يتمكن، فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بدئ بذكرها، وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لأنه هو الراغب والخاطب ومنه يبدأ الطلب) (الزمخشري، الكشاف، 3/50).

وجاءت الآيات الكريمة تبين الآتي:

أولاً: فرض حد الزنى بالجلد للبكر دون شفقة أو رحمة، فالواجب على المؤمنين أن يتصلبوا في دين الله تعالى ولا يأخذهم اللين والهوادة في استيفاء حدود الله تعالى.

وكفى برسول الله ﷺ أسوة في ذلك حيث قال: «إنما ضلّ من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (صحيح مسلم - كتاب الحدود - دار الفكر - بيروت 1978م (3 / 1315)).

فالإيمان بالله واليوم الآخر يقتضي الجد في إجراء أحكامه حتى لا تتعطل، كما يتعين عند وقوع العذاب بهما حضور طائفة من المؤمنين زيادة في التشهير بهما والفضيحة لهما.

ثانياً: تقبيح أمر الزناة أشد تقبيح، والتنفير من نكاح الزانية، تلمس ذلك - عزيزي الدارس- من أن الله تعالى ذكر هنا الزنى مع الشرك والشرك أعظم جريمة منه. قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» (النساء/48). فوصف الزانية

المشركة بوصف أشد من الزنى وهو الشرك.

وفي ذلك دلالة على أن هذه الفاحشة كبيرة من أمهات الكبائر ولهذا قرنها الله تعالى بالشرك وقتل النفس. قال تعالى: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ» (الفرقان/68).

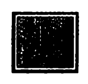
أما وقد عرفت - عزيزي الدارس - قبح هذه الفاحشة، فهل يليق بالزاني أن ينكح العفيفة المؤمنة ؟ وهل يليق بالزانية أن تنكح مؤمناً ؟ والحقيقة إنما يليق به (أن ينكح زانية هي في ذلك طبقة ليوافق شن طبقة، أو مشركة هي أسوأ منه حالاً، وأقبح أفعالاً) (الألوسي، روح المعاني، (18/ 85)).

وقد روي في سبب نزول «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً» عن عبد الله بن عمرو عن مرشد عن أبي مرشد الغنوي وكان رجلاً شديداً وكان يحمل الأسارى من مكة إلى المدينة قال: فدعوت رجلاً لأحمله، وكان بمكة بغيّ يقال لها عناق، وكانت صديقته، خرجت فرأت سوادى في ظل الحائط، فقالت من هذا، مرشد ؟ مرحباً وأهلاً يا مرشد، فبت عندنا في الرحل، قلت يا عناق، إن رسول الله ﷺ حرم الزنى ...

فجئت إلى رسول الله ﷺ، فقلت يا رسول الله ! أنكح عناق ؟ فسكت عني فنزلت «وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ» فدعاني فقرأها عليّ، وقال: لا تنكحها.

(صحيح سنن النسائي - الألباني - كتاب النكاح - باب تزويج الزانية - 2 / 680)

وما يدل على تفظيع نكاح الزانية على المؤمنين قوله تعالى «وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ». فظاهر النص يدل على التحريم وهذا ما ذهب إليه بعض العلماء إلاّ أن كثيراً منهم قالوا: إنّ التحريم (للتنزيه، وعبر عنه بلفظ حرم: للتغليظ والتنفير من الإقدام على زواج المؤمن من الزانية، أو على زواج المؤمنة من الزاني) (الطنطاوي، الوسيط، المجلد العاشر (18/19)).



نشاط (2)

ارجع إلى كتاب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ولخص ما جاء فيه من أقوال في معنى كلمة (حرّم) في قوله منها: «وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» مع ذكر أدلتهم.

ثالثاً: وتبين الآيات الكريمة حرص الإسلام على حماية أعراض المسلمين وصيانتهم من كل ما يخدش كرامتهم ويجرح عفافهم؛ لذا جاءت الآيات تنعى على الذين لا يتورعون عن قذف النساء العفيفات بالزنى، واتهامهن بهذا الجرم الفظيع. وقد يتبادر إلى ذهنك

- عزيزي الدارس - سؤال لم خص الله تعالى النساء بالذكر في قوله:
«وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ».

والحقيقة «لأن قذفهن أشنع والعار فيه أعظم، ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم بلا خلاف بين علماء هذه الأمة» (الشوكاني، فتح القدير، (4/7)).

فمن فعل ذلك ولم يحضر البينة الشرعية، وهي أربعة شهود يشهدون بصدق قوله، فإنه يستحق ما فرض الله عليه من العقوبة القاسية، وهي الجلد ثمانون جلدة وعدم قبول شهادته أبداً، والحكم عليه بالفسق لما في القدف من: تدنيس للعرض الذي هو أعز ما يملكه الإنسان، كما أن فيه إيذاء للنفس الطاهرة الشريفة، وطأطأة للرأس، وهدراً للكرامة، وغيرها من الآثار التي يترتب عليها أمراض اجتماعية مدمرة تؤدي إلى فساد المجتمع.

رابعاً: ومع الأحكام الزاجرة تبين الآيات الكريمة رحمة الله تعالى بالقاذفين حيث فتح لهم باب التوبة للعودة إلى طريق الهدى والصلاح.

وقد تسأل - عزيزي الدارس- ما شروط التوبة لقبولها ؟؟

ونقول هي أن يعلموا علماً يقيناً بجرم ذنبهم، وأن يقلعوا عنه بالكلية، ويندموا ندماً شديداً على فعله، ويعزموا عزماً أكيداً على عدم العودة إليه أبداً، وأن يكثروا من التفرغ إلى الله تعالى، ويصلحوا أحوالهم وأعمالهم، وأن يرجعوا عن قولهم بالاعتراف بأنهم أخطأوا في رميهم... وفي ذلك برهان واضح على رجوعهم عن معصية الله واستقامة حالهم، فإن الله تعالى يقبل التوبة منهم.

2.3 حكم الزنى والعقوبة التي تترتب عليه

عزيزي الدارس: تبين لنا مما سبق أن الزنى من أفحش الكبائر، لأنه جناية على الأعراض والأنساب، (ومن هنا جاء القرآن الكريم بتحريمه، وكان حده من أشد الحدود). ترى هل هذا الحد الوارد بالنص القرآني السابق، وهو جلد مائة يعم المحصن وغيره ؟

الحقيقة إن ظاهر النص يفيد أن هذا الجلد لكل من ارتكب الزنى سواء أكان محصناً أم غير محصن، إلاّ أن السنة الصحيحة خصصته بغير المحصن من الرجال والنساء، وأما المحصن فحده الرجم بالحجارة حتى الموت إذا كان بالغاً عاقلاً حراً قد جامع في عمره ولو مرة واحدة في

نكاح صحيح، والرجل والمرأة في ذلك سواء.

والرجم ثابت بآية من كتاب الله تعالى أنزلت على رسول الله ﷺ، وقرأها الصحابة ووعوها وعقلوها، جاء في صحيح البخاري:

«إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد اية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف». (صحيح البخاري ومعه فتح الباري- طبعة دار الفكر، رقم كتبه وأبوابه محمد فؤاد عبد الباقي (144/12 رقم 6830)).

و «عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن رجلاً من أسلم أتى رسول الله ﷺ فحدثه أنه قد زنى، فشهد على نفسه أربع شهادات، فأمر به رسول الله ﷺ فرجم، وكان قد أحصن». وقد رجم ماعز والغامدية. (صحيح البخاري (12 / 117 - رقم 6814)).

وعن سلمة بن كهيل قال سمعت الشعبي يحدث «عن علي رضي الله عنه حين رجم امرأة يوم الجمعة وقال: قد رجمتها بسنة رسول الله ﷺ». (صحيح البخاري 12/117 رقم 6812).

وقد تسأل - عزيزي الدارس - متى يثبت الزنى ؟ وما العقوبة التي تترتب عليه ؟

أجمع العلماء على أن الزنى يثبت بالإقرار الصريح، أو بشهود أربعة من المسلمين الذكور العدول الأحرار، واصفين الفاحشة وصفاً صريحاً، فعندها يجب المبادرة إلى تنفيذ حد الله في الزناة وإيقاع العقوبة بهم وهي:

أولاً: رجم المحصن بالحجارة حتى الموت كما أشرنا إليه غير بعيد.

أما غير المحصن فقد بينت الآيات الكريمة بأن يجلد مائة جلدة ويغرب عاماً عند جمهور العلماء إذا كان بالغاً حراً على أن لا يضرب الوجه والفرج والرأس، وصفة الجلد والرجم وغيرها من المسائل المتعلقة بحكم الزنى من أراد استقصاء آراء العلماء فيها، فليرجع إلى كتب فروع المذاهب، تلك عقوبة الزنى في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

ثانياً: النهي عن الرأفة بالزاني والزانية، فالغلظة معهما من مقتضيات الإيمان، حتى لا تتعطل حدود الله.

ثالثاً: ومن العقوبة التي تلحق الزاني والزانية العذاب النفسي عن طريق التشهير بهما، والفضيحة لهما بشهود طائفة من المؤمنين التي تختلف قلة وكثرة بحسب اختلاف الأماكن والأشخاص «ليكون زيادة في التنكيل بمن يرتكب هذه الفاحشة وأدعى إلى الاعتبار والاتعاظ وأزجر بمن تسول له نفسه الإقدام على تلك الجريمة النكراء» (طنطاوي، الوسيط، (10/14)).

3\3 حكم قذف المحصنات

عرفت - عزيزي الدارس - عظم جرم القذف بالزنى والتغليظ في أمره لما فيه من تعدي المعرة إلى الأهل والنسل وإشاعة البغضاء والفحشاء في المجتمع.

فمن قذف غيره بالزنى كقوله لرجل أو امرأة بلفظ صريح: يا زاني يا زانية، فعليه حد القذف للمقذوف إذا تحققت الشروط الآتية: منها ما يتعلق بالقاذف وهو أن يكون بالغاً، عاقلاً مختاراً.

ومنها ما يتعلق بالمقذوف وهو أن يكون مسلماً بالغاً عاقلاً حراً عفيفاً بعيداً عن كل ريبة.

مضافاً إلى الشروط المتقدمة عدم الإتيان بأربعة شهداء يشهدون على صحة دعواهم، ولم يقر المقذوف بالتهمة فقد عاقبهم الله تعالى بعقوبات عدة منها:

الأولى: الجلد ثمانون جلدة.

الثانية: عدم قبول شهادتهم فيصبحون في المجتمع أشبه ما يكونون بالمنبوذين الذين إذا تكلموا لا يصدق الناس قولهم، وإن شهدوا لا تقبل شهادتهم لانتزاع الثقة منهم.

الثالثة: وصفهم بالفسق أي الخروج عن طاعة الله تعالى.

الرابعة: طردهم من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، والعذاب العظيم الذي ينتظرهم في الآخرة.

وهنا قد يتبادر إلى ذهنك - عزيزي الدارس - سؤال عن الاستثناء في قوله تعالى «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» على من يعود ؟

اتفق العلماء على أنه يعود على صفة الفسق أي تزول عنه بعد ثبوت توبته.

واتفقوا كذلك أنه لا يعود على عقوبة الجلد فهي ثابتة، ولو تاب واختلفوا في قبول الشهادة، والذي يطمئن إليه القلب وينشرح إليه الصدر، عزيزي الدارس، ما ذهب إليه جمهور العلماء «أن الأولى في هذه الحالة أن تقبل شهادته بعد التوبة التي صاحبها اعتراف منه بكذبه فيما قال، لأن إقدامه على تكذيب نفسه قرينة على صدق توبته وصلاح حاله» (سيد طنطاوي، (18/23)).



نشاط (3)

ارجع إلى الآيات السابقة ولخص آراء العلماء في عمل الاستثناء «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» في الشهادة وكذلك آراءهم في صورة توبة القاذف.
ويمكنك الاستعانة بـ (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي - رحمه الله تعالى-.

4.3 ما ترشد إليه الآيات

ترشدنا الآيات الكريمة إلى أمور منها:

1- المؤمنون يحذرون الزنى والزواج بمن يرتكبه.
2- عدم الشفاعة في الحدود ؛ لأن في ذلك تعطيلاً لشرع الله تعالى.
3- الإسلام يحرص على حماية أعراض المسلمين بتشريعاته الحكيمة التي يؤدي تنفيذها إلى السعادة في الدنيا والآخرة.
4- الحرص على نشر العفاف والطهر وعدم قذف المحصنات الغافلات من علامات الإيمان.
5- فتح باب التوبة النصوح للمذنبين دليل على رحمة الله تعالى بعباده.

?

أسئلة التقويم الذاتي (2)

1. وضح معاني المفردات الآتية: السورة، الآية، الإحصان.
2. ما المقصود بالجلد ؟ ولم سمي بذلك ؟
3. لم افتتحت سورة النور بافتتاح لم تشترك معها فيه سورة أخرى ؟
4. ما سر تقديم الزانية في الآيات الكريمة على الزاني أولاً، ثم تقديمه عليها ثانياً ؟
5. اذكر الآية التي تدل على تقبيح أمر الزناة، والتنفير من نكاح الزانية، واشرحها باختصار.
6. لم خص الله تعالى النساء بالذكر في قوله: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ» ؟
7. ما شروط قبول التوبة ؟
8. متى يثبت الزنى ؟ وما العقوبة التي تترتب عليه ؟
9. لماذا كانت جريمة القذف كبيرة ؟
10. ما حكم قذف المحصنات الغافلات ؟ وما شروط حد القذف ؟ وما العقوبة التي تلحق القاذف بغير حق ؟
11. اذكر سبب نزول قوله تعالى «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ...» ؟
12. اذكر فائدتين ترشد إليهما الآيات الكريمة ؟
13. أجب بـ (نعم) أو (لا) عمّا يلي:

(1) الذي يطمئن إليه أن التحريم في قوله «وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» المقصود منه التغليظ والتنفير.

(2) اتفق العلماء على زوال صفة الفسق عن القاذف إذا تاب ورجع إلى الله.

(3) المقصود بالمحصنات في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ» النساء فقط؛ لأن قذفهن أشنع.

(4) الحدود عقوبات مقدرة يجب تنفيذها إذا اقتضى ما يوجبها دون شفقة أو رحمة، ولا يجوز الشفاعة فيها.

4. الدرس الثاني: الآيات (6 - 10) تفسيرها وحفظها

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10)

(النور/10-6)

4.1 سبب نزول آيات الملاعنة

عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء. فقال النبي ﷺ: البينة أو حَدّ في ظهرك. فقال: يا رسول الله. إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي ﷺ يقول البينة وإلاّ حد في ظهرك. فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق. فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد. فنزل جبريل وأنزل عليه «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ» فقرأ حتى بلغ «إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ». فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها. فجاء هلال فشهد. والنبي ﷺ يقول: إن الله يعلم أن أحدكم كاذب. فهل منكما تائب ؟ ثم قامت فشهدت. فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع. ثم قالت: «لا أفضح قومي سائر اليوم. فمضت» (صحيح البخاري (8 / 449 رقم 4747)).

وفي رواية عن سهل بن سعد «أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ. فقال: يا رسول الله. أرأيت رجلاً رأى مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه. أم كيف يفعل ؟ فأنزل الله فيهما ما ذكر في القرآن من التلاعن. فقال له رسول الله ﷺ: قد قضى فيك وفي امرأتك. قال فتلاعنا - وأنا شاهد عند رسول الله ﷺ - ففارقها. فكانت سنة أن يفرق بين المتلاعنين» (صحيح البخاري (8 / 448 رقم 4746)).

2.4 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات

* اللعان: اللعن: الطرد والإبعاد.

والمراد به: كلمات معلومة جعلت حجة للمضطر إلى قذف من ألحق العار به ولطخ فراشه.

* غضب الله عليها: الغضب هو إنزال العذاب.

* يدرأ عنها العذاب: الدرء الدفع. والعذاب: الحد.

والمعنى: أي يرفع عنها الحد الذي شرعه الله.

ب- المعنى الإجمالي

تبين الآيات الكريمة جانباً من فضل الله تعالى على خلقه بما شرعه من أحكام، إذ لولا ذلك لحصل مالا يطاق، ولوقع الأزواج في المهالك والتيه والعداوة والفضيحة.

ترى - عزيزي الدارس - هل ينتظر الزوج هتك عرضه حتى يحضر أربعة شهود، ويكون الزناة قد قضوا حاجتهم ؟ وهل يصبر على هذا ؟ وإذا قذف زوجته يجلد ثمانين جلدة وإن سكت يسكت على ألم...

ثم إذا كان صادقاً، فكيف يصبر مع امرأته وهو يرى أنها زانية ؟...

إن الله تعالى قد استثنى الأزواج من الحكم العام للقاذفين فجعل لهم باب النجاة من هذه المشكلة بما شرع لهم من حكم اللعان ليجد الزوجان بعد فراقهما - فرقة أبدية - طريقهما لحياة جديدة بعيدة عن آلام النفس والقلق والحيرة والشك.

وقد تسأل - عزيزي الدارس - لماذا كان حكم قذف الزوجة مخالفاً لحكم قذف الأجنبية؟

«لأن زنى الزوجة يلحق به العار، وفساد النسب، فلا يمكن الصبر عليه ومن العسير عليه أن يجد البينة، وأيضاً فإن الغالب من الرجل أنه لا يقذف زوجته إلاّ عن حقيقة لما فيه من إيذاء له وإساءة لسمعته» (سيد طنطاوي (18/ 28) بتصرف). فجاءت الآيات الكريمة تبين كيفية اللعان بين الزوجين فبدأت بالزوج فيشهد أربع شهادات بالله تدل أنه صادق ثم يشهد الخامسة بأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين وسنبين ذلك قريباً.

وبالصورة المقابلة تعرض لنا الآيات الكريمة ما يجب على المرأة لكي تبرئ نفسها مما رماها به زوجها، لكي تدفع عنها العذاب، إذا شهدت أربع شهادات أن زوجها كاذب ثم تشهد

بالخامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها من الصادقين فيما اتهمها به.

وقد تسأل - عزيزي الدارس - لم خص الغضب بالمرأة واللعن بالرجل؟

ليكون «تغليظاً عليها لأنها هي أصل الفجور ومنبعه بإطماعها» (الزمخشري، الكشاف (3 - 52)). ولأنها كثيراً ما تستعمل اللعن في العادة فربما تجرؤ على التفوه به لسقوط وقعه في قلبها، بخلاف غضبه تعالى.

ثم جاء ختام الآيات ببيان فضل الله تعالى على عباده بسبب ما شرعه لهم من هذه الأحكام تخفيفاً على الأزواج وحضاً لهم على التوبة الصادق النصوح.

3.4 حكم اللعان ورأي الفقهاء فيه، أهو شهادة أم يمين ؟

عرفت فيما سبق أن الآيات الكريمة نزلت لتخصيص الحكم الشرعي في القذف بين الزوجين، وأن الرجل إذا اتهم زوجته وعجز عن الإتيان بالدليل يصير إلى الملاعنة خلاف من قذف أجنبية محصنة، فيقام عليه الحد إذا لم يأت بالبينة. وبيان ذلك:

إذا قذف الرجل المكلف زوجته المحصنة بالزنى صريحاً بأن يقول لها زنيت، فعليه حد القذف إلاّ أن يقيم البينة بزناها فيسقط عنه الحد؛ لأن النبي ﷺ قال لهلال بن أمية حين قذف زوجته بشريك بن سحماء البينة أو حدّ في ظهرك.

أو يلاعن لدفع الحد، وكيفية اللعان بين الزوجين أن يبدأ بالزوج فيقول عند الحاكم بحضور عدول من أعيان الناس وصلحائهم: أشهد بالله أنني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانة من الزنى، ويكرر ذلك أربع مرات لتأكيد الأمر لأنها أقيمت مقام أربعة شهود من غيره، ليقام عليها الحد ويوقف ويذكر بالآخرة كما قال ﷺ: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل من تائب ؟ ويقال له: اتق الله تعالى فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، ثم يشهد الخامسة وعليّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنى.

ويتعلق بلعانه أحكام منها:

1) سقوط الحد ووجوب الحد على زوجته ونفي انتساب الولد وتحريمها عليه إلى الأبد.

فقد ورد في الأخبار الصحيحة أن رسول الله ﷺ (فرق بين المتلاعنين وألحق الولد بالمرأة) (صحيح سنن أبي داود بنحوه - باب اللعان - رقم (1978) (2 / 426)).

وقال ﷺ:

(المتلاعنان لا يجتمعان أبداً) (صحيح سنن أبي داود رقم 1969 / (2/424)).

ويسقط حد الزنا الذي وجب على الزوجة بأن تلاعن بعد تمام لعانه فتقول: أشهد بالله

أن فلاناً هذا أي زوجها لمن الكاذبين فيما رماني به من الزّنى أربع مرات. وتقول في المرة الخامسة بعد أن توعظ وتحذر من الكذب وخطره، وأن عذاب الدنيا أخف من عذاب الآخرة. وعليّ غضب الله تعالى إن كان من الصادقين فيما رماني به من الزّنى.

عزيزي الدارس: أما وقد عرفت متى يجب اللعان، وكيفيته، وما الذي يترتب عليه، هنا قد يتبادر إلى ذهنك هذا السؤال:

هل شهادات اللعان الواردة في الآيات الكريمة هي شهادات أو أيمان ؟

والحقيقة أن العلماء اختلفوا في ذلك على أقوال عدة أشهرها قولان:

القــــول الأول: أنها شهادات.

القول الثاني: أنها أيمان مؤكدة بلفظ الشهادة.

وأظهر القولين ما ذهب إليه جمهور العلماء: إنها أيمان مؤكدة بالشهادة للأدلة الآتية:

(1) أن لفظ الشهادة قد يطلق ويراد به اليمين، قال تعالى: «فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا» (المائدة/107).

ثم بين أن المراد بتلك الشهادة اليمين في قوله تعالى: «ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ» (المائدة/108).

فقوله: «أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ» دليل صريح على أن المراد بلفظ الشهادة في الآية اليمين.

(2) قال تعالى: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ» (المنافقون/1).

«اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً» (المنافقون/2) فسمى الشهادة يميناً.

(3) التصريح بصيغة اليمين في قوله «فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» لأن لفظة (بالله) يمين، فدل قوله: (بالله) على أن المراد بالشهادة اليمين للتصريح بنص اليمين، فقوله: (أشهد بالله) في معنى: أقسم بالله.

(4) واستدلوا بما ورد في بعض روايات أنه ﷺ قال لما جاءت الملاعنة بالولد شبيهاً بالذي قذفت به: (لولا الأيمان لكان لي ولها شأن).

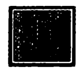
وثمرة الخلاف فيمن تصح ملاعنته أن الذين قالوا أنها أيمان: لم يشترطوا من يحلف، إذ يحلف كل أحد ذي أهلية أو ساقط الأهلية.

أما من قالوا أنها شهادة مؤكدة بأيمان: قالوا: وجب ألا يلاعن إلا من تجوز شهادته أي المسلم البالغ العاقل، وأما الفاسق أو ساقط الأهلية فلا (الألوسي، روح المعاني 18 / 107، والقرطبي،

الجامع لأحكام القرآن 12 / 187).

ولكي تتطلع - عزيزي الدارس - على خلاف العلماء ، وأدلتهم في تلك القضية هل اللعان يمين أو شهادة.

بادر إلى حل النشاط التالي:



نشاط(4)

ارجع إلى الكتب الآتية، ولخص الصفحات المتعلقة بتلك القضية:
(1) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن للشيخ محمد علي الصابوني، ط(2) دمشق 1981م/ (2 / 85، 86).
(2) أضواء البيان للشنقيطي (6 / 134 - 138).
(3) أحكام القرآن لكيا الهراسي - دار الكتب العلمية - بيروت 1983م - (4/ 303).

4.4 القراءات في الآية السادسة

قبل أن نبين لك - عزيزي الدارس - القراءات الواردة في الآية السادسة من الآيات السابقة، لا بد من أن نبين لك باختصار أن معرفة القراءات الصحيحة وأنواعها وطرق توجيهها من الأمور الضرورية التي لا غنى عنها لطالب التفسير.

لذا نرى كثيراً من كتب التفسير اعتنت بذكرها لأهميتها في توضيح المعاني التي تتعلق باختلافها، وبالإضافة إلى ما تقدم فإن قراءة القرآن الكريم لا تتحقق على الوجه الأكمل إلاّ بمعرفة كيفية النطق بالألفاظ والوقوف على أداء الكلمات القرآنية.

وإليك، عزيزي الدارس، توضيح القراءات الواردة في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ».

قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف «أربعُ» برفع العين على أنه خبر المبتدأ وهو «شهادة أحدهم».

والمعنى: فشهادة أحدهم المعتبرة لدرء الحد عنه أربع شهادات بالله... الخ.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر (أربعَ): بنصب العين على أنه مفعول مطلق وناصبه قوله (فشهادة أحدهم) وحينئذ فشهادة مبتدأ. والخبر محذوف. والتقدير فشهادة

أحدهم أربع شهادات بالله واجبة، أو منصوب بفعل مضمر، والمعنى: فعليه أن يشهد أحدهم أربع شهادات (محيسن، المستنير في تخريج القراءات المتواترة (ج 2 / 121)).

تدريب (2)

ارجع إلى كتاب حجة القراءات لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، واستخرج منه ثلاث آيات قرآنية، وبيّن ما ذكره من قراءات وردت فيها.

5.4 مواطن البلاغة والإعجاز في الآية العاشرة

قد تسأل - عزيزي الدارس - ما أهمية معرفة مواطن البلاغة والإعجاز في نصوص كتاب الله تعالى ؟ وما وجه الحاجة إليها ؟ والحقيقة أن لهذه العلوم الفضل الأول في بيان أسرار اللغة والكشف عن كنوزها والبحث عن نفائسها، وفي معرفة ما لها من ميزة السبق على سائر اللغات حتى نزل بها القرآن الكريم.

وكذلك لها الفضل الأول في الكشف عن أسرار إعجاز القرآن بما حواه من روعة الأسلوب وبارع اللفظ حتى وقف فرسان اللغة العربية وأئمة القول أمامه واجمين وخرّ له عباقرة البيان ساجدين.

أما وقد عرفنا أهمية المعرفة المتعلقة بمواطن البلاغة في القرآن الكريم، فإننا نستعرض معاً - عزيزي الدارس - بعض تلك المواطن التي تضمنتها الآية الكريمة «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ» (النور/10).

(1) ما نجده في بدائع القرآن الكريم وهو الالتفات الذي ينقل الكلام من أسلوب إلى آخر كنقله من المتكلم، أو الخطاب، أو الغيبة إلى آخر، الحكم منها (صيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسآمة من الاستمرار على منوال واحد).

فالآية الكريمة جاءت بأسلوب الالتفات حيث كان الخطاب بصيغة الغائب «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ» ثم التفت اليهم الخطاب إلى الرامين والمرميات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان حقه وبيان فضل الله على المؤمنين بتشريع هذه الأحكام برفع الحرج عنهم، فأباح لهم أن يثبتوا قولهم بشهادتهم أربع مرات على ما سبق بيانه.

(2) التذييل وهو: تعقيب الجملة بجملة أخرى متفقة معها في المعنى تأكيداً للجملة الأولى،

وقد عده علماء البلاغة غرضاً مهماً من الأغراض التي يفيدها الإطناب الذي هو زيادة اللفظ على المعنى لتحقيق فائدة.

تأمل - عزيزي الدارس - الآية التي نحن بصدد الحديث عنها، فقد جاءت تأكيداً لمفهوم ما تقدم (من الأحكام العظيمة المشتملة على التفضيل من الله والرحمة منه، والمؤذنة بأنه تواب على من تاب من عباده، والمنبه بكمال حكمته تعالى إذ وضع الشدة موضعها، والرفق موضعه وكف بعض الناس عن بعض، فلما دخلت تلك الأحكام تحت كل هذه الصفات كان ذكر الصفات تذييلاً). (التحرير والتنوير (18/168)).

(3) ومن تلك المواطن التي تضمنتها هذه الآية حرف (لولا) حذف جوابها، حيث لا توجد عبارة تحيط ببيانه ولتذهب فيه النفس كل مذهب.

فكأنه قيل: «لولا فضل الله عليكم فدفع عنكم أذى بعضكم عن بعض بما شرع من الزواجر لتكالب بعضكم على بعض، ولولا رحمة الله بكم فقدر لكم تخفيضاً ما شرع من الزواجر في حالة الاضطرار والعذر لما استطاع أحد أن يسكت على ما يرى من مثار الغيرة، فإذا أباح بذلك أخذ بعقاب، وإذا انتصف لنفسه أهلك بعضاً أو سكت على مالا على مثله يغضى، ولولا أن الله تواب حكيم ما رد على من تاب فأصلح ما سلبه منه من العدالة وقبول الشهادة» (التحرير والتنوير (168/169)).

6.4 ما ترشد إليه الآيات

ترشدنا الآيات الكريمة إلى أمور منها:

(1) عناية الله تعالى بعباده بما شرع لهم من أحكام تتجلى فيها الرحمة والعدالة والعودة إليه سبحانه.

(2) نظرة الإسلام إلى المرأة بإعطائها الحق في الدفاع عن نفسها وعرضها بأيمان خمسة تعيد إليها كرامتها وشرفها.

(3) تأكيد الإسلام وحرصه على صيانة النسب وحفظه.

(4) إزالة الحرج عن الزوج بما شرعه الله تعالى له من الملاعنة لاستحالة إحضاره أربعة شهداء.

أسئلة التقويم الذاتي (3)

1. ما سبب نزول آيات الملاعنة ؟
2. ما المراد باللعان ؟ وما معنى: «وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ» ؟
3. لم كان حكم قذف الزوجة مخالفاً لحكم قذف الأجنبية ؟
4. لم خصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله ؟
5. ما حكم اللعان ؟ ومتى يجب ؟
6. اذكر حكمين من الأحكام المتعلقة باللعان.
7. اذكر دليلين يبينان أن الشهادات أيمان مؤكدة بالشهادة.
8. وضح القراءات الواردة في قوله تعالى: «فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ» وبيّن معنى النص القرآني على ضوء كل قراءة.
9. اذكر موضعاً بلاغياً تضمنته الآية القرآنية:

«وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ».

10. أجب بـ (نعم) أو (لا) على ما يأتي:

(1) الغضب في قوله تعالى: «غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا» ما ألزمها الله به من الملاعنة.

(2) الشهادة الخامسة عند ملاعنة المرأة زوجها هي أن لعنة الله عليها إن كانت من الكاذبين.

(3) يقام الحد على الزوج إذا اتهم زوجته بالزنى صريحاً، ولو لم يقم البينة.

(4) القول المختار عند العلماء أن شهادات اللعان أيمان مؤكدة.

(5) اعتنى المفسرون بذكر القراءات لما لها من أهمية في إبراز المعاني.

(6) من القراءات المشهورة في قوله تعالى: «فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعَ» بكسر العين.

5. الدرس الثالث: الآيات (11 - 26) تفسيرها وحفظها

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (20) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (22) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (26)

(النور/26-11)

15) سبب نزول آيات الإفك

جاء في صحيح البخاري وغيره من حديث عائشة أنها قالت: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه. فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي، فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودج وأنزل فيه. فسرنا حتى إذا أفرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه.

فأقبل الذين يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، وإنما يأكلن العُلْقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منزلهم وليس فيه أحد، فأقمت في منزلي الذي كنت به فظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة غالبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ يدها فركبتها، وانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك.

وكان الذي تولّى الإفك، عبدالله بن أبيّ سلول. فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، ويريبني في وجعي أني لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، إنما يدخل فيسلم ثم يقول: كيف تيكم ؟ لا أشعر بشيء من ذلك حتى نقهت، فخرجت أنا وأم مسطح قِبَل المناصع (متبرّزنا)، لا نخرج إلاّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في البرية أو في المتنزه. فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي، فعثرت في مِرطها فقالت:

تعس مسطح. فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت: يا هنتاه، ألم تسمعي ما قالوا ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي. فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله ﷺ فسلم فقال: كيف تيكم ؟ فقلت: ائذن لي إلى أبوي - قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فأتيت أبوي، فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس ؟ فقالت: يا بنية، هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلاّ أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله، ولقد يتحدث الناس

بهذا ؟ قالت: فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. ثم أصبحت. فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله. فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم. فقال أسامة: أهلك يا رسول الله ولا نعلم والله إلاّ خيراً. وأما عليّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك. والنساء سواها كثير. وسل الجارية تصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: يا بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟ فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق. إن رأيت منها أمراً أغمصه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبدالله بن أبي سلول. فقال رسول الله ﷺ: من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي. فوالله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً. وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً. وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي. فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله. والله أنا أعذرك منه. إن كان من الأوس ضربنا عنقه. وإن كان من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج - وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً. ولكن احتملته الحمية - فقال: كذبت لعمر الله. والله لنقتلنه. إنّك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيانِ الأوس والخزرج حتى هموا. ورسول الله ﷺ على المنبر. فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت. وبكيت يومي لا يرقأ لي دمعٌ. ولا اكتحل بنوم. فأصبح عند أبَوَيّ وقد بكيت ليلتي ويوماً حتى أظن أن البكاء فالقٌ كبدي. قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي. فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل فيّ ما قيل مثلها. وقد مكث شهراً لا يوصي إليه في شأني شيء. قالت: فتشهد ثم قال: يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله. وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه. فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه. فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة. وقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ. وقال: والله لا أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال. قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. قالت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن. فقلت إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر في أنفسكم وصدقتم به. وإن قلت لكم أني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقونني بذلك. ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني بريئة - لتصدقني. والله ما أجد لي مثلاً إلاّ أبا يوسف إذ قال: (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون). ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله. ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني شيئاً. ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم القرآن في أمري. ولكني كنت أرجو أن يرى

رسول الله ﷺ في النوم رؤيا تبرئني، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحي، فأخذه ما يأخذه من البرحاء، حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شاتٍ. فلما سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة احمدي الله، فقد برأك الله. قالت لي أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ. فقلت: لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلاّ الله. فأنزل الله تعالى (النور/11): «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ»...الآيات. (صحيح البخاري (5 / 270، 271، 272)).

وقد آثرنا أن ننقل سبب النزول برمته على طوله لكيلا نذهب بتصرفنا فيه الحكم الجليلة والفوائد العظيمة التي تؤخذ منه.

2.5 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات:

* الإفك: أسوأ الكذب وأقبحه وهو الافتراء.
* عصبة: جماعة من أربعة فما فوق.

وأصلها في اللغة: الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض: من العصب وهو الشد، لأن كل واحد منهم يشد الآخر ويؤازره.

* كبره: بكسر الكاف، وضمها. وهو معظم الشيء.
* أفضتم: من الإفاضة، وهو الغوص في الحديث والتواضع فيه.
* تلقونه: تلقي الشيء: استقباله والتهيؤ لأخذه، والمعنى: يأخذه بعضهم من بعض.
* هينا: سهلاً، لا مؤاخذة فيه.
* بهتان: كذب مختلق يحير المرمي به ويدهشه لشناعته.
* تشيع الفاحشة: تشيع: تفشو وتظهر، والفاحشة: الفعل القبيح المفرط في القبح.
* خطوات الشيطان: طرقه ووساوسه.
* السعة: الغنى والثراء.
* ولا يأتل: من الإلية: وهي اليمين.
* لعنوا: من اللعن: وهو الطرد من الرحمة.
* دينهم: جزاءهم.
* مبرءون: منزهون.

ب- المعنى الإجمالي:

عرفت - عزيزي الدارس - من حديث الإفك المشهور ما أصاب الرسول ﷺ وزوجته عائشة رضي الله عنها من محنة كبيرة، ومجيء الآيات الكريمة السابقة تبين أن الذين أذاعوا الأراجيف بمكرٍ ودهاء، ونشروا الأقاويل الكاذبة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها جماعة صغيرة وفي مقدمتهم عبدالله بن أبي سلول لعنه الله.

... ترى - عزيزي الدارس - هل ما حل بالمؤمنين من مصيبة شر لهم؟ تبين الآية الكريمة أن ما أصيبوا به كان خيراً كبيراً لهم، كيف لا والله تعالى يقول:

«وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» (البقرة/216).

وقد وضح الزمخشري - رحمه الله - هذا الخبر بقوله:

(ومعنى كونه خيراً لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم، لأنه كان بلاء ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية، كل واحدة منها مستقلة، بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك، وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها) (الكشاف 3/53، بتصرف).

ولكي تتعرف - عزيزي الدارس - على بعض الحكم والدروس التي تترتب على حادثة الإفك بادر إلى حل التدريب التالي.



تدريب (3)

ارجع إلى كتاب د. محمد محمد أبو شهبة (السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة) ولخص الصفحات (208 - 209 - 210) المتعلقة بالعظات والعبر والأخلاق السامية التي استخلصت من قصة الإفك.

وفي الصورة المقابلة جاءت الآيات تفضح حقيقة المنافقين وتظهر ما يضمرونه من سوء لرسول الله ﷺ، وصحبه الكرام، وما تكنه صدورهم من حقد عليهم حسداً على ما أكرمهم الله تعالى من الهداية إلى دين الحق، وتبين أنهم أهل مكر وخيانة، غلبت عليهم الأثرة وحب المادة ولؤم الطبع، هذه الفئة جديرة بخزي الله تعالى لها جزاء أعمالها الباطلة، وأولئك هم أصحاب النار يعذبون فيها جزاء إنكارهم للحق وبعدهم عن الصواب.

كما بينت الآيات الكريمة الأمور الآتية:

(1) الطريق الأمثل الذي يجب على المؤمنين أن يسلكوه لمحاربة الإشاعات الكاذبة، هو الظن بإخوانهم ظناً حسناً، وتنزيه ألسنتهم عن الأحاديث الباطلة وكتمانها حتى تموت في مهدها، وزجر من يتفوه بها.

(2) فضل الله تعالى على المؤمنين ورعايته وتوفيقه لهم، ومن مظاهر ذلك عدم تعذيبهم فيما أفاضوا فيه من حديث الإفك، وعدم إيقاعهم في المهالك، وتطهيرهم من المعاصي والآثام.في الوقت الذي تلقفته ألسنتهم يقولون ذلك بملء أفواههم غير مقدرين له خطراً، وليس له في قلوبهم حجة ويحسبونه سهلاً لا جرم فيه وهو عند الله عظيم .

(3) مخاطبة العقول والقلوب ؛ ليستأصل من أعماقها جذور هذا الخلق الذميم.

(4) التحذير من الشيطان ووساوسه، ووضع الحواجز أمام مخططاته الخبيثة، التي هي من مهمات وسائل الإعلام المختلفة والمؤسسات التربوية المتعددة، فيجب عليها جميعاً أن تحرص على غرس القيم الإسلامية في نفوس أبناء الأمة الإسلامية، وتحصينهم ضد الأخلاق الفاسدة، وتتعاون على سد أبواب الشيطان وإغلاق طرقه.

(والشيطان يوسوس للنفوس الضعيفة ويزين لها الوقوع في المعاصي عن طريق التدرج خطوة فخطوة حتى يتم له ما يريد، وإن خطوات الشيطان تكون فيما يحقر من الأعمال ولكنها تجر إلى المهالك).

عزيزي الدارس: (أبعد هذا يتوانى المسلمون في فهم الحقائق البشرية، وتطبيق قواعد الدين؟! ومن العجب أن ينادي بعض المسلمين بالاختلاط بين الجنسين، ويجره الشيطان إلى هذا بحجة أن الاختلاط يمنع الوقوع في المعصية، وما علم أن الطبيعة البشرية أقوى، ولا يعد لها، ويوجهها إلى الوجهة العليا إلاّ الخوف من الله، وتلاوة القرآن ومدارسة الحديث، ومجالسة العلماء، وغيرها من الأعمال الصالحة النافعة التي تقلل من وقوع الجرائم الجنسية والحد منها) (حجازي، التفسير الواضح ط 1964م (18 / 50)).

(5) ومما بينته الآيات الكريمة توجيه المؤمنين إلى العفو والصفح عمن شارك في حديث الإفك ما دام هؤلاء قد تابوا ورجعوا إلى الله تعالى.

(6) كما جاءت الآيات تحذر المؤمنين من مغبة الرجوع مرة أخرى إلى الخوض في حديث الإفك، فهذا الفعل يتنافى مع حقيقة الإيمان، وتبين العقوبة التي أعدها الله للقاذفين، وتهديدهم بأشد أنواع العذاب في الدنيا والآخرة وتوصفهم بأقبح الصفات التي تدعو إلى البعد عنهم. وسنوضح هذه القضايا في الفقرات اللاحقة إن شاء الله تعالى.

(7) وجاءت الآية الأخيرة لتقر سنة إلهية لا تتخلف: فالخبيثة لا يليق بها إلاّ الخبيث، والخبيث

لا يليق به إلاّ الخبيثة. (والطيبات من النساء كالسيدة عائشة وغيرها من أمهات المؤمنين والطيبين من الرجال. فالله يختار لكل فئة ما يناسبها ويليق بها. فلا يمكن أن يختار أخبث الخبيثات لأطيب الطيبين. وقيل المعنى: خبيث القول إنما يوجه للخبيث من الناس. والخبيث من الناس هو المستحق للخبيث من الكلام. أولئك المذكورون من الطيبين والطيبات مبرءون مما يقول الخبيثون والخبيثات والذي يطمئن إليه هو القول الأول. والله أعلم) (التفسير الواضح (18/53)).

3/5 بيان براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

عزيزي الدارس... تبين لك أن الذين جاءوا بالإفك جماعة صغيرة. والذي تحمل معظم ذلك الإثم رأس المنافقين عبدالله بن أبي سلول الذي أخذ يشيعه ويذيعه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين. فتكلموا به وجوزه آخرون منهم.

وتبين لك كذلك عزيزي الدارس: أن الأمر قد بقي قريباً من شهر وعائشة رضي الله عنها تقول: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» حتى أنزل الله تعالى براءتها في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مما افتراه عليها المفترون من كذب بحت. وقول زور. ورعونة فاحشة فاجرة .

فقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ».

فقد كان إجماع المسلمين والمفسرين أن هذه الآية وما يتعلق بها إلى بضع عشرة آية بعدها نزلت في براءة عائشة رضي الله عنها. وقد رُوي أنّ ابن عباس رضي الله عنه عندما دخل عليها. وهي في سياق الموت قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ. وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك ونزلت براءتك من السماء.

عزيزي الدارس: تدبر قوله تعالى: «أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ»: ألم تكن شهادة من الله تعالى بعفة عائشة وطهارتها وقوة إيمانها ؟

أليس في ذلك دليل على حصانة مما يرميها به القاذفون مبرأة مما يقولون ؟ فأي شهادة أعظم من شهادته سبحانه وتعالى التي تغني عن كل شهادة بما يثبت براءة عائشة رضي الله عنها من كل ما افتراه عليها المفترون ؟ لقد أثبت هذا النص قاعدة مهمة:

إن الأصل براءة المؤمنين والمؤمنات وإن ما خرج عن الأصل يحتاج إلى علم وإثبات أقلها أربعة شهود عدول. فمثل هؤلاء المتصفين بكل ما يجب الإيمان به مبرؤون مما يقوله القاذفون من اتهامات لا دليل عليها. وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ سيد البشر. وأطيب الطيبات من

النساء، وأطهر الطاهرات عائشة رضي الله عنها. فهم جميعاً مظهرون محصنون ينتظرون من الله تعالى ثواب أعمالهم مغفرة ورزقاً كريماً جزاء إيمانهم، وعملهم الصالح، وصبرهم على الأذى.

5\4 حكم من أذاع الفاحشة

عزيزي الدراس: تبين لك أن حديث الإفك لم يأت ولم يقم على أساس من الحق واليقين، وإنما كان عن ظن وتخمين، قصد به الكذب والبهتان على أم المؤمنين رضي الله عنها لأغراض خبيثة منها الطعن في الإسلام، والنيل من رسول الله ﷺ وصحبه الكرام.

ومن هنا جعل من الكبائر العظيمة التي قرنها الله تعالى بالشرك، قال رسوله الله ﷺ: (اجتنبوا السبع الموبقات: قالوا يا رسول الله وما هنّ ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) (صحيح البخاري (12 / 181)).

لذا حكم الله تعالى على من شارك في حديث الإفك فعلاً ومن أحب ذلك بالحرمة، فقد أعد الله تعالى لهؤلاء الخائضين في هذا الحديث المفترى المشاركين في هذا الجرم الكبير المحبين لإشاعة الفاحشة في المؤمنين من عقاب عظيم كل بحسب مشاركته في هذه الجريمة وفي طليعتهم زعيم المنافقين الرأس المدبر الذي استغل الحاقدين على الإسلام، وبعض الطيبين من المسلمين، على أمل أن يحقق ضالته في طريق وحدة المسلمين والطعن في الدين.

عزيزي الدارس: بعد أن علمت واقع المنافقين ونشرهم مقالة السوء بين صفوف المؤمنين. هذه الفئة أليست جديرة بخزي الله تعالى لها جزاء اجترائها على كرامات الناس يؤذونهم بغير وجه الحق، والله تعالى يقول: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» (الإسراء/36).

وانظر - عزيزي الدراس -... كيف جاء اقتران الإحصان بالغفلة والإيمان للإشارة إلى أن هذه الأوصاف جديرة بمنع القذف في أعراض الناس دون مسوغ ولا وازع.

والحقيقة أن هذه الفئة جديرة بهذا الجزاء العادل. «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (يونس/44).

يقول الزمخشري عند توضيحه لقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ» إلى قوله «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ»:

(ولو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد

الشديد والعتب البليغ والزجر العنيف.. ولو لم ينزل إلاّ هذه الثلاث لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك (أن الله هو الحق المبين)، فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلاّ ما هو دونه في الفظاعة وما ذاك إلاّ لأمر.. إلى أن يقول: ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ وتقدم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق فليتلق ذلك من آيات الإفك وليتأمل كيف غضب الله له في حرمته وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه). (الكشاف 3/56-57. بتصرف).

وقد يتبادر إلى ذهنك - عزيزي الدارس - سؤال:

كيف لو حاول القاذفون خداع الناس في الدنيا والإنكار يوم القيامة ؟

ونجيبك بأن القرآن الكريم يخبرنا في أكثر من موضع مشهد المحاكمة لمن ينكر، قال تعالى: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (يس/65).

وقال تعالى: «حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ» (فصلت/22-20).

فالله تعالى ينطق ألسنتهم وجوارحهم تشهد عليهم بقذفهم لأعراض المسلمين ظلماً وبهتاناً، قطعاً لعذرهم وتسجيلاً للخزي عليهم وتنكيلاً بهم، حينئذ يجد هؤلاء القاذفون جزاءهم الذي يستحقونه لا يزيد ولا ينقص، «ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ» (البقرة/281).

وفي ذلك اليوم يعلمون علم اليقين أن الله هوالحق المبين في وعده ووعيده، القادر على مجازاة الذين أحسنوا بالحسنى والذين أساءوا بما عملوا، وسيدركون أن كل ما جاء به الرسل من الانذار والتبشير صدق ويقين.

5.5 تأديب الله للمؤمنين في هذه الحادثة بإبراز السلوك الصحيح والتثبت من صحة الأخبار واستعظام هذه المقالة وعدم إذاعة الفاحشة

علمنا فيما مضى حكم من أذاع الفاحشة وما أعده الله تعالى لهؤلاء الخائضين في هذا الحديث المحبين لإشاعته في المحصنات الغافلات المؤمنات.

عزيزي الدارس: ترى ما الطريق الذي ينبغي على المؤمنين أن يسلكوه في مثل هذه الظروف والأحوال؟

الحقيقة أن تأديب الله تعالى للمؤمنين ورعايته لهم والتوجيهات السديدة بإبراز السلوك الصحيح إزاء هذه الحادثة كان سمة ظاهرة، للمحافظة على وحدتهم وترابطهم والتآلف بين قلوبهم، نلمس ذلك من خلال التوجيهات الصائبة الآتية:

أولاً: الحث على الظن بإخوانهم وأخواتهم ظناً حسناً «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ».

(أي كان ينبغي للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم فإن كان ذلك يبعد فيهم فهو في أم المؤمنين أبعد) (الشوكاني، فتح القدير 4/13).

ولاحظ - عزيزي الدارس - كيف صرح بلفظ الإيمان، وكان التعبير بأنفسهم وذلك للدلالة على أن الاشتراك في الإيمان يقتضي أن لا يظن بالمسلمين إلاّ خيراً، وللدلالة كذلك على جعل المؤمنين كالنفس الواحدة فيما يجري عليها من الأمور، فإذا جرى على أحدهم مكروه فكأنه جرى على جميعهم قال ﷺ: (المؤمنون للمؤمنين كالبنيان يشد بعضه بعضاً).

ثانياً: تنزيه ألسنتهم عن مثل هذا الحديث الباطل، بل عن مجرد الاستماع إلى ما يسيء المؤمن، وذلك أدب سام حث الله تعالى عباده المؤمنين على سلوكه للقضاء على الفتنة وحفظ وحدة الصف، قال تعالى: «وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ».

أي فإذا ما سمعوه من افتراه أنكروا ذلك، وقالوا ما يصح منا أن نتكلم بهذا الحديث البالغ أقصى درجات الكذب والافتراء ولا ينبغي أن نخوض في عرض النبي ﷺ بلا علم ولا حجة... سبحانك يا رب وتنزيها لك عن أن ترضى لأكرم خلقك أن تكون زوجته فاجرة.. اللهم إن هذا بهتان عظيم واختلاف أثيم.



نشاط (5)

راجع كتاب التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ج / 23 ولخص الصفحات (177 - 182) المتعلقة بجملة الآداب التي ينبغي على المؤمنين أن يتبعوها إزاء حادثة الإفك.

وقد تسأل عزيزي الدارس:

ما أثر تلك التوجيهات في عبادة المؤمنين الصادقين ؟

والحقيقة أنهم اذا تأدبوا بأدب القرآن، وفعلوا ما أراده الله تعالى لهم، وضربوا نماذج يقتدى بها تجلت فيهم أخلاق الإسلام في الظن الجميل. فهذه زينب بنت جحش يسألها رسول الله ﷺ عن أمر عائشة رضي الله عنها: «فقال: ما علمت ؟ ما رأيت ؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلاّ خيراً» (فتح الباري، 5/272).

وهذا هو أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري. قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقوله الناس في عائشة رضي الله عنها ؟ قال نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت لا، والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك.

وفي رواية (أنّ أبا أيوب الأنصاري قال لأم أيوب: ألا ترين ما يقال ؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءاً، قال: لا، قلت: ولو كنت أنا بدل عائشة رضي الله عنها ما خنت رسول الله، فعائشة خير مني، وصفوان خير منك). (الكشاف، 3/53).

وهذا أسامة بن زيد أشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال: يا رسول الله: أهلك وما نعلم إلاّ خيراً (صحيح البخاري (8/453)).

ثالثاً: ومن التوجيهات السديدة: تنبه المؤمنين إلى التثبت من صحة الأخبار وإلى أن الفاصل بين الرمي الصادق والكاذب ثبوت شهادة الشهود الأربعة «لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ »، فحين لم يقيموا بينة على ما رموا به عائشة رضي الله عنها لم تكن لهم بينة على قولهم فقامت عليهم الحجة «فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ».

رابعاً: تحذيرهم من التكلم بما لا علم لهم به، وتلقي حديث الإفك بعضهم عن بعض دون تدبر، ونقلهم له باستخفاف واستهتار، والنظر إليه على أنه شيء يسير، والتقول به من دون أن يكون معهم بينة أو دليل: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ».

وهنا قد تسأل - عزيزي الدارس -: ما معنى قوله تعالى (بأفواهكم) والقول لا يكون إلاّ باللسان؟

الجواب: (معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، فيترجم عنه اللسان وهذا الإفك ليس إلاّ قولاً يجري على ألسنتكم من غير أن يحصل في القلب علم به كقوله تعالى: «يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» (آل عمران/167).

أي تحسبونه صغيرة وهو عند الله كبيرة، وعن بعضهم أنه جزع عند الموت، فقيل له فقال: أخاف ذنباً لم يكن مني على بال وهو عند الله عظيم) (الكشاف (3: 54)).

6.5 رحمة الله تعالى بالإمهال وقبول التوبة والتحذير من العودة إلى تلك المقالة

عزيزي الدارس: سبق أن عرفت أن بعض المؤمنين تلقوا حديث الإفك، وخاضوا فيه، ولم يعلموا أن فيه إيذاء للرسول ﷺ، وأن فيه إيذاء لعائشة رضي الله عنها وأبويها ومن يتصل بهم.

ومع خطورة ما تقدم وهذا كفيل بإيقاع العذاب العظيم بهم في الدنيا والآخرة «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ» (فاطر/45). وقد بينا ذلك سابقاً، إلاّ أنك تلمس - عزيزي الدارس- أن الله تعالى قد منّ على المؤمنين برحمته وفضله مكرراً هذا الفضل في أكثر من مرة في آيات الإفك. ومما يدل على ذلك:

(1) فتح لهم باب التوبة ليرجعوا عن إثمهم ولم يعاجلهم بالعقوبة، قال تعالى: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ». قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره (ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم وأنه عواد على خلقه بلطفه وطوله، حكيم في تدبيره إياهم وسياسته لهم لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم، وفضح أهل الذنوب منكم بذنوبهم، ولكنه ستر عليكم ذنوبكم، وترك فضيحتكم لها عاجلاً رحمة منه بكم وتفضيلاً عليكم) (جامع البيان (18/100)).

(2) هدايتهم إلى المنهج القويم الذي تقوم عليه الحياة الكريمة وتطهيرهم من دنس الكفر والمعاصي «وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

(3) دعوتهم إلى التدبر في هذا التشريع العظيم الصادر من عليم حكيم الذي خلقهم وعرف ما يصلحهم وما يحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة «وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

(4) إرشادهم إلى خطر هذا الفعل الشنيع فلولا هذا لوقعوا في المهالك ولضلت بهم السبل، ولذا جاء التحذير من العودة إلى مثل ذلك الأمر أو ما يشبهه من الأحاديث الباطلة وأن يعملوا بما أمرهم الله تعالى به ويجتنبوا ما نهاهم عنه «يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

وتأمل - عزيزي الدارس - كيف ختم الآية الكريمة بقوله «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» وقد أجاب العلامة أبوحيان بقوله: (حث لهم على الاتعاظ وتهييج لأن من شأن المؤمن الاحتراز مما يشينه من القبائح) (البحر المحيط (6/438)).

7.5 الزجر عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين والعفو الجميل عن الأذى

عزيزي الدارس: سبق أن عرفت في الفقرات السابقة خطورة إفشاء الحديث عن عائشة رضي الله عنها، وتحذير الله المؤمنين من العود إلى مثل ما خاضوا به من الإفك. بعد الذي عرفت ترى - عزيزي الدارس -: أن الله تعالى يواصل توجيهاته الحكيمة للمؤمنين فيهددهم على ما عسى أن يصدر منهم في المستقبل بالوعيد على محبة شيوع الفاحشة في الذين آمنوا بالعذاب الأليم: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

فحب انتشار الفاحشة بين المؤمنين لإيقاع الأذى بهم خلق ذميم حرص الإسلام على استئصاله واقتلاعه من جذوره؛ لأن من واجب المسلم أن يحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه، فكما لا يحب أن يشيع عن نفسه خبر سوء، كذلك يجب عليه أن لا يحب إشاعة السوء عن إخوانه المؤمنين.

وقد تسأل -عزيزي الدارس- لم جعل الوعيد على المحبة لشيوع الفاحشة في المؤمنين؟

ونجيب بأن ذلك (تنبيه على أن محبة ذلك دالة على خبث النية نحو المؤمنين، ومن شأن تلك الطوية أن لا يلبث صاحبها إلاّ يسيرا حتى يصدر عنه ما هو محل له أو يسر بصدور ذلك من غيره) (التحرير والتنوير 18/184).

بعد هذا البيان عن خطورة حب انتشار الفاحشة فضلاً عن المشاركة في نقلها والتحدث بها مما يقتضي أن تترك أثراً في نفوس كثير من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل

من قال في الإفك. ومنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي لم يزل واجداً في نفسه على مسطح بن أثاثة المطلبي ابن خالته..

بعد هذا كله جاء التوجيه الإلهي لهم، ليعلمهم كيف تتعالى أنفسهم على الحقد والبغضاء والتشفي والانتقام وتجنح إلى الحلم والعفو والصفح الجميل.. وكان أبو بكر الصديق قد حلف قائلاً: (والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة) (صحيح البخاري 8/455).

فأنزل الله تعالى «وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

والحادثة وإن كانت خاصة بأبي بكر إلاّ أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي تتناول كل مؤمن.

وتأمل - عزيزي الدارس - كيف ذكر هؤلاء بهذه الصفات، وذلك للإشارة إلى الأسباب المقتضية إلى مواساتهم ما داموا قد تابوا وتاب الله عليهم لأن الغرض من هذا العطاء هو مرضاة الله تعالى فحسب، وهكذا ترى عزيزي الدارس:

إن الله تعالى يرشد المؤمنين بأبعاد أسباب القطيعة عن الأرحام بكظم الغيظ والعفو الكريم «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» (آل عمران/134). والصبر الجميل «وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» (الشورى/43). طلباً لعفو الله تعالى ومغفرته؛ لأن المؤمن كما يحب أن يغفر الله له فينبغي أن يغفر لمن دونه، ولهذا كان أبو بكر أسرع استجابة لأمر الله تعالى، فقال عندما سمع قوله تعالى:«أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»

(بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه. وقال: والله لا أنزعها منه أبدا) (صحيح البخاري 8/455).

هذا ما ينبغي على كل مسلم فعله للمحافظة على وحدة المجتمع وقوته وتحصينه ضد أسباب العداوة والبغضاء والحسد.

أسئلة التقويم الذاتي (4)

?

1. ما سبب نزول آيات الإفك ؟
2. وضّح معاني الكلمات الآتية: تلقونه - العصبة - مبرؤون.
3. اذكر الآية التي تدل على حادثة الإفك، وبيّن درسين من الدروس التي تؤخذ منها.
4. ما الطريق الذي يجب على المؤمنين أن يسلكوه لمحاربة الإشاعات الكاذبة ؟
5. ما السبيل للحد من وساوس الشيطان، وطرقه الخبيثة ؟
6. اذكر آية كريمة تزجر الذين خاضوا في حديث الإفك وفسرها تفسيراً موجزاً.
7. لقد نهى الله تعالى المؤمنين عن العودة إلى حديث الإفك، فما الآية التي تحض على ذلك؟ وما تفسيرك لها ؟
8. ما حكم من أذاع الفاحشة ؟ وما العقوبة التي تلحقه ؟
9. اذكر الآية التي تحث المؤمنين على تنزيه ألسنتهم عن الأحاديث الباطلة، وفسرها إجمالاً.
10. اذكر موقفين يدلان على تأدب المؤمنين بأدب القرآن وتوجيهاته إزاء حادثة الإفك.
11. ما سبب نزول قوله تعالى «وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ»؟ وهل تخص هذه الآية بمن كان السبب في نزولها ؟ وضّح ما تذهب إليه.
12. أجب بـ (لا) أو (نعم) على ما يأتي:

(1) معنى أفضتم في قوله «لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ»: تحقيق الشيء بتأني وتريث.

(2) المراد بالدين في قوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ» الإسلام.

(3) نزل قوله تعالى «لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» لتسلية الرسول ﷺ.

6. الدرس الرابع: الآيات (27 - 34) تفسيرها وحفظها

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31) وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (32) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (34)

(النور/34-27)

1.6 سبب نزول هذه الآيات

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات عن ابن ثابت قال: جاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد لا والد ولا ولد، فيأتي الأب فيدخل علي، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فكيف أصنع ؟ فنزلت هذه الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا».

قال المفسرون:

فلما نزلت هذه الآية، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

يا رسول الله أفرأيت الخانات والمساكن في طريق الشام ليس فيها ساكن، فأنزل الله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ» (النور/29). (الواحدي، أسباب النزول، ص (228، 229)).

2.6 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات:

* البيوت: جمع بيت، وهو المسكن الذي يأوي إليه المرء ليلاً عادة.
* تستأنسوا: من الاستئناس، وهو الاستعلام والاستكشاف، أو هو ضد الاستيحاش.
* يغضوا: من الغض، وهو منعه من التطلع إلى ما لا يحل له النظر إليه.
* بخمرهن: جمع خمار وهو ما تستر به المرأة رأسها وعنقها وصدرها.
* جيوبهن: جمع جيب وهو فتحة في أعلى الجلباب يبدو منه بعض الصدر والعنق.
* الإربة: الحاجة.
* الأيامى: جمع أيم: وهو من لا زوج له ذكراً كان، أو أنثى ثيباً أو بكراً.
* وليستعفف: الاستعفاف: طلب العفة واختيار طريق الفضيلة.
* الكتاب: والمكاتبة هي: عقد عتق بين السيد وعبده مقابل مال يؤديه العبد لسيده.
* البغاء: الفجور.

ب- المعنى الإجمالي:

عزيزي الدارس: عرفت فيما سبق حرمة الزّنى وعقوبة من يقع في هذه الجريمة النكراء،

وتوضح هذه الآيات الكريمة الطرق الوقائية التي تمنع من الوقوع في هذه الفاحشة البشعة.

فبدأت ببيان آداب الاستئذان عند دخول البيوت المسكونة بأهلها حتى يعلم أن صاحب البيت قد أذن، ويسلم السلام الشرعي على أهلها.

عزيزي الدارس: تدبر كيف جاء التعبير عن الاستئذان في الدخول بالاستئناس، وذلك؛ لأنه يوحي بأن القادم قد استأنس بمن يريد الدخول عليه وهو قد أنس به، فإذا لازم كل ذلك السلام كان حسن اللقاء، ثم بينت الآيات حالة أخرى تتعلق بالاستئذان عند دخول البيوت الخالية من سكانها لسبب ما، فلا يجوز دخولها حتى يؤذن في الدخول ممن يملك الإذن بذلك، وإذا قيل للمستأذن ارجع، فليرجع فإن فيه خيراً كثيراً ونفعاً عظيماً.

وجاءت الآيات تتوعد الذين يدخلون البيوت لقضاء مصلحة غير مشروعة، ولمقاصد خبيثة، فالله تعالى سيحاسبهم حساباً عسيراً.

ومن الطرق الوقائية التي فصلتها الآيات السابقة لمنع الفحشاء: الأمر بغض البصر، وحفظ الفرج، وعدم إبداء الزينة إلاّ في الحدود المشروعة وتأمل - عزيزي الدارس - كيف جمع بين غض البصر وحفظ الفرج ؟

وذلك، لأن النظر بريد الزّنى، وليعلم الناس جميعاً ما له من خطر، وأنه كثيراً ما يؤدي إلى الوقوع فيما لا تُحمد عقباه.

وقد بدأت الآيات بحث المؤمنين بالكف عن النظر إلى الأجنبيات غير المحارم وسنبين لك - عزيزي الدارس - في فقرة لاحقة، منافع غض البصر.. إلاّ أنك قد تتساءل هنا ما معنى (من) في قوله: (من أبصارهم) ؟ والجواب: إن لهذا الحرف معاني متعددة إلاّ أن المراد منه هنا: التبعيض وفي ذلك بيان إلى أن الإنسان لا يستغني عن بعض النظر لمصالحه وحاجاته، أما الذي يحرم فهو النظرة الآثمة المشبوهة بالشهوة.

وجاءت الآيات لترشد النساء إلى قضايا مهمة:

1. أن يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن.
2. أن يحفظن فروجهن عن كل ما نهى الله تعالى عنه.
3. ألا يظهرن شيئاً مما يتزين به.
4. أن يسترن رؤوسهن وأعناقهن وصدورهن حتى لا يطلع أحد من الأجانب على شيء من ذلك.

وهنا قد يتبادر إلى ذهنك سؤال - عزيزي الدارس - لم نهى القرآن الكريم عن الزينة، والمراد مواضعها ؟

وذلك للمبالغة في المنع إلاّ ما جرت به العادة بكشفه لاقتضاء الضرورة كالوجه

والكفين، وما يؤيد ذلك:

إن رسول الله ﷺ قال: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصح أن يرى منها إلاّ هذا، وأشار إلى وجهه وكفيه» (سنن أبي داود رقم 4104 (4/62)).

وغيرهما من الأمور التي لا غنى للمرأة عن إظهارها كالثياب الخارجية، ونحوها.

5) وما جاءت به الآيات ؛ لترشد النساء: ألا يكشفن زينتهن الخفية كالساقين والذراعين وشعر الرأس أو ما يلفت النظر إليهن من الملابس الضيقة، أو عن طريق الحلى والمساحيق وغيرها فالله تعالى قد نهاهن عن كشفها لكل أحد إلاّ ما استثناهم بعد ذلك، فيجوز لهن أن يبدين زينتهن أمامهم، وقد بدأ:

أ) بالبعول، وهم الأزواج... وقد تسأل - عزيزي الدارس - لم بدأ بهم ؟

والجواب: لأنهم أحق الناس بألا يستتر عنهم شيء، ولأنه يباح لهم النظر إلى جميع البدن ويباح لهم كذلك الاستمتاع بما أحله الله تعالى، فهم المقصودون بالزينة.

ب) آباؤهن وكذا الأجداد سواء أكانوا لأب أم لأم وإن علوا.

جـ) أبناء بعولتهن سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً.

د) الأخوة الأشقاء لأب أو لأم.

هـ) أبناء الأخوة.

ويلحق بهؤلاء المذكورين المحارم وهم الأعمام والأخوال والمحارم من الرضاع والفروع، وإن سفلوا.

وقد تسأل كذلك:

* لم ثنى بهذه الأنواع بعد الأزواج ؟

ونجيبك: لأن هؤلاء من المحارم الذين لا يحل للمرأة الزواج بواحد منهم، وقد جرت العادة بضرورة النساء إلى مخالطتهم، أضف إلى ذلك أن الفتنة مأمونة بالنسبة لهم.

عزيزي الدارس، وإذا كنت قد عرفت ذلك، فلا بد من أن ننبهك على أنه وإن جاز للمرأة أن تبدي زينتها أمام هؤلاء المحارم فلا يجوز أن تتجاوز ما حدده الشرع، فلا يجوز أن تظهر ما بين سرتها وركبتها.

* ومما يجوز للنساء أن يبدين زينتهن الخفية أمامهم:

أ) نساؤهن: أي المختصات بالخدمة والصحة المعروفات بحسن الخلق والسلوك.

ب) ما ملكت أيمانهن من الإماء لا من العبيد البالغين.

جـ) التابعين غير أولي الإربة أي الذين تقدمت بهم السن ولا حاجة لهم في النساء ولا

تحدثهم أنفسهم بفاحشة، فجانب الفتنة بالنسبة إليهم مأمون.

5) الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء أي لم يعرفوا ما العورة ولم يستطيعوا بعد التمييز بينها، وبين غيرها لأنهم من دون سن البلوغ والشهوة.

6) ومما نهت الآيات النساء عنه: ألا يلجأن إلى أسباب الإغراء والإثارة بأن يضربن بأرجلهن الأرض ليعلن عن زينتهن المستورة كالخلخال ونحوه.

عزيزي الدارس: بعد أن علمت نهي الله تعالى المؤمنين عن بعض الأمور على الوضع الذي بيناه: يأتي التوجيه السديد بدعوتهم إلى التوبة الصادقة ؛ لكي ينالوا الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

كما جاءت الآيات الكريمة، لتبين العلاج الذي من شأنه أن يصرف الإنسان عن مواقعة الزّنى ألا وهو: الحث على تزويج من كان أهلاً للزواج، فالنكاح وحده (الذي يحض به الدين ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام) (الكشاف 3/328).

فإذا عجز عن النكاح، فلا بد من الحمل على النفس وعزفها عن الطموح إلى أن يرزقه القدرة عليه، ومما بينته الآيات الكريمة تحصيناً للمجتمع: تحرير الأرقاء، وعدم إكراه الإماء على الزنى فإذا أكرهن فإن الله غفور رحيم بهن، ومن أكرههنّ فله جهنم وبئس المصير.

وجاء ختام الآيات الكريمة ؛ ليبين للمؤمنين أن ما تفضل الله تعالى به عليهم من الآداب السامية والتشريعات الحكيمة اتصفت بما يلي:

1) أنها واضحة في نفسها مبينة لغيرها.

2) اشتمالها على القصص العجيبة من أخبار الماضين ؛ ليتخذوا منها دروساً وعظات وعبر، فهذه مريم البتول، وهي العفيفة الطاهرة قد رماها اليهود فبرأها الله تعالى، فلا غرو أن تتهم عائشة رضي الله تعالى عنها بما هي منه بريئة.

3) كما أنها موعظة للمتقين الذين يخافون الله تعالى.

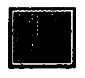
3.6 حكم الاستئذان عند دخول البيوت والأماكن غير المسكونة

عزيزي الدارس: عرفت من المعنى الإجمالي للآيات القرآنية السابقة أن الاستئذان أمر ضروري لما له من آثار طيبة، ترى ما حكمه عند دخول البيوت ؟

الحقيقة ان البيوت قد تكون مسكونة، أو غير مسكونة، ولكل منهما حكمها المستقل بها. فأما إن كانت مسكونة فقد بينت الآية تحريم دخولها بغير استئذان وتسليم. إلاّ

أنّ جمهور الفقهاء يرى أنّ الطلب في الاستئذان على سبيل الوجوب. وفي السلام على سبيل الندب.

ولكي تتعرف - عزيزي الدارس - بعض الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من الآيات الكريمة بادر إلى حل النشاط التالي:



نشاط (6)

ارجع إلى كتاب القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ولخص الصفحات 212 - 221 المتعلقة بالآداب الشرعية التي أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين.

وقد تسأل - عزيزي الدارس - هل يشمل الذكور والإناث معاً ؟

والجواب: إنه عام سواء أكان ذكراً أم أنثى مع محرم، أو غير محرم إذ أنّ لكل إنسان حالات لا يحب أن يطلع عليها أحد. حتى ولو كان والداً أو أمّاً أو ولداً أو خالة أو عمة. إذ أنّ عورة المحرم للمحرم ما بين السرة والركبة. فقد تقع عينه على ما لا يصح الاطلاع عليه.

أما الزوجة «فينبغي أن يشعر الرجل زوجته بقدومه حتى لا يفاجئها بما تكره أن يطلع عليه» (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن).

ومن الآثار التي تدل على ذلك: (عن ابن عمر أنه كان إذا بلغ بعض ولده الحلم عزله. فلم يدخل عليه إلاّ بإذن) (الجيلاني، البخاري في الأدب المفرد، رقم 1058، ج 2 ص 500).

ورد في الأثر عن علقمة: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود قال: أأستأذن على أمي؟ فقال ما على كل أحيانها تحب أن تراها. (البخاري في الأدب المفرد رقم 1059، 1060، (2/500)).

عزيزي الدارس: هذا وقد جاءت السنة الشريفة تبين أن الاستئذان يكون ثلاث مرات. فإن لم يؤذن له بعدها انصرف.

والدليل قول الرسول ﷺ: (إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع) (صحيح مسلم - ط دار الفكر - بيروت 1978 م رقم 33/2153 (ج 2/1694)).

ومما جاء في السنة المباركة التي تبين بعض آداب الاستئذان:

أن لا يقف المستأذن أمام الباب بوجهه. ولكنه يجعل الباب من يمينه أو عن يساره. فقد ورد في الحديث الشريف: (كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول: السلام عليكم) (سنن أبي داود - ط دار إحياء السنة رقم

5186 (ج 4/348)).

ومن الآداب أن لا يقول المستأذن (أنا) في الرد على صاحب المنزل وإنما يذكر اسمه: عن جابر رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي، فدققت الباب. فقال: من ذا ؟ قلت: أنا. فقال: أنا، أنا. كأنه كرهها (صحيح مسلم رقم 38/2155 (3/1697)).

عزيزي الدارس: أما وقد عرفت حكم الاستئذان عند دخول البيوت المسكونة وغير المسكونة، وهنا قد تتساءل ما حكم دخول البيوت التي على ظهر الطريق، وليس فيها ساكن؟

والجواب: أنه لا إثم في دخولها بغير استئذان ؛ لأنها لم تعد لسكنى طائفة معينة من الناس، بل هي معدة ؛ لينتفع بها من يحتاج إليها من دون أن يتخذها مسكناً له. ويلحق بها الفنادق والحوانيت والبيوت وغيرها من الأمكنة المعدة للراحة المؤقتة.

عزيزي الدارس: هكذا تبين لك بعض الأحكام والآداب التي تتعلق بالاستئذان تلمس من خلالها كيف أدّب الله تعالى عباده المؤمنين بها، مما يؤدي العمل بها إلى تحقيق مكارم الأخلاق في نفوس الأفراد والجماعات.

4.6 آداب الاختلاط والأمر بغض البصر

بعد أن عرفت أن الله تعالى قد نهى المؤمنين عن دخول البيوت بدون استئذان لمعانٍ سامية ومقاصد نبيلة، أتبع ذلك بأمر المؤمنين أن يكفوا عن النظر إلى الأجنبيات غير المحارم، كما أوجب على المؤمنات أن يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن..

وهنا قد تسأل - عزيزي الدارس -:

أليس من المعلوم أن كل أمر في القرآن الكريم للمؤمنين فهو كذلك للمؤمنات فهن يدخلن في خطابهم على سبيل التغليب ؟

والجواب: أن الله تعالى قد خصهن بالخطاب تأكيداً للأمر بغض البصر، فهن بحاجة إلى ذلك.

وقد تتساءل كذلك ما وجه الحاجة إلى غض البصر من الطرفين فلا يحل لهما النظر بعضهم إلى بعض، إلاّ في حدود ما شرعه الله تعالى لهما ؟

والحقيقة أن في غض البصر منافع جليلة وحكماً عظيمة نذكر لك بعضاً منها:

1) امتثال أمر الله تعالى الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى.

(2) النظر سهم مسموم من سهام إبليس، وغض البصر يمنع من وصول أثر هذا السهم المسموم إلى القلب الذي فيه هلاكه.

(3) يورث القلب أنساً بالله، فإن إطلاق البصر يفقر القلب ويبعده من الله تعالى، وليس على العبد شيء أضر من إطلاق البصر، فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه.

(4) يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

(5) يكسب القلب نوراً، كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة.

(6) يورث الفراسة الصادقة التي يميز بها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب.

(7) يورث القلب ثباتاً وشجاعة وقوة.

(8) يسد على الشيطان مدخله من القلب، فهو يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهوى في المكان الخالي.

(9) يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك، فتنفرط عليه أموره، ويقع في اتباع هواه، وفي الغفلة عن أمر ربه. قال تعالى: «وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» (الكهف/28).

(10) أن بين العين والقلب منفذاً أو طريقاً يوجب أحدهما عن الآخر وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والأنس به والسرور بقربه فيه. («التفسير» ابراهيم زيد الكيلاني وإخوانه نقلاً عن كتاب الجواب الشافي لابن القيم ط 1986 (168 - 172) بتصرف).

عزيزي الدارس: تبين لك أن الإسلام لم يكن أمره للمؤمنين بغض البصر عبثاً، وإذا كان قد حرم النظرة الآثمة، فإنه حرم كذلك كل ما يؤدي إليها من حفلات وزيارات مختلطة يلتقي فيها الرجال النساء الأجنبيات، فيبيحون لأنفسهم النظرات المريبة التي تؤدي في كثير من الأحيان إلى المعاصي والآثام، والحقيقة أن الإسلام قد عالج قضية الاختلاط معالجة دقيقة تحول دون وقوع الفواحش، وذلك بوضع أسس مدارها الآداب والتوجيهات السديدة، والدارس للسنة الشريفة يجد التطبيق العملي لتلك الآداب وما ينبغي أن يسلك عند حدوث الاختلاط، تلمس ذلك في أطهر مكان، حيث يلتقي الرجل والمرأة للصلاة في يوم الجمعة لتأدية العبادة.

عزيزي الدارس: ما الذي تلاحظه عند هذا اللقاء ؟

الحقيقة أن كلا منهما يأخذ مكانه. فالرجل في المقدمة، والمرأة في المؤخرة وعند قضاء الصلاة يسلك كل منهما طريقه، فلا اختلاط ولا فتنة.. «عن شداد بن أبي عمرو عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد فاختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله: «استأخرن فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق، عليكن بحافات الطريق» فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى أن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به». (سنن أبي داود رقم الحديث 5272 (52/422)).

عزيزي الدارس: بعد أن تبين لك بعض الحكم من غض البصر، وأن المسلم مطالب أن يعيش آداب دينه عند الاختلاط، ويحرم عليه أن يتخذه وسيلة للحرام.. بعد هذا البيان أيغرنك ما يشاع « في وقت من الأوقات أن النظرة المباحة، والحديث الطليق، والاختلاط الميسور، والدعابة المرحة بين الجنسين، والاطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة. شاع أن هذا كله تنفيس وترويح، وإطلاق للرغبات الحبيسة، وقاية من الكبت، ومن العقد النفسية، وتخفيف من حدة الضغط الجنسي، وما وراءه من اندفاع غير مأمون.

ويكذبه ويدحضه واقع المجتمعات الغربية التي ليس منها قيد واحد على الكشف الجسدي والاختلاط الجنسي بكل صوره وأشكاله.

إن هذا كله لم ينته بتهذيب الدوافع الجنسية وترويضها، إنما انتهى إلى سعار مجنون لا يرتوي ولا يهدأ وإلى أمراض نفسية وعقد، رافقها أمراض الشذوذ الجنسي بكل أنواعه. ثمرة مباشرة للاختلاط الكامل الذي لا يقيده قيد، ولا يقف عند حد، وللصداقات بين الجنسين تلك التي يباح معها كل شيء وللأجسام العارية في الطريق والحركات المثيرة، والنظرات الجاهزة، واللفتات الموقظة» (انظر في ظلال القرآن: تفسير سورة النور)

«قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ».

عزيزي الدارس: بعد أن عرفنا آداب الاختلاط، والأمر بغض البصر، أصبح من واجبنا جميعاً توجيه الأمة إلى السير في الطريق الصحيح على أسس من هداية كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ.

5/6 حفظ الفروج وعدم إظهار الزينة لغير المحارم

عزيزي الدارس: عرفت أن سورة النور قد نهت عن الزّنى، ووضعت من العوائق ما يحول دون وقوعه، حيث حرمت الاختلاط، وأمرت بغض البصر، وقد وضحنا ذلك سابقاً بما أغنى عن ذكره هنا.

ومن الطرق التي وضعها الإسلام لطهارة النفس والمجتمع: حفظ الفروج وليس من شك أن حفظها من صفات المؤمنين، قال تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31)» (المعارج/29 -31).

فالإسلام يريد مجتمعاً طاهراً نظيفاً، تلبى فيه كل دوافع الفطرة، ولكن ضمن ضوابط، وأسس شرعية.

عزيزي الدارس: تدبر قوله تعالى: «فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» فهو يغلق الأبواب في وجه كل قذارة جنسية في أي صورة غير الصورتين الواضحتين في النص السابق.

وإذا كان الإسلام قد أمر بغض البصر، وحفظ الفرج، فقد أمر بعدم إظهار الزينة، وقد عرفت من يجوز للنساء أن يبدين زينتهن أمامهم فإذا جاز لهن ذلك بالحدود الشرعية، فلا يجوز لهن إظهار زينتهن لغيرهم حتى لو كانوا من الأقارب غير المحارم كابن العم وابن الخالة وابن الخال، وابن العمة وأخ الزوج، بل عده الهلاك نفسه، رُوي أنّ رجلاً من الأنصار قال يا رسول الله: أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو: الموت» (صحيح البخاري (7/48)).

فلا يجوز للنساء أن يظهرن زينتهن لهم إلا ما تدعو الضرورة إلى إظهاره كالوجه، والكفين، والثياب، ونحو ذلك، ما لم يؤد ذلك إلى فتنة، وخيف من الوجه والكفين فعليهن سترهما، ولكي تتعرف - عزيزي الدارس - أقوال العلماء عند تفسيرهم لقوله تعالى: «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا» بادر إلى حل التدريب الآتي:



تدريب (4)

ارجع إلى النص السابق واذكر آراء العلماء في هذه الآية ويمكنك الاستعانة بكتاب أضواء البيان ج (6/192، 193، 194).

وإذا كان الله تعالى قد نهى النساء عن إعلان زينتهن المستورة، فإنه نهاهن عن إبداء حركات تدل عليها، بل عليهن الالتزام عند خروجهن من بيوتهن: الحشمة والوقار والاتزان. قال الله تعالى: «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ».

«وكان من عادة النساء أن يلبسن الخلاخل في أسفل أقدامهن مستورة بالجلباب فإذا ما ضربت المرأة بقدمها الأرض سمع صوت الخلخال وكان له أثره وإغراؤه في نفوس الرجال. فحرم على المرأة إصدار هذه الحركة. كما حرم عليها قياساً على ذلك كل الحركات المثيرة للرجال في طريقة مشيها وأسلوب حديثها» (التفسير. 185).

عزيزي الدارس: إن لجوء المرأة إلى مثل هذه الأساليب التي لا تدل على خلق، ولا تنبئ عن استقامة، وخروجها على هذا الوضع المزري من إبداء زينتها للأجانب، مرتدية الملابس الفاضحة، الكاسية العارية، وغير ذلك من ألوان التصنع الذي من شأنه تهييج الغرائز البشرية. إن لجوء المرأة إلى هذا كله أمر يمجه الإسلام بل يحرمه ويرتب أقسى العقوبة عليه ويمقته لما يترتب عليه من مخاطر جسيمة تؤدي إلى فساد المجتمع وسقوطه.

6.6 تحصين أفراد المجتمع وسترهم بالزواج الشرعي

عزيزي الدارس: علمت فيما مضى أن الزنى داء وبيل، وخطر جسيم على الفرد والمجتمع، وهنا تتساءل ما العلاج الذي من شأنه أن يصرف الإنسان عنه ؟

والحقيقة أن الإسلام جاء ليضع الحل الأمثل لتلك القضية وهو: تيسير الزواج، وعدم تعسيره، والحض على تزويج من كان أهلاً له، وراغباً فيه ممن لا زوج له من الرجال والنساء.

فالزواج هو وحده الذي يقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام، وهو الطريق المشروع لقضاء الشهوة، وتنفيس الغريزة الجنسية، كما أن فيه حفظاً للنوع الإنساني، وصيانة الإنسان من الاختلاط، وتحصيناً لأفراد المجتمع من الوقوع في الفاحشة، وعندها تفشو فيه الفضيلة وتموت فيه الرذيلة.

عزيزي الدارس: قد تستفسر فتقول: هل التيسير للزواج والحض عليه مقتصراً على الأحرار والحرائر ؟

والجواب: إن الحث على تسهيل الزواج يتعدى ذلك، ليتناول الصالحين من عبيد وإماء المؤمنين القادرين على القيام بحقوق الشرع الواجبة عليهم من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، ففي زواجهم تحصيناً لهم، وحفظاً لعفتهم، وتحقيقاً لأسباب الطمأنينة والخير في المجتمع. وإنما خص الصالحين من العبيد دون الأحرار:

لأنهم هم الذين يستحقون أن يطلبوا من أسيادهم، وأن يجابوا إلى طلبهم، بخلاف الأيامى من الأحرار، فنفقاتهم على أنفسهم، فالترغيب في زواجهم محمول على الإطلاق دون شروط.

عزيزي الدارس: بعد أن عرفت أن الإسلام حث على النكاح وحرص على تحقيقه، قد تتساءل ما حكم الزواج ؟

والحقيقة أن الزواج يختلف حكمه باختلاف الأحوال، فمن كان قادراً عليه ويخشى إذا تركه أن يقع في الزنى، فإن الزواج يكون واجباً عليه ولذا حمل بعض العلماء الأمر في «وَأَنْكِحُوا» على الوجوب. وجمهور العلماء قالوا بالندب إذا ما أمن من الوقوع في الفاحشة.

وقد تسأل كذلك، وقد علمت حكم الزواج أليس الفقر مانعاً من تحقيقه ؟

والجواب: أن فقر الرجل وعدم القدرة على المهر المرتفع لا ينبغي أن يكون سبباً في عدم تزويجه، ولذا يتعين على كل من له علاقة بالأمر أن يذلل العقبات المادية التي تحول دون تيسير أسباب النكاح، وإلاّ سيعرضون بناتهم وأبناءهم للفتنة ومجتمعهم للفساد، بوضعهم العقبات المادية أمام القاصدين للعفة والطهارة في الوقت الذي يزوجون من دفع المهر الكبير، وتعهد بنفقات الزواج الباهظة.

تدبر قوله تعالى «إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ».

فالزواج قد يكون مدعاة للغنى من واقع شعور الرجل بالمسؤولية، وأنه أصبح صاحب أسرة لها مطالبها، مما يدفعه إلى العمل والاجتهاد والسعي لتحصيل الرزق.

ثم أليس الله تعالى واسع الغنى لا تنفد خزائنه ؟ فهو قادر على أن يغنيهم في الحال أو المستقبل، وهذا ما أثبته الواقع، فكم من أناس كانوا فقراء عند الزواج فأصبحوا أغنياء؛ لأنهم قصدوا بزواجهم وجه الله تعالى، ولذا لا نرى - عزيزي الدارس - مسوغاً لمن يتذرع بالفقر، قائلاً: كيف أتزوج وأنا فقير، فالغنى والفقر بيده تعالى.

ونختم هذه الفقرة بهذا الحديث الشريف، المروي عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم، الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله»

(سنن النسائي - رقم 3218 ((2/61)).

7.6 الحث على إعتاق العبيد وإكرامهم

عزيزي الدارس: عرفت من الفقرة السابقة أن الله تعالى حث المؤمنين على مساعدة الصالحين من عبيدهم وإمائهم في الزواج ؛ لأن فيه إكراماً لهم وحفظاً لعفتهم، ترى هل اقتصر إكرام العبيد عند هذا الحد ؟

إن الإسلام قد نظر إلى قضية الرق نظرة خاصة، وعنى عناية فائقة على معالجة هذه

المشكلة، بل استئصالها من جذورها، مخالفاً بذلك ما اتفق عليه لدى مفكري العالم وعلمائه قبل نزول القرآن الكريم على أن الرق أمر طبعي تقتضيه الفطرة البشرية.

ومما يدل على عناية الإسلام بتلك القضية أنه فتح أبواب الحرية إيماناً منه أن الناس خلقوا من نفس واحدة، كلهم لآدم وآدم من تراب لا فرق بينهم إلاّ بالتقوى والعمل الصالح.

لذا نرى أنه لم يدع فرصة تمر إلاّ ويدعو بإلحاح إلى الحرية كما هو الحال عند ارتكاب بعض المخالفات فقد أوجب عتق الرقبة.

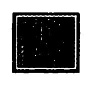
ولم يقف الإسلام عند هذا الحد، بل خطا خطوات كثيرة في هذا المضمار منها - وهو ما نحن بصدد الحديث عنه - المكاتبة التي تتم بين العبد وسيده، مقابل مبلغ من المال يدفعه إليه مقسماً على فترات، فإذا ما حصل هذا تعين على المسلمين أن يعطوا هذا العبد من مال الزكاة وغيرها ليعينوه على حريته.

عزيزي الدارس: تأمل قوله «فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ» أليس في ذلك تكريم ما بعده تكريم لهذا العبد ؟

فقد أوجب الله تعالى أن يلبي رغبته إذا علم فيه خيراً واستعداداً للوفاء، وإذا علم أن له قدرات تمكنه لأن يكون لبنة صالحة في هذا المجتمع، بل أوجب الإسلام على السيد إعطاءه من مال الله تعالى الذي آتاه، ولا يبخل عليه في تقديم كل عون، ليتمكن من شق طريقه في الحياة، والقيام بمسؤولياته تجاه نفسه ومجتمعه، لتتحقق العفة في المجتمع الإسلامي وتحصينه من داخله.

عزيزي الدارس: أبعد هذا التقدير والإكرام من الإسلام لهؤلاء العبيد، وحرصه الأكيد على مساعدتهم، ليعيشوا نعمة الحرية، وتعود إليهم إنسانيتهم ؟ أبعد هذا يصح أن يتهم الاسلام بأن الرق قد نما في ظله؟ اللهم إنْ هذا إلاّ قول زور، وشهادة باطلة، قصدوا بذلك النيل من هذا الدين «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» (الصف/8).

عزيزي الدارس: وللاطلاع على المزيد من حرص الإسلام على معالجة قضية الرق باشر إلى حل النشاط الآتي:



نشاط (7)

ارجع إلى كتاب إعجاز القرآن الكريم تأليف د. فضل حسن عباس، ولخص الصفحات (314 - 318) المتعلقة بتأكيد الإسلام على عتق الرقاب.

8\6 تحريم البغاء والأمر بالعفة والطهارة

عزيزي الدارس: تبين لك من الفقرة السابقة بعض مظاهر رحمة الله تعالى على العبيد والإماء من نعمه جل جلاله عليهم أنه نهى عن رذيلة كانت شائعة في المجتمع الجاهلي مبعثها حب المال والتحكم في الرقيق، فقد كانوا يؤجرون عبيدهم للزنى...

عن جابر رضي الله عنه أن جارية لعبدالله بن أبي سلول يقال لها فسيكة، وأخرى يقال لها أميمة كان يكرههما على الزنى، فشكتا ذلك إلى الرسول ﷺ، فنزلت قوله تعالى: «وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (النور/33). (صحيح مسلم ط 1 - بيروت 1930 - دار الكتب العلمية (18/163)).

عزيزي الدارس: تأمل كيف عبر عن الإماء بالفتيات ؛ وذلك لتكريمهن وتقديرهن ففي الحديث: «لا يقل أحدكم عبدي، فكلكم عبيد الله، ولكن ليقل فتاي، ولا يقل العبد ربي ولكن ليقل سيدي» (صحيح مسلم ج (15) ص (6)).

فالله تعالى قد نهى المؤمنين عن إكراه فتياتهم اللاتي يملكوهن على الزنى إن كرهنه وأردن العفة والطهر مقابل بعض المال يأخذونه من وراء إكراههن على ذلك.

عزيزي الدارس: قد يتبادر إلى ذهنك هذا التساؤل هل قوله: «إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا» يفهم منه أنهن إن لم يردن التحصن يكرهن على ذلك؟

والحقيقة أن المراد منه بيان الواقع الذي من أجله أنزلت الآية، هذا جانب، وجانب آخر أن الإكراه لا يتصور عند رضاهن بالزنى واختيارهن له، وإنما يتصور عند كراهتهن له، وعدم رضاهن عنه.

وجانب ثالث: أن في هذا التعبير تعيير لهم: فكأنه يقول: كيف يقع منكم إكراههن على البغاء ؟ يا له من جرم قبيح تكرهون فتياتكم على الزنى، وهن يردن الإحصان والعفة.. ألم يكن الأولى بكم والأليق أن تعينوهن على العفاف والطهارة، لا أن « تكرهوهن لأنكم تبتغون عرض الحياة الدنيا ؟ يا لله من الناس في هذه الأيام، ألسنا نسمع الآن أن مصلحة

السياحة تريد أن تؤجر سيدات وفتيات يصاحبن السائحين الأثرياء الأغنياء الوافدين علينا، تؤجرهن ليقمن معهم ويصاحبنهم في أسفارهم، وحلهم، وخلواتهم، يا لله من أولئك الرؤوساء المتحللين الذين يكرهون الفتيات ويمهدون السبيل إلى البغاء العلني بحجة الحضارة والمدنية.

وماذا نعمل وقد عم الفساد والتحلل الخلقي ؟ بل والدعوة السافرة إلى الاختلاط القبيح في الإذاعة والصحف والكتب والنشرات، ونرى تأييداً لهم من كل جهة تأييداً خفياً، حتى إذا تم الأمر وتمكن الحال جاهروا بإماتة الدين والعادات الإسلامية بحجة أننا في عهد الحرية والتقدم. يا رب أنقذنا من ذلك.. (التفسير الواضح (18/62) بتصرف).

9.6 القراءات في الآية (34)

عزيزي الدارس: عرفت في فقرة سابقة أن معرفة طرق توجيه القراءات على المعاني من الأمور الضرورية لدارس كتاب الله تعالى.

ولما كانت سورة النور قد تناولت من التوجيهات الصائبة السديدة والتشريعات الحكيمة، جاء قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ» وذلك للدلالة على أن هذه الآيات المنزلة على المؤمنين هي الوضوح والكشف بحيث لا تخفى على عاقل، ويتجلى هذا المعنى من القراءات الواردة في الآية القرآنية (فقد قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر «وقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات» بفتح الياء أي لا لبس فيها.

وقرأ أهل الشام والكوفة غير أبي بكر « مبيّنات » بالكسر، والمعنى بين لكم الحلال من الحرام) (حجة القراءات لأبي زرعة ص (498)).

وهكذا تبين لك - عزيزي الدارس - من القراءات السابقة للنص القرآني أن الله تعالى قد وصف الآيات التي أنزلها على عباده المؤمنين بأنها واضحة الدلالة على ما شرعه لهم من آداب وأحكام وحدود، كما أنها مبينة وموضحة لكل ما هم في حاجة إلى بيانه ومعرفته من تشريعات وآداب ونحوها.

عزيزي الدارس: هذه المعاني ما كانت، لتظهر لولا العلم بهذه القراءات الثابتة عن رسول الله ﷺ.

10.6 ما ترشد إليه الآيات

ترشد الآيات الكريمة إلى ما يلي:

1- إرشاد المؤمنين إلى الأحكام والآداب التي بها تحفظ فروجهم، ويصان نسبهم وتمنع الفحشاء بالإذن قبل الدخول وعدم النظر والحجاب ومنع الاختلاط ونحوها.

2- دعوة المرأة المؤمنة إلى تجنب كل ما من شأنه إثارة الفتنة، والابتعاد عن كل أسباب الإثارة.

3- عدم إبداء زينة المرأة إلاّ في حدود ما شرعه الله تعالى.

4- الحض على الزواج، والترغيب فيه، وتيسيره، لإيجاد مجتمع طاهر عفيف، وتحصين أفراده من الوقوع في الفاحشة.

5- حث الذين يعجزون عن النكاح بصيانة أنفسهم إلى أن يرزقهم الله تعالى القدرة عليه.

6- الحرص على عتق العبيد، والإنعام عليهم بالحرية بمساعدتهم، وعدم إكراه إماء المؤمنين على الفجور إن أردن الطهر والعفاف.

7- بيان أن قوة المجتمع ووحدته وتماسكه وسلامته إنما يكون بتنفيذ أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه.

أسئلة التقويم الذاتي (5)

1. ما معنى الاستئناس ؟ وما المراد بالمكاتبة ؟
2. اذكر آية ترشد النساء إلى قضايا مهمة، وفسرها تفسيراً إجمالياً.
3. لم نهى القرآن الكريم عن الزينة، مع أن المراد مواضعها ؟ وما دليل ذلك من السنة ؟
4. ما المراد بالبعول ؟ ولم بدئ بهم قبل غيرهم ؟
5. ما العلاج الذي يصرف الإنسان عن الزنى ؟ وما الحكم لو عجز عن النكاح ؟
6. ما الآية التي ترشد المؤمنين لمنع الفاحشة ؟
7. ما سر الجمع بين غض البصر وحفظ الفرج ؟
8. ما حكم الاستئذان عند دخول البيوت غير المسكونة والتي على ظهر الطريق ؟
9. ما الآية التي تنهى المؤمنين عن النظر إلى الأجنبيات ؟ ولم خص المؤمنات بالذكر مع أنهن يدخلن في أمر القرآن للمؤمنين ؟
10. اذكر أربع فوائد تترتب على غض البصر عن المحرم.
11. لم حث الله تعالى المؤمنين على تيسير زواج الأحرار، والصالحين من العبيد ؟ ولم خص الصالحين من العبيد دون الأحرار ؟
12. اذكر حالتين تدلان على عناية الإسلام بقضية الرق، وما الدليل على ذلك ؟
13. وضّح القراءات الواردة في قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ» وبيّن معناه على ضوئها.
14. ما حكم المسائل الآتية:
    (1) إظهار المرأة زينتها على ابن خالتها.
    (2) كشف المرأة وجهها في الأماكن العامة كالأسواق.
    (3) دخول الرجل على زوجته دون استئذان.
    (4) كان قادراً على النكاح ويخشى إذا تركه أن يقع في الزنى.
    (5) إكراه فتيات المؤمنين اللاتي يملكونهنّ على الزنى.
15. اختر الإجابة الصحيحة: معنى الأيامى في قوله تعالى: «وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ»
    (1) الأيامى: جمع أيم وهو من لا زوج له من الذكور، وكان بكراً.
    (2) هو من لا زوج له من الإناث، وكانت ثيباً.
    (3) هو من لا زوج له ذكراً كان وأنثى ثيباً، أو بكراً.
    (4) هو من لا زوج له ذكراً كان أو أنثى وكانا ثيبين.

7. الخلاصة

عزيزي الدارس: هذه هي الوحدة الثالثة التي يفسر فيها الآيات (1 - 34) من سورة النور وقد درست في هذه الوحدة:

سبب تسمية سورة النور ومناسبتها لما قبلها، ومدنيتها، وترتيبها في النزول وأهم أهداف هذه السورة، ومن المفيد أن أوجز أهم القضايا الرئيسة التي وضحت من خلال الآيات السابقة وهي:

1) ذكر بعض المفردات وبيان معناها.
2) ذكر المعنى الإجمالي مع ما تدعو الحاجة في ذلك المعنى.
3) بيان حكم الزنى والعقوبة التي تترتب عليه.
4) حكم قذف المحصنات.
5) سبب نزول قوله تعالى «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً» وسبب نزول آيات الملاعنة، وآية الإفك وغيرها من الآيات مما يتعين ذكر سبب نزولها لتوضيح المعنى.
6) حكم اللعان وبيان رأي الفقهاء فيه هل هو شهادة أو يمين.
7) ذكر القراءات في الآية السادسة وفي الآية 34.
8) بيان مواطن البلاغة والإعجاز في الآية العاشرة.
9) بيان براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وحكم من أشاع الفاحشة.
10) تأديب الله تعالى للمؤمنين في حادثة الإفك بإبراز السلوك الصحيح والتثبت من صحة الأخبار واستعظام هذه المقالة، وعدم إذاعة الفاحشة.
11) رحمة الله تعالى بالإمهال وقبول التوبة، والتحذير من العودة إلى مقالة السوء.
12) بيان حكم الاستئذان عند دخول البيوت والأماكن غير المسكونة.
13) كما وضحت آداب الاختلاط والأمر بغض البصر.
14) حفظ الفروج وعدم إظهار الزينة لغير المحارم.
15) تحصين أفراد المجتمع وسترهم بالزواج الشرعي.
16) الحث على إعتاق العبيد وإكرامهم.
17) كما حرمت البغاء وأمرت بالعفة والطهارة.

8. لمحة مسبقة عن الوحدة الدراسية الرابعة

عزيزي الدارس، تبين لك ما سبق أهم المسائل التي وضحت في الآيات (1 - 34) من سورة النور، ونبين لك الآن القضايا الرئيسة التي ستتضمنها الوحدة الرابعة التي يفسر فيها ما تبقى من سورة النور (35 - 64) وهي:

1) ذكر الألفاظ الغريبة وبيان معناها.
2) المعنى الإجمالي وأهم ما ترشد إليه الآيات الكريمة.
3) القراءات في الآيات 35، 43، 52.
4) الحكمة من ضرب الأمثال والعبرة من الأمثال في الآيات 35 - 40.
5) أهمية بيوت الله في الأرض.
6) بيان حال الكافرين ومآلهم.
7) بيان عظمة الله وقدرته التي تظهر من تسبيح المخلوقات، وإزجاء السحاب، وإنزال المطر، وتقليب الليل والنهار، وخلق الدواب من ماء.
8) مقارنة بين مواقف المؤمنين، ومواقف الكافرين، وبيان إعراض المنافقين عن التحاكم إلى شريعة الله.
9) معنى الاستخلاف في الأرض، وحقيقته وشروطه.
10) تحقيق وعد الله لعباده المؤمنين.
11) استئذان الإماء والأطفال في ثلاثة أوقات.
12) لباس المرأة في كبرها.
13) البيوت التي يباح الأكل منها.
14) الاستئذان عند الانصراف.
15) وأخيراً: وجوب طاعة الله تعالى وخوفه، وتوقير الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وعدم مخالفة أمره.

9. إجابات التدريبات

تدريب (1)

الآيات القرآنية الأربع التي جاء فيها كلمة آية، ومعناها في كل موضع هي:

(1) قوله تعالى: «سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ» (البقرة/211).
ومعناها: المعجزة.

(2) قوله تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا» (الروم/21). بمعنى الدليل.

(3) قوله تعالى: «إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ» (البقرة/248).
بمعنى العلامة.

(4) قوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً» (آل عمران/49). وتأتي هنا بمعنى «العبرة».

تدريب (2)

القراءات الواردة في كل آية من الآيات الثلاث الآتية ومعنى كل نص:

(1) قوله تعالى: «فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ» (القصص/8) قرأ حمزة والكسائي «وحُزنا» بضم الحاء وسكون الزاي.

وقرأ الباقون بفتح الحاء والزاي: وهما لغتان مثل البُخل والبَخل والعُجم والعَجم وفي التنزيل «وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ» (يوسف/84).

وقال «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ» (فاطر/34). (حجة القراءات لأبي زرعة، ص 542).

(2) قوله تعالى «فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ» (الأعراف/117) قرأ حفص عن عاصم فإذا هي تلقف ساكنة اللام من لقفت الشيء ألقفه. وقرأ الباقون: تلقّف: بالتشديد من تلقّف يتلقف على وزن تعلّم يتعلّم والأصل: تتلقف فحذفوا إحدى التاءين مثل (تذكّرون) و«يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ» (هود/105) أي لا تتكلم. وقرأ البزي: فإذا هي تلقّف بتشديد التاء وأراد (تتلقف)، فأدغم التاء في التاء. (حجة القراءات، ص 292).

(3) الآية الثالثة قوله تعالى: «لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» (القصص/29).

قرأ عاصم: جذوةٍ من النار بالفتح.

وقرأ حمزة: جذوةٍ بالضم.

وقرأ الباقون: جذوةٍ بالكسر.

ثلاث لغات مثل: ربوة، ربوة، رُبوة، وسمعت الشيخ أبا الحسين يقول سمعنا قديماً بعض أهل العلم يقول (جذوة، قطعة، جذوة وجذوة: شعلة) (حجة القراءات ص 543، 544).

تدريب (3)

العظات والعبر التي تؤخذ من قصة الإفك:

(1) صيانة الله سبحانه وتعالى أنبياءه أن تقع زوجاتهم في خيانة زوجية حتى لا يكون منفراً من دعوتهم ومانعاً عن الاهتداء بهم.

(2) إن في هذه القصة عزاء وسلوى للعفيفات اللاتي يرمين زوراً وكذباً بالفاحشة فهذه الصديقة وزوج الرسول قد رُميت بما هي براء، منه ومن قبل رمى اليهود السيدة مريم البتول بالزنى فما دنس ذلك من شرفها، بل زادها رفعة.. وليكن للمحصنات المؤمنات الغافلات اللاتي لا يسلمن من مقالة السوء فيها عزاء وسلوى.

(3) أدب الصحابة رضوان الله عليهم في معاملة النساء المسلمات، ولا سيما نساء النبي ﷺ، والمبالغة في توقي مواطن الريبة والتهمة.

(4) حسن معاشرة النبي ﷺ لأزواجه ورحمته بهن. وضبط النفس حتى في المواقف التي يستبد بالنفس البشرية فيها الغضب.

(5) كرامة بيت أبي بكر - رضي الله تعالى عنه - على ربه، فقد شاء الله أن يبرئ عائشة من فوق سبع سموات، وأن ينزل في شأنها قرآناً يتلى إلى يوم الدين، وهذا بعض ما جوزي به رجل دخل في الإسلام من أول يوم، وبذل نفسه وأهله وماله لله ولرسوله.

تدريب (4)

اعلم - عزيزي الدارس - أن كلام العلماء في قوله تعالى: «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا» يرجع إلى ثلاثة أقوال:

الأول: أن الزينة هنا أنفس شيء من بدن المرأة كوجهها وكفيها.

الثاني: أن الزينة هي ما يتزين به خارجاً عن بدنها.

وعلى هذا القول ففي الزينة المذكورة الخارجة عن بدن المرأة قولان:

أحدهما: أنها الزينة التي لا يتضمن إبداؤها رؤية شيء من البدن كالملاءة التي تلبسها المرأة فوق القميص والخمار والإزار.

والثاني: أنها الزينة التي يتضمن إبداؤها رؤية شيء من البدن كالكحل في العين، فإنه يتضمن رؤية الوجه أو بعضه، والخضاب والخاتم، فإن رؤيتهما تستلزم رؤية البدن، وكالقرط والسوار، فإن رؤية زينة تستلزم رؤية محلها من البدن كما لا يخفى.

10: مسرد المصطلحات

عزيزي الدارس: نطالعك فيما يلي بجملة من المصطلحات الواردة في الوحدة وأهمها:

- الآية: هي جزء من السورة لها مبدأ ونهاية منقطعة لفظاً عما قبلها وعما بعدها.
- الاستئناس: الاستعلام والاستكشاف أو هو ضد الاستيحاش.
- الاستعفاف: طلب العفة واختيار طريق الفضيلة.
- الإفك: أسوأ الكذب وأقبحه.
- الأيم: هو من لا زوج له ذكراً كان، أو أنثى ثيباً أو بكراً.
- البهتان: الكذب المختلق الذي يحير المرمي به ويدهشه لشناعته.
- البيوت: المساكن التي يأوي إليها المرء ليلاً عادة.
- الجيب: فتحة في أعلى الجلباب يبدو منه بعض الصدر والعنق.
- الخمار: ما تستر به المرأة رأسها وعنقها وصدرها.
- الرمي: الافتراء باتهام إعراض الناس بفاحشة الزنى.
- الزنى: وطء الرجل المرأة في فرجها عن تراضٍ بينهما من غير نكاح، ولا شبهة نكاح.
- السورة: طائفة من الآيات متفاوتة العدد ذات فاتحة وخاتمة معلومتين شرعاً بالتوقيف.
- عصبة: الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض.
- الفاحشة: الفعل القبيح المفرط في القبح.
- اللعان: كلمات معلومة جعلت حجة للمضطر إلى قذف من ألحق العار به، ولطخ فراشه.
- اللعن: الطرد من رحمة الله تعالى.
- المكاتبة: هي عقد بين السيد وعبده مقابل مال يؤديه العبد لسيده.

11. المراجع

* القرآن الكريم.

1- الألوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 18، ادارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

2- البقاعي، برهان الدين الحسن، نظم الدرر في الآيات والسور، ط 1، 1978م.

3- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، زاد المسير في علم التفسير، بيروت - المكتب الإسلامي، جـ 6 (د. ت. ن).

4- الجيلاني، فضل الله، البخاري في الأدب المفرد، المطبعة السلفية، القاهرة، 1378هـ.

5- حجازي، محمد محمود، التفسير الواضح، ج 18، ط 3، مطبعة الاستقلال الكبرى، 1963م.

6- أبو زرعة، عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة، حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1982م.

7- الزمخشري، أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر، الكشاف، بيروت، دار المعرفة (د. ت. ن).

8- أبو السعود، إرشاد العقل السليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

9- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، ج 1، ط 3، مطبعة الحلبي، القاهرة .

10- الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، بيروت - دار المعرفة.

11- الصابوني، محمد علي، روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، ط 3، بيـــروت، 1981م.

12- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي الأحكام، ج 26، ط 1963م.

13- طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط، ج 18، مطبعة السعادة، ط 1985م.

14- ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير 252، تونس، الدار التونسية 1984م.

15- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، مطبعة دار الكتب، 1963م.

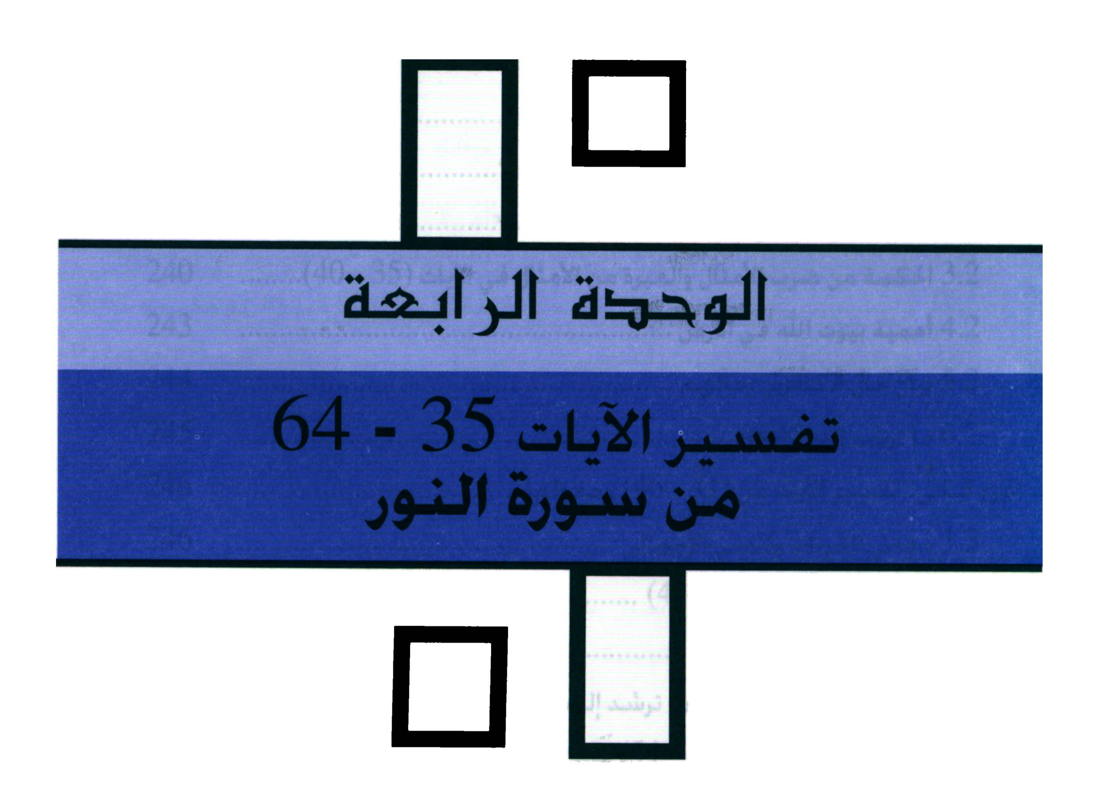
16- قطب، سيد، في ظلال القرآن الكريم، ج 18، ط 5، 1967م.

17- الكيلاني، إبراهيم زيد وإخوانه، التفسير، 1986م.

18- محيسن، محمد سالم، المستنير في تخريج القراءات المتواترة، بيروت.

19- مسلم، ابن الحجاج أبو الحسين القشيري (ت: 261هـ)، صحيح مسلم، بيروت، دار الفكر، 1978م.

20- النسائي، سنن النسائي، تحقيق عبدالفتاح أبو عدة، دار البشائر، 1986م.
21- الواحدي، أسباب النزول، دار الهلال (د.ت، د.م.).


الوحدة الرابعة
تفسير الآيات 35 - 64
من سورة النور

محتويات الوحدة

الموضوع	الصفحة

1. المقدمة

1.1 تمهيد

عزيزي الدارس، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فهذه هي الوحدة الرابعة من مقرر «التفسير» في برنامج التربية تخصص التربية الاسلامية، وموضوع هذه الوحدة هو تفسير سورة النور من آية (35 - 64) لتتعرّف -أيها الدارس- تفسير هذه السورة، وتقف على أهدافها ودروسها وأحكامها، وقد اعتمدنا في التفسير المصادر الإسلامية الأصيلة، كما اعتمدنا كذلك مصادر حديثة كتبها علماء معروفون بعلمهم وفضلهم.

تتكون هذه الوحدة من خمسة أجزاء عدا المقدمة والأجزاء الختامية.

بينت في الجزء الأول الحكم من ضرب الأمثال، وبينت حال الكافرين وخسرانهم في الآخرة.

وخصص الجزء الثاني لبيان أدلة عظمة الله وقدرته وتوضيح ذلك.

وفي الجزء الثالث قارنت بين مواقف المنافقين المستكبرين الذين يرفضون التحاكم إلى شرع الله، وبين مواقف المؤمنين المستجيبين لأمر الله ورسوله.

وفي الجزء الرابع بينت معنى الاستخلاف وشروطه وحقيقته وأن الله قد أنجز هذا الوعد وحققه لعباده المؤمنين.

أما الجزء الخامس فقد احتوى على بيان بعض الآداب الإسلامية كاستئذان الإماء والأطفال في ثلاثة أوقات فقط، وتعرضت إلى لباس المرأة المسلمة في كبرها، وعددت البيوت التي يباح الأكل منها، وآداب الإسلام في الاستئذان عند الانصراف، ثم ركزت على وجوب طاعة الله والخوف منه، ووجوب توقير الرسول عليه السلام وعدم مخالفة أمره.

وقد حرصنا في هذه الوحدة على تقديم عدة تدريبات بقصد استثارة الدوافع التعليمية في أثناء قراءة الوحدة، وهذه التدريبات ذات طبيعة مختلفة فمنها ما يستطيع الدارس أن يجيب عنه في أثناء قراءة الوحدة، ومنها ما يحتاج إلى مصادر أخرى ليجيب عنها.

وننصح لك أن تسأل مشرفك الأكاديمي عن كل ما تحتاج إليه من إجابات واستفسارات.

وتجد - عزيزي الدارس - في نهاية كل جزء من أجزاء هذه الوحدة أسئلة التقويم الذاتي التي يمكنك الإجابة عنها بعد الدراسة المتأنية والمتدبرة، وقائمة بالمراجع.

فأهلاً بك مرة أخرى، آملين أن تستفيد من دراسة هذه الوحدة مع الدعاء لك ولنا بالتوفيق.

2.1 أهداف الوحدة

عزيزي الدارس، بعد الانتهاء من دراسة هذه الوحدة واستيعاب مضمونها ينبغي أن تكون قادراً على أن:

1- تحدد الألفاظ الغريبة، وتعرف معناها.

2- تعرف المعاني التفسيرية التي تفيدها القراءات المتعددة في بعض الآيات.

3- تذكر عدداً من الأحكام الشرعية الواردة في الآيات الكريمة (35 - 64).

4- تبيّن الحكمة من ضرب الأمثال في القرآن الكريم.

5- تحرص على إقامة صلاة الجماعة في المسجد.

6- تفيد من آيات الله المبثوثة في الكون بالنظر إليها لترسيخ عقيدتك في الايمان بقدرته تعالى.

7- تقارن بين موقف الكافرين والمؤمنين.

8- تعرف آداب الإسلام في الاستئذان.

9- تحرص على طاعة الرسول ﷺ، وامتثال أوامره.

10- تحفظ الآيات (35 - 64) .

3.1 أقسام الوحدة

تتكون هذه الوحدة من مقدمة ونص رئيس وأجزاء ختامية. وقد قسّم النص الرئيس خمسة أقسام:

القسم الأول : تفسير الآيات: (35 - 40) وحفظها.

القسم الثاني : تفسير الآيات: (41 - 46) وحفظها.

القسم الثالث : تفسير الآيات: (47 - 54) وحفظها.

القسم الرابع : تفسير الآيات: (55 - 57) وحفظها.

القسم الخامس : تفسير الآيات: (58 - 64) وحفظها.

وهذه الأجزاء جميعها تتكامل وتتركز منسجمة متساوية لتفي بتحقيق الأهداف السابقة والتي أعدت الوحدة لبلوغها.

4.1 قراءات مساعدة

عزيزي الدارس، إن النصوص التي تطالعك في تفسير المعاني التي تتضمنها الوحدة ليست تفصيلية فيها كل شيء، لذلك لا بد أن تطلع على تفاصيل أعم وأشمل، وأن تتوسع في دراستها، كما وننصح لك بقراءة التفاسير والكتب التالية:

1- الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، 1981م. (جـ-2/243-258).

2- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1969م. (م 6 جـ 12 / 286 - 328).

3- قطب، سيد، في ظلال القرآن، 1967م. (م 6 جـ 18 ص 104 - 128).

4- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، طبعة دار إحياء الكتب العربية/ عيسى الباني الحلبي وشركاه. (جـ 3 / 289 - 308).

5- المودودي، أبو الأعلى، تفسير سورة النور، تعريب محمد عاصم حداد، دار الفكر، لاهور، سنة 1378هـ - 1959م.

5.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة

عزيزي الدارس، تحتاج في دراسة هذه الوحدة وإجابة تدريباتها إلى ما يلي:

1- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.

2- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داودي.

2. الجزء الأول: تفسير الآيات من (35 - 40) وحفظها

سبق أن درست -عزيزي الدارس- في الوحدة الثالثة التي مرت معك، سبب تسمية هذه السورة، وعرفت زمن نزولها، ووقفت على أهدافها ومواطن العبرة فيها، ونأتي الآن إلى هذه الوحدة، لنكمل لك تفسير آياتها، لتتم الفائدة المرجوة، وتطلع على الحكم البالغة من ضرب الأمثال، وتتبين أدلة عظمة الله وقدرته المبثوثة في الكون، وتقف على معنى الاستخلاف في الأرض وحقيقته وشروطه، وتحقيق وعد الله لعباده المؤمنين، ولتتحلّى بآداب وفضائل هذه السورة الكريمة.

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ

صدق الله العظيم (النور/35-40)

1.2 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات:

* النور: بالضم هو الضوء أياً كان أو شعاعه وسطوعه وجمعه أنوار ونيران.
* المشكاة: أي كوّة أو طاقة مسدودة غير نافذة من الخلف.
* مصباح: المصباح هو السراج الضخم الثاقب مأخوذ من الصبح لشدة إنارته.
* دري: بضم الدال وتشديد الراء والياء، منسوب إلى الدر، وهو نوع من الجواهر شديد اللمعان والصفاء والتلألؤ.
* الغدوّ والآصال: الغدو أول النهار، والآصال آخره. جمع غداة وأصيل.
* السراب: ما يُرى في الصحراء عند اشتداد الحر وانتصاف النهار كالماء يترقرق ملتصقاً بالأرض، يضرب به المثل في الكذب والخداع فيقال: أخدع من السراب، وسمّي سراباً لتسرّبه وجريانه كالماء.
* قيعة: جمع قاع، وهو المنخفض من الأرض الذي يستقر الماء فيه. وقيل: هو ما انبسط من الأرض واتسع ولا نبت فيه.
* تتقلب فيه القلوب والأبصار: تقلب القلوب: حركتها من أماكنها لشدة الخوف، وتقلب الأبصار: زَيْغوغتها ودورانها بالنظر في جميع الجهات خوفاً.
* بحر لـجّيّ: هو البحر العميق الذي لا يدرك قعره. واللجة هي معظم الماء يظهر منها صوت عند تلاطمها، وهي أيضاً أصوات الناس، وهو منسوب إلى اللج، وهو معظم البحر أو إلى اللجة.

تمهيد:

وقبل البدء بتفسير الآيات لا بد أن نبين أن آيات سورة النور قد عالجت بشكل عام مشكلات كثيرة يقع مثلها في أي مجتمع بشري، ومن هذه المشكلات ما يقع من قبل الفرج، ومنها ما يقع من قبل العين، ومنها ما يقع من قبل اللسان، وحتى يحصّن الفرج، وتعفّ النفوس شدد القرآن على الزنى ودواعيه، وعده فاحشة ومقتاً، وشدد على قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، ووضع لكل تلك المشكلات علاجاً نافعاً، ودواءً شافياً حتى قبل أن تقع لكي لا تقع، فوضع من الوسائل الواقية الكثير كالاستئذان حتى لو على الوالدين، وغض البصر، وطالب بحفظ اللسان، ونهى عن كل ما يثير الفتنة، ويوقظ الشهوة، كما أمر بالإحصان وحرّم البغاء، كل هذا حتى لا تقع الجريمة وترتكب. أما إذا وقعت فقد وضع لها قوانين رادعة وعقوبات زاجرة

كالحدود، والقصاص، والتعزير، وما إلى ذلك مما يضمن سلامة المجتمع، ويعين على تحقيق الأمن ويشيع السلام والرفاه فيه، ولو أن الإنسانية استضاءت بهذا النور لما أظلمت حياتها ولما وقعت في خطر أبداً.

ب- المعنى الإجمالي:

في هذه الآيات الكريمة ضرب الله سبحانه مثلين:

الأول: في قوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ..».

والثاني: في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ... أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ..»الآيات.

أما النور الذي ضرب به المثل الأول فقد تردد ذكر هذه الكلمة في حوالي أربع وعشرين سورة من القرآن أكثر من ثمان وثلاثين مرة؛ لتشمل عدة معان منها الإسلام والقرآن والإنجيل والإيمان والعلم والقمر وغير ذلك كثير.

وهذه المعاني تختلف اختلافاً بيناً عما ورد في المعاجم من المعاني حيث أن النور فيها: هو الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على ما يحاذيها في الأجرام (تفسير غرائب القرآن على هامش تفسير الطبري جـ 18 / 91-90).

وهو بهذه المعاني لا يصح إطلاقه على الله تعالى، وهو محال.

وقد كثرت أقوال العلماء والمفسرين في الحديث عن هذا النور الإلهي الذي أضافه جل وعلا إلى نفسه وكذلك عن معنى «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» وانسجاماً مع الخطة التي التزمناها، وهي التفسير الإجمالي للآيات فقد آثرنا عدم الخوض في مثل هذا، وأحياناً يقتضينا المقام الإطالة بعض الشيء استكمالاً للمعاني كما في تفسير هذه الآية الأولى من هذه الوحدة، فنلتمس المعذرة والعفو.

إن الله سبحانه وتعالى هو صاحب النور في السماوات والأرض، وهو خالق ذلك النور الحسي فيهما، وهو منوّرهما بما بث فيهما من كمال النظام وحسن التدبير ما لو تفكر فيهما إنسان بعقل حر بريء لآمن به إيماناً كاملاً؛ وهو تبارك وتعالى نوّر السماء بالملائكة، والأرض بالشرائع، وما فطر عليه النفوس من الفطر السليمة التي تهتدي بها إلى الحق، فنوّر السماء بالكواكب والأرض بالأنبياء (التفسير الواضح جـ 18 / 72).

ومثل هذه الهداية التي قد بلغت في الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات، وصارت في ذلك بمنزلة المشكاة التي تكون فيها زجاجة صافية، وفي الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ

النهاية في الصفاء (الرازي جـ 24 ص 232).

وضرب الله سبحانه هنا هذا المثل؛ لكي يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود.

ومثل هذا التمثيل الرائع والتصوير الفني الأخاذ يبرزان لنا صورة مؤثرة في النفس، فقد جعل النور في مصباح، والمصباح في زجاجة رقيقة في غاية الشفافية والنظافة واللمعان والزجاجة حول مصباحها، وهما مودعان في كوّة ذات منفذ واحد؛ ليكون النور مسلطاً في جهة معينة فيبدّد الظلام الحالك الذي يحيط به. هذا النور هو أشد روعة من نور الشمس الوهاج الذي لا يحيط به الظلام، وهو لا يضاهى البتة.

وهذا المصباح يشتعل من زيت شجرة الزيتون المباركة، ووصفت بالبركة لكثرة منافعها، فزيتها فيه منافع للناس، وقد أوصى الرسول ﷺ، بأكله والادّهان به، وحبّها ينتفع به أكلاً، ويستنار كذلك بزيتها، بل يدخل في أدوية وإصلاح أمور كثيرة حتى حطبها يعدّ من أجود أنواع الحطب بل ويتعدى الأمر الى جودة هواء غاباتها (ابن عاشور جـ 18 / 240).

وهذه الشجرة المباركة ضاحية للشمس لا يظلها جبل ولا شجر، ولا يحجبها عنها شيء من حين تطلع إلى أن تغرب، وذلك أحسن لزيتها فهي بين الشرق والغرب.

يكاد زيتها من صفائه ونقائه يضيء بنفسه دون أن تمسّه نار فكيف لو مسته النار؟ إذاً لازداد ضياؤه وبهاؤه، فهو نور فوق نور فقد اجتمع نور السراج وحسن الزجاجة وصفاء الزيت فاكتمل النور الممثل به، ويوفق الله عز وجل لاتباع نوره ويهديه إليه من علم الله فيه الخير وسلك طريق الهداية، فهو يعلم المصلح من المفسد. وهذه الأمثال التي يضربها الله للناس من أجل أن يعقلوا ويفهموا، وليتضح لهم سبيل الحق من الباطل، وعلمه سبحانه محيط بجميع الأشياء الظاهرة منها والباطنة.

وبعد هذا أمر سبحانه أن تبنى المساجد وتعظم، وهذا أكبر دليل على أهميتها، ومكانتها، وفضلها، وليس أدل على ذلك من أنه نسبها إلى نفسه فقال: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ» (الجن/18) ففيها تقام الصلاة ويقرأ القرآن، ويسبح الله ويتعلم العلم، وفيها رجال مؤمنون يصلون وينزهون الله، ويعظمونه صباحاً ومساءً، وقد خُصّ هذان الوقتان (الغدو والآصال) لشرفهما ولتيسر السير فيهما. وذكر كلمة (رجال) هنا أفادت التغليب فأكثر الذين يترددون على المساجد هم الرجال، أما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل كما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة.

وفيها أيضاً إشعار بهممهم السامية ونياتهم وعزائمهم العالية التي صاروا بها عُمّاراً للمساجد وهذا ما أفاده التنكير(ابن عاشور جـ 18، ص 246).

وأما صفة هؤلاء الرجال:

أولاً: لا تلهيهم الدنيا بما فيها من تجارة وبيع ولا تشغلهم عن أداء الصلاة في أوقاتها وعن دفع الزكاة لمستحقيها، فهؤلاء الرجال، وإن اتجروا وباعوا لكنهم جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم ونهاية مقصدهم، فالتجارة وإن كانت من أعظم الصوارف وأقواها عن الطاعات إلاّ أنها لم تحل بينهم وبين الآخرة التي هي خير وأبقى.

ثانياً: يخافون أهوال يوم القيامة، ففي ذلك اليوم تنخلع القلوب من أماكنها، وتبلغ الحناجر وتزيغ الأبصار من شدة الرعب والخوف، ولأنهم خافوا ذلك اليوم فسهل عليهم العمل لله وترك ما يشغل عنه.

وإن أعمالهم هذه التي يعملونها إنما يعملونها مخلصين لله تعالى من أجل أن يثيبهم الله عليها أحسن الثواب ويجزيهم أحسن الجزاء على ما عملوا، وفي هذا تنبيه على أن الله تعالى لا يجازيهم على مساوئ أعمالهم بل يغفرها لهم. لأن الله يجزيهم الجزاء الحسن على أعمالهم وفوق كل هذا يزيدهم الله من فضله وكرمه بأن يضاعف لهم حسناتهم أضعافاً مضاعفة، وقيل أن الزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم (أضواء البيان جـ 6، 241، الرازي جـ 24 ص 6). وهو سبحانه يثيب ويجزي من يشاء ثواباً لا يدخل في حساب البشر وتقديراتهم.

ولما ذكر الله تعالى حال المؤمنين وسعادتهم، ذكر حال الكافر وخسارته، وضرب لذلك مثلين: الأول: لعمله، والثاني: لاعتقاده وتخبطه في الظلمات، فأعمال الكفار التي عملوها في الدنيا وظنوها أعمالاً صالحة نافعة لهم في الآخرة، حتى إذا كان يوم القيامة ووقفوا على الحقيقة، وجدوها سراباً خادعاً لا حقيقة له ولا خير فيه، ولم يجدوا الثواب الذي كانوا يرجونه، والنعيم الذين كانوا يتمنونه بل وجدوا عذاباً شديداً وعقاباً أليماً، عندئذ تعظم حسرتهم تماماً كالظمآن في الصحراء يرى سراباً يظنه ماء حتى إذا وصل مكان ذلك السراب لم يجد شيئاً فيتقطّع قلبه هماً وغماً.

هذا حال الكافر حتى إذا هلك وصار محتاجاً إلى عمله الذي كان يظن أنه سينفعه لم يجده شيئاً؛ لأنه كان على كفر بالله تعالى فوجد هذا الكافر الله له بالمرصاد فوفاه يوم القيامة حساب أعماله التي عملها في الدنيا وجازاه بها جزاءً يستحقه عليها.

وأما عن معتقده: فمثل أعمال هؤلاء الكفار، وقد عظم جرمهم وتراكمت ذنوبهم من سوء عملهم وفساد سرائرهم وبطلان معتقدهم، يجد الواحد منهم نفسه كأنه قد قذف في بحر عميق متلاطم الأمواج، وقد علته الغيوم وتلبدت من فوقه، واشتد ظلام ليله. فإذا حاول أن يرى يده لم يستطع أن يراها، ذلك أنه فقد نور ربه، وهذا مثل لقلب الكافر ولأن الكافر يتقلب

في ظلمات ثلاث: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة الفعل. ذكر الله تعالى في التمثيل والتشبيه ظلمات ثلاث: ظلمة البحر، وظلمة الأمواج يعلو بعضها بعضاً، وظلمة السحاب من فوقها جميعاً. نعوذ بالله منها، ونسأله سبحانه أن يملأ قلوبنا بنور الهداية، والإيمان، والمعرفة، وأن يشملنا بفضله وإحسانه ورحمته.

2.2 القراءات الواردة في الآية «35»

نور: قرأها يزيد من طريق ابن أبي عبلة وابن مشيا (نوّر) على أنها فعل، وقرأ السموات والأرض بالنصب، وكذا رويت قراءتها عن علي رضي الله عنه (غرائب القرآن على هامش تفسير الطبري جـ 18/90، مختصر في شواذ القرآن / 101، التسهيل جـ 3/11، روح المعاني جـ 18/164، 165).

دريّ: قرأها نافع وابن عامر وحفص بضم الدال ومشددة الياء بغير همز ويحتمل على هذه القراءة أن تكون منسوبة إلى الدر؛ لفرط ضيائه وبهاء نوره وحجتهم حديث النبي ﷺ: «إنكم لترون أهل عليين في عليين كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء. وإن أبا بكر وعمر وأنعما» (رواه أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه 3/61).

واستشهد بهذا الحديث ابن منظور في لسان العرب مادة «نعم» (حجة القراءات/499).

ويجوز أن يكون (فُعيّلاً) من الدرء وهو الدفع، وهو أن يدفع بنوره من أن ينظر الناظر إليه فخففت الهمزة فانقلبت ياء كما تنقلب من النبيء، ثم أدغمت في الياء.

وقرأ حمزة وأبو بكر وبعض قراء الكوفة بضم الدال وهمزة على وزن (فُعيّل) من الدرء هو الدفع، ودريء الكوكب أي دفع ورجم به الشيطان من قوله تعالى: «وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ» أي يدفع وحكى سيبويه عن أبي الخطاب: (كوكب دريء) من الصفات ومن الأسماء. وقرأها بعض قراء البصرة والكوفة وأبو عمر والكسائي: (دِرّيء) بكسر الدال وهمزة مثل سكّير وفِسّيق) من الدرء. والمعنى: أن الخفاء يُدفع عنه لتلألؤه في ظهوره فلم يخف (حجة القراءات /499، تفسير الطبري جـ 18/109، روح المعاني جـ 18/166).

وعن نصر بن عاصم، وأبي رجاء ، وسعيد بن المسيب، وأبّان بن عثمان (دَرّيء) بفتح الدال وتشديد الراء وبعدها همز. وقرأها قتادة وأبان بن عاصم والنبي ﷺ، (دريٌ) بالتخفيف في الجميع. وقرأها أبان عن عاصم: (درى) بالتخفيف أيضاً لكن بفتح الدال وإسكان الراء (مختصر في شواذ القرآن الكريم ص 102).

أما ابن جرير الطبري في تفسيره فقد قال: والذي هو أولى القراءات عندي في ذلك بالصواب قراءة من قرأ (دُرّيّ) بضم داله وترك همزة على النسبة إلى الدر (تفسير الطبري جـ 18/109).

(٣) (يوقد) قرأها بعض المكيين والمدنيين وبعض البصريين (تَوَقَّدَ) بالتاء وفتحها وتشديد القاف وفتح الدال. وقرأ بعض عامة قراء المدنيين (يوقد) بالياء وتخفيف القاف ورفع الدال. وقرأ عامة قراء الكوفة (توقد) بضم التاء وتخفيف القاف ورفع الدال. وقرأها بعض أهل مكة (توقد) بفتح التاء وتشديد القاف وضم الدال بمعنى تتوقد. ثم أسقطت إحدى التائين اكتفاءً بالباقية من الذاهبة (تفسير الطبري جـ 18 ص 109).

قال ابن جرير: فبأي القراءات قرأ القارئ فمصيب (انظر الطبري جـ 18/109).

قرأها أبو عامر وابن كثير: (توقّد) على أنها فعل ماض فاعله المصباح وقيل الكوكب. (حجة القراءات / 500).

وقرأها اسماعيل عن ابن كثير (تُوقَّدُ) بالتاء المضمومة والدال مع تشديد القاف بعد واو مفتوحة (مختصر شواذ القرآن / 102).

(٤) (زجاجة) قرأها أبو رجاء ونصر بن عاصم بكسر الزاي، وروى ابن مجاهد عن نصر بن عاصم بفتح الزاي. قال ابن خالويه فيها ثلاث لغات بفتح، أو بضم، أو بكسر الزاي (مختصر في شواذ القرآن / 102).

تدريب (1)

ضع علامة (√) بجانب الجواب الصحيح.

أحبط الله أعمال الكافرين الخيّرة لأنهم:

1- كانوا يفاخرون بها الناس.

2- ظنوا أنها أفضل من الإيمان بالله وبالرسول ﷺ..

3- جحدوا بالله وكذبوا بالقرآن وبالرسول عليه السلام.

4- كل ما ذكر صحيح.

2.3 الحكمة من ضرب الأمثال والعبرة من الأمثال في الآيات(35–40)

عزيزي الدارس، إن الحقائق السامية في معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت في قالب حسن يقربها إلى الأفهام بقياسها على المعلوم اليقيني. والتمثيل هو القالب الذي يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان، بتشبيه الغائب بالحاضر والمعقول بالمحسوس، وقياس النظير على النظير، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالاً

فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له واقتناع العقل به. وهو من أساليب القرآن الكريم في ضروب بيانه، ونواحي إعجازه. والأمثال: جمع مثل، والمَثل والمِثل والمثيل: كالشبيه والشبه والشبيه لفظاً ومعنى.

المثل في الأدب: قول محكى سائر يقصد به تشبيه حال الذي حُكي فيه بحال الذي قيل لأجله. مثل (رب رمية من غير رام).

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن.

والتعريف الذي يليق بمثل القرآن: «هو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس سواء أكانت تشبيهاً أم قولاً مرسلاً».

وقد تتبع ابن القيم في كتاب (إعلام الموقعين) أمثال القرآن التي تضمنت تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم فبلغت بضعة وأربعين مثلاً.

وذكر سبحانه في كتابه العزيز أنه يضرب الأمثال فقال: «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (الحشر/21).

«وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ» (العنكبوت/43).

«وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (الزمر/27).

وللأمثال حكم جليلة وفوائد عظيمة نذكر منها:

1- أنها تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيتقبله العقل، لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلاّ إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق رياء حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب فقال تعالى: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا» (البقرة/264).

2- ويضرب المثل للترغيب في الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق في سبيل الله حيث يعود عليه الإنفاق بخير فقال تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (البقرة/261).

3- ويضرب المثل كذلك للتنفير حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس كقوله تعالى في النهي عن الغيبة: «وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» (الحجرات/12).

4- ويضرب المثل لمدح الممثل به كقوله تعالى في الصحابة: «ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» (الفتح/29).

5- والأمثال أوقع في النفس وأبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر وأقوى في الإقناع؛ لذا أكثر الله تعالى منها في القرآن للتذكرة والعبرة، وضربها النبي ﷺ في حديثه، واستعان بها الداعون إلى الله في كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة، ويستعين بها المربون ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق ووسائل التربية في الترغيب، أو التنفير، في المدح أو الذم.

أما العبرة من ضرب الأمثال في الآيات (35 - 40) من سورة النور، فالمثل الأول الذي في قوله تعالى: «مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ» ضربه الله هنا لكي يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود، وليصل بين المثل والحقيقة، خاصة حين يرتقي في هذا المثل من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير؛ كي لا ينحصر التأمل في النموذج الصغير الذي ما جعل إلاّ لتقريب الأصل الكبير.

إن العقل البشري ناقص ومحدود، ويستحيل عليه إدراك الذات الإلهية مصدر النور؛ لذلك ضرب الله تعالى هذا المثل تقريباً للأفهام، وتسهيلاً لإدراكها له؛ لأن إبراز المعقول البشري في هيئة المحسوس وتصويره يزيده وضوحاً وبياناً.

حقاً - عزيزي الدارس - إن هذا التمثيل الرائع والتصوير الفني الأخاذ ليبرزان لنا صورة أخّاذة للنفس، فقد جعل النور في مصباح والمصباح في زجاجة رقيقة في غاية الشفافية والنظافة واللمعان، والزجاجة حول مصباحها وهما مودعان في كوّة ذات منفذ واحد؛ ليكون النور مسلطاً في جهة معينة فيبدد الظلام الحالك الذي يحيط به.

والمثل الثاني في هذه الآيات ضربه الله لبيان أعمال الكافرين الضالين وهو في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ» فهؤلاء يحسبون أن أعمالهم الدنيوية الخيرة التي يعملونها تقربهم عند الله، وسيجازيهم عليها خيراً كأهل مكة الذين كانوا يظنون أن السقاية والرفادة وعمارة المسجد الحرام أهم من التوحيد والإيمان بالرسول عليه السلام فاغتروا بهذه الأعمال، وتفاخروا بها على الناس فأحبط الله أعمالهم وكان مثلهم كمثل الظمآن في الصحراء يجري وراء السراب يحسبه ماءً فلا يجد شيئاً ينفعه.

أما المثل الثالث فهو في قوله تعالى: «» وهذا المثل ضربه الله تعالى لبيان معتقد الكافر الذي يعيش في ظلمات الكفر والضلال فمثله كمثل ظلمات في بحر عميق لا يدرك قعره ويعلوه موج متلاطم بعضها فوق بعض؛ وفوق ذلك الموج سحاب كثيف فصارت جميعاً ظلمات متراكمة إذا أخرج الإنسان الدافع في مثل هذه الظلمات يده القريبة منه فلا يقارب

رؤيتها. فهذا التمثيل والبيان في غاية الحسن والجمال. فلله ما أروع أمثال القرآن الكريم.

إن العقل البشري ناقص ومحدود. ويستحيل عليه إدراك الذات الإلهية مصدر النور؛ لذلك ضرب الله تعالى هذا المثل تقريباً للأفهام وتسهيلاً لإدراكها له؛ لأن إبراز المعقول البشري في هيئة المحسوس وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبياناً.

4.2 أهمية بيوت الله في الأرض

لا تجد - عزيزي الدارس - أمة من الأمم حرصت على بيوت العبادة كما حرصت هذه الأمة. ولا تجد ديناً من الأديان دعا إلى تكريم هذه البيوت ورفعة شأنها كما دعا هذا الدين الحنيف.

ومما زاد في فضل هذه المساجد وأهميتها أن نسبها المولى عز وجل إلى نفسه فقال: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ» (الجن/18). وكرم البيت دائماً يأتي من كرم صاحبه فلا أكرم. ولا أعظم من الله سبحانه ولأنها نسبت إليه وأقيمت على اسمه فلا تنبغي أن تؤسس إلاّ على التقوى والصلاح. لذا فقد نعى القرآن على أولئك المنافقين الذين بنوا مسجداً ليكون وكراً للتخريب والتدمير وإلقاء الفتنة بين صفوف المسلمين والذي عُرف بمسجد الضرار. ورغب سبحانه أن ترفع بيوت الله وتشاد من أجل أن يذكر اسم الله فيها. وأن يسبحه فيها رجال مؤمنون لا تلهيهم الدنيا عن الصلاة فيها فقال تعالى: «فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (63) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ»

وجعل الله عز وجل علامة الإيمان بالله واليوم الآخر هي عمارة مساجد الله فقال «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» (التوبة/18) والعمارة في هذه الآية على قسمين: مادية ومعنوية. أما المادية فعمارة بنيان وصيانة وتعظيم ويدخل في بنائها كنسها وتنظيفها من النجاسات والأقذار. ومنع الجنب والنفساء والحائض من دخولها. وصونها من الكفار. ويدخل فيها أيضاً عدم نشد الضالة فيها وعدم التنخم فيها أو أكل الثوم والبصل. ودخولها بعد ذلك.

وأما العمارة المعنوية فتكون بالصلاة فيها. أو الاعتكاف فيها. أو بقراءة القرآن والتسبيح والتهليل وتعلّم العلوم وتعليمها وغير ذلك من العبادات التي تفعل في المساجد. ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المسجد.

أولى المساجد بالتكريم والتعظيم المساجد الثلاثة وهي: المسجد الحرام والتي تعدل الصلاة فيه مائة ألف صلاة فيما سواه. ثم المسجد النبوي الشريف والتي جعل الرسول الصلاة فيه تعدل ألف صلاة فيما سواه. ثم المسجد الأقصى. والذي جعلت الصلاة فيه خمسمائة صلاة فيما سواه. فهذه المساجد الثلاثة أعظم البيوت وإليها تشد الرحال.

وقد كان لبيوت الله دور بارز في حياة الأمة الإسلامية عبر عصورها وأزمنتها. وكان لها رسالة وغاية قد حققتها:

فكانت المساجد بيوتاً للعبادة. ومدرسة للنور الإلهي والتهذيب الروحي. ومنارة للعلم والمعرفة. ومقراً للشورى. وبيتاً للمال وحلبة للمصارعة ومضماراً للمباراة والتدريب على السلاح. منها تخرج أصحاب رسول الله ﷺ. فغيّرت أحوالهم.

فبعد أن كانوا حفاة عراة عالة على الأمم يعيشون على هامش الحياة جعلت منهم أئمة مصلحين وهداة للعالم. وقادة فاتحين ففتحوا الدنيا شرقاً وغرباً في زمن هو معجزة في قصره. وثبتوا قواعد العدل والمساواة حيثما حلّوا.



نشاط (1)

اكتب بحثاً يتكون من خمس صفحات بعنوان «مسجد الضرار دوافعه وأهدافه» وأرسل به إلى مشرفك الأكاديمي.

5.2 بيان حال الكافرين ومآلهم

بعد بيان حال المؤمنين. وأنهم في الدنيا يكونون في نور الله وبسببه يتمسكون بالعمل الصالح. وفي الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم والثواب العظيم. أتبع ذلك بيان حال الكافرين ومصيرهم في الآخرة فإنهم يكونون في أشد الخسران. فالأعمال الصالحة التي يعملها الكفار مثل صلة الأرحام. والإحسان إلى الفقراء. وإقامة المشاريع الخيرية. ويظنون أن هذه الأعمال نافعة لهم في الآخرة وتنجيهم من عذاب الله مع جحودهم بالله وتكذيبهم بالقرآن وبالرسول. هم في حقيقة الأمر يعيشون في خداع وغرور. ففي الآخرة يخيّب الله آمالهم فيلقون ما فعلوه خلاف ما قدّروا وحسبوا. فهو شبيه بسراب في صحراء يتبعه صاحبه الظامئ وهو يتوقع الرّي وهو غافل عما ينتظره وسيلاقيه. فلا يجد الماء الذي يرويه. بل يجد أمامه الله عز وجل الذي كفر به وجحده وخاصمه وعاداه. يجده بالمرصاد ليوفيه حسابه.فتأخذه الزبانية إلى جهنم التي يسقى فيها الحميم والغسّاق. وهو من الذين قال الله فيهم: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ

أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا» (الكهف/103-106). فجازاهم الله الجزاء الأوفى على أعمالهم في الدنيا فجعله هباءً منثوراً، ووجدوا عذاباً شديداً، وعقاباً أليماً.

6.2 ما ترشد إليه الآيات

1- الله سبحانه وتعالى هو مصدر النور للكون والكائنات جميعاً، وهي دعوة إلى إضاءة القلوب بنور الله.

2- الهداية بتوفيق من الله تعالى يهدي لنوره من يشاء، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

3- إحاطة علم الله تعالى، وأنه هو الرزاق، وأن مشيئته نافذة لا رادّ لها.

4- وجوب عمارة المساجد مادياً ومعنوياً؛ لأنها أفضل البيوت وأكرمها عند الله تعالى.

5- صلاة الرجال في المساجد أفضل، بينما صلاة المرأة في بيتها أفضل.

6- بيان صفة عمّار المساجد:

أ- لا يشغلهم عن الآخرة شيء من أمور الدنيا كتجارة أو بيع أو شيء.

ب- يخافون الآخرة التي لرؤية جحيمها تنخلع القلوب، وتزوغ الأبصار.

7- بيان فوائد شجرة الزيتون.

8- بيان بطلان أعمال الكافرين، وأنهم لا ينتفعون منها بشيء إلاّ في الحياة الدنيا، أما في الآخرة فسيجعلها الله هباءً منثوراً.

?

أسئلة التقويم الذاتي (1)

1- اذكر الفوائد التي عرفتها من التعبير بكلمة (رجال) في قوله تعالى:

«رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ».

2- ما معنى المفردات التالية:

(مشكاة، الغدو والآصال، قيعة، بحر لجيّ).

3- اذكر القراءات الواردة في كلمة «دريّ».

4- عدّد أربع حكم من ضرب الأمثال في القرآن.

5- ما المراد بعمارة المساجد ؟ بيّن الرأي الراجح فيها.

6- ضرب الله مثلين لبيان حال الكافرين يوم القيامة. وضحهما.

3. الجزء الثاني: تفسير الآيات من (41 - 46) وحفظها

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

صدق الله العظيم (النور/ 41-46)

1.3 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات:

* ألم تر: ألم تعلم علماً يشبه المشاهدة في اليقين والثقة بالوحي أو بالدليل.
* يسبح: ينزه ويقدس ذاته عن كل نقص.
* صافات: باسطات أجنحتهن في الهواء.
* كلٌّ: كل واحد مما ذكر.
* ولله ملك السموات والأرض: أي الله مالك السموات والأرض، وما فيها من خزائن المطر والرزق والنبات ومتصرف فيها إيجاداً وإعداماً.
* وإلى الله المصير: إليه المرجع والمآب.

* يزجي: يسوق برفق وسهولة.
* يؤلف بينه: يضم ويجمع بعضه فوق بعض.
* يجعله ركاماً: بضم الراء متراكماً بعضه فوق بعض.
* الوَدْق: مصدر وهو المطر.
* من خلاله: من فتوقه ومخارجه.
* وينزل من السماء: من الغمام، وكل ما علاك فهو سماء.
* من برد: وهو قطع الماء المتجمد.
* يكاد: يقرب.
* سنا برقه: ضوء البرق الذي في السحاب، والبرق: جمع برقه.
* يذهب بالأبصار: أي بأبصار الناظرين إليه من فرط الإضاءة.
* يقلّب الله الليل والنهار: بالتعاقب بينهما فيأتي بكل منهما بدل الآخر، أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر.
* لعبرة لأولي الأبصار: للدلالة على وجوده وكمال قدرته، وإحاطة علمه وتنزهه عن الحاجة لمن يتأمل ذلك من أهل العقول والأبصار.
* دابة: اسم يطلق على كل ما دب ودرج على وجه الأرض، وتستعمل عرفاً للدواب ذوات الأربع.
* من ماء: هو جزء مادته، أو هو النطفة تنزيلاً للغالب منزلة الكل.
* فمنهم من يمشي على بطنه: كالحياة والهوام من الحشرات.
* ومنهم من يمشي على رجلين: كالإنسان والطير.
* ومنهم من يمشي على أربع: كالبهائم والأنعام ويندرج فيه ما له أكثر من أربع كالعناكب وغيرها.
* مبينات: موضّحات ومفسرات وكاشفات.

ب- المعنى الإجمالي:

عزيزي الدارس، بعد أن بيّن الله في الآيات السابقة مثل المؤمنين وصفاتهم التي يجب أن يتصفوا بها، ومثل الكفار وما آلوا إليه نتيجة أعمالهم ومعتقداتهم وبعد ذلك أتبع المولى جلت قدرته بأدلة على قدرته، وعلى أنه سبحانه وتعالى وحده المستحق للعبادة والطاعة. وساق هذه الأدلة بأسلوب فيه استفهام تقريري، وفي ذلك إشارة واضحة منه إلى أن تسبيح هذه الكائنات عاقلها وغير عاقلها وانقيادها له واضح إلى حد أن يُرى ويُعلم علماً لا شك فيه:

ألم تعلم أيها النبي وكل مخاطب أن كل من في السموات والأرضين من العقلاء وغيرهم ينزه الله تعالى ويقدسه: الملائكة والإنسان والجن والجمادات، والطير الباسطات القابضات أجنحتها حال طيرانها في جو السماء لكيلا تسقط. ولكل واحد من هذه المخلوقات صلاة وعبادة بحسب حاله، خاصة به، ولائقة به قد علّمه الله إياها، وألهمها له، والله عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه شيء من أفعالهم سواء في حالة الطاعة أم المعصية ومجازيهم عليها. ويبين كذلك أنه مالكٌ لجميع ما في السموات والأرضين، ومتصرف فيها خلقاً وإماتة، وهو الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلاّ له، وإليه وحده المصير والمعاد فيجازيهم على أعمالهم.

(٢) ثم يبين سبحانه دليلاً كونياً آخر على وجوده وتوحيده:

فالله سبحانه وتعالى هو الذي يسوق السحاب إلى حيث يشاء، ويجمع بعضها بعد أن كان متناثراً مبعثراً في الجو؛ ليجعل منه سحاباً متراكماً بعضها فوق بعض كأمثال الجبال في طبقات الجو الباردة، فترى المطر يخرج من بين السحاب نقطاً متفرقة؛ ليجعل بها الانتفاع دونما ضرر، فسبحانه مقسم الأرزاق حيث يسوق السحاب إلى بلد ميّت إذا شاء، ويحرم بلدة أخرى منه لحكمة هو يعلمها. ويخرج سبحانه كذلك من هذه السحب المتلبدة المظلمة البرق الذي يخطف أبصار الناظرين من شدة إضاءته وقوة لمعانه.

وإن ظهور البرق الخاطف والرعد القاصف وسط السحاب المملوء ماءً لدليل عظيم على قدرة الله وتصريفه الكامل لذوي البصائر المستنيرة، وخصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون وحدهم.

(٣) ويذكر سبحانه دليلاً ثالثاً على كمال توحيده ووجوده وهو اختلاف الليل والنهار فيتصرف فيهما بزيادة أحدهما ونقص الآخر وتغير أحوالهما بالحرارة والبرودة، وتعاقبهما بنظام ثابت دقيق، إن في ذلك لدليلاً على عظمته تعالى وعظة لمن تأمل من ذوي العقول. ودلل المولى عز وجل على كمال وحدانيته وكمال قدرته بأن خلق كل دابة من ماء فبين أنه خلق كل أنواع الحيوانات التي تدب على الأرض من ماء واحد هو أسّ مادتها، وأساس تكوينها، أو هو النطفة التي يحملها المني الحيواني الذي تلقح به بويضة الأنثى في منيّها، وسبب تخصيص الماء بالذكر أنه أصل الخلقة الأولى، ولأنه لا بقاء للحيوان بدونه، وأنواع الحيوان كثيرة فمنها من يمشي زحفاً على بطنه بانقباض عضلات البطن وانبساطها كالحيات والأسماك وسائر الزواحف، ومنها من يمشي على رجلين كالإنسان والطائر، ومنها من يمشي على أربع كالأنعام، وسائر وحوش البر. ثم ختم تعالى إيراد أدلة التوحيد ببيان جامع فأخبر أنه أنزل في هذا القرآن آيات مفصلات واضحات دالة على وجود الخالق المدبر للكون، ومرشدة إلى طريق الحق والسداد بما فيها من حكم وأحكام

وأمثال بينة محكمة، وأنه تعالى يرشد إلى تفهمها وتعقّلها أولي الألباب والبصائر.

2.3 القراءات الواردة في الآية «43»

(١) «يُؤَلِّفُ»: قرأ نافع برواية ورش (يولف) بغير همز.

(روح المعاني جـ 18/190)

(٢) «مِنْ خِلَالِهِ»: عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قرأها (من خلله) بفتح الخاء من غير ألف (تفسير الطبري جـ 18/118، ابن كثير جـ 3/297).

قال هارون فذكرت ذلك؛ أي هذه القراءة لأبي عمرو فقال إنها لحسنة، واختار الطبري (من خلاله) بكسر الخاء وبألف؛ لإجماع القراء عليها.

(٣) «يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ»: قرئ بالمد بمعنى العلو وبإدغام الدال في السين، وبرقه بضم الباء وفتح الراء وهو جمع برقة.

(٤) «يَذْهَبُ»: ذهب قُراء الأمصار على أنه بفتح الياء. أما أبو جعفر القارئ فإنه قرأها بضم الياء، واختار الطبري الفتح.

3.3 أدلة عظمة الله وقدرته

بعد أن عرفت - عزيزي الدارس - معنى الآيات، لا بد أن تتعرف بعد ذلك الأدلة الكونية على وجود الله سبحانه وعظمته وقدرته وهي:

1- تسبيح المخلوقات له:

فهذه المخلوقات كلها في هذا الكون تنزه الله تعالى وتقدسه وتخشع له، وتنقاد لأمره ولعظمته، ولكل من هذه المخلوقات صلاة وعبادة خاصة بها، ولائقة بها قد علّمها الله إياها وألهمها له كما قال تعالى: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» (الاسراء/44) فالطير يصلي ويسبح، وكذلك الرعد ويسجد له كل من في السموات والأرض «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ» (الحج/18)

وتسبيح العقلاء يكون باللسان أما غير العقلاء فيكون بلسان الحال.

فكل هذه العوامل إذاً سواء التي في السماء، أو التي في الأرض، أو عوالم الطير الذي يعيش في الجو، أما أنه خص الطير حالة طيرانه في الجو فهو دليل مؤكد على قدرة الصانع

العظيم. وإن كل ما تحتويه هذه العوالم من عجائب لهي دليل ناطق على قدرة القادر جل وعلا، ووحدة الصانع العظيم سبحانه، ووصفه بصفات الكمال والجلال ما يدعو إلى تسبيحه وتحميده. وفي كل شيء له آية: تدل على أنه واحد.

ففي هذه الآيات الدالة على تسبيح المخلوقات تقرير لربوبيته وفيها لفت الأنظار إلى الكائنات العلوية والسفلية.

2- إزجاء السحاب وإنزال المطر:

يسوق تعالى بقدرته السحاب المتكون من بخار الماء الصاعد من البحار التي هي أربعة أخماس المعمورة، ثم يجمع ما تفرق من أجزائه في وحدة متضامّة، ثم يجعل بعضها متراكماً فوق بعض حتى يتكون منه سحاب عال في طبقات الجو الباردة، ثم يسوق ذلك السحاب بالرياح اللواقح إلى المكان الذي يريد إنزال المطر فيه، فينزل المطر من خلال السحاب المتكاثف الذي يشبه الجبال كما ينزل منه الثلج والبرد بحسب نسبة تأثير البرودة في الأبخرة المتصاعدة. وهكذا تتحكم إرادة الله وقدرته وتصريفه في كيفية إنزال المطر، فيصيب به من يشاء من عباده رحمة لهم، ويحجبه عمن يشاء، ويؤخر الغيث عمن يريد.

وأعجب من ذلك كله خلق الضد من الضد، وهو النار من السحاب البارد حتى ليكاد أو يقرب ضوء البرق من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءت له.

3- تقليب الليل والنهار:

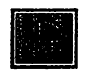
وما الليل والنهار وتعاقبهما بحيث يعقب كل منهما الآخر، ويأخذ كل منهما من الآخر، لتنقلب الأحوال الجوية فيهما من حر إلى برد أو العكس، كل هذا ليحصل أمام بصر الناس وبصيرتهم، وما هو إلاّ دليل على قدرة المتصرف بهما لو كانوا يعقلون، إنها أمثلة يكفي للبصر أن يراها ويشاهدها فيؤمن بخالقها والمتصرف بها لمجرد رؤيتها، ولا يحتاج بذلك إلى إعمال ذهن، أو تفكر وتبصّر.

4- خلق الدواب من ماء واختلاف المخلوقات:

والخلق هو الإيجاد من العدم على غير مثال سابق، فقد خلق كل دابة كائنة، سواء أكانت إنساناً، أم حيواناً، أو طيراً، أو غير ذلك إنما خلقها من ماء، وإخباره سبحانه بهذا تنبيه

للناس ولفت أنظارهم إلى حقيقة مهمة قد غفلوا عنها وتناسوها، وهي في حقيقة الأمر دلالة باهرة على القدرة الكاملة التي لا حدود لها، فعلى الرغم من أنه سبحانه خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم على رجلين، ومنهم على أربع، وقدّم الأول؛ لأنه أظهر في القدرة وأعجب وهو الماشي بغير آلة من رجل أو قوائم، ونلاحظ أن الآيات الكريمة لم تتعرض لما يمشي على أكثر من أربع كالعناكب وغيرها من الحشرات إما لعدم الاعتداد بها أو للتغليب، فالمخلوقات على الرغم من أنها خلقت من مادة واحدة لكنها مختلفة متباينة، فمثلاً يشاهد المرء النباتات تسقى بماء واحد وتعيش تحت هواء واحد، وشمس واحدة، ومغروسة في أرض واحدة ومع ذلك متباينة في الأكل، أو اللون، أو الرائحة كما بين سبحانه في قوله: «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ» (الرعد/4).

وكذلك الناس على الرغم من أنهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة لكنهم مختلفون في لغاتهم، وألوانهم، ومعادنهم فمنهم الخبيث، ومنهم الطيب، حتى أن التوأمين مع اتفاق موادهما وأسبابهما، والأمور الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محالة، فقد قال سبحانه جلت قدرته: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ» (الروم/22) وما اختلاف هذه الدواب مع وحدة أصلها إلاّ دليل بيّن على نفوذ مشيئته سبحانه وعموم قدرته وهو على كل شيء قدير.



نشاط (2)

1- يوجد آية في سورة الروم تشير إلى اختلاف الناس في لغاتهم وألوانهم. استخرج هذه الآية ثم اقرأ تفسيرها من تفسير القرطبي.

2- هناك آيتان علميتان متتابعتان في سورة فاطر تتحدثان عن اختلاف كلٍّ من النباتات، والجبال، والناس، والدواب. المطلوب: معرفة أرقامهما، ثم دراستهما من كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب.

4.3 مواطن العبرة في الآيات وما ترشد إليه

نستخلص من هذه الآيات الكريمة عبراً وحكماً منها:

1. إحاطة علم الله تعالى، وأن الكون كله إليه، وإليه المصير في النهاية.
2. أن لكل كائن من المخلوقات طريقة خاصة به يسبح فيها الله تعالى ويدعوه بها.

3- بيان قدرته تعالى التي لا تحد:

أ- يجعل الطير، وهو ذو جرم ثقيل يطير في الجو.

ب- ينزل من السحب ماء.

جـ- يؤلف بين السحب، ويزاوج بينها حتى تكون ركاماً بعضها فوق بعض وينزل منها المطر.

د- يوزع الأرزاق، فيصيب بها من يشاء، ويصرفها عمن يشاء بحكمته.

هـ- قدرته على تكوين البرق حين يؤلف بين السحاب.

و- تقليب الليل والنهار بحيث يطيل أحدهما ويقصر الآخر.

ز- خلق الكائنات الحية التي تدب على الأرض من الماء.

ح- قدرته على جعل بعض الحيوانات يمشي بدون رجلين كالزواحف.

4- بيان أن الهداية بيد الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم حسب حكمته وعلمه بحال ذلك الإنسان.

5- وجوب الاعتبار والاتعاظ بما ضرب الله تعالى من أمثلة في هذه الآيات والتبصر فيها، ليصل الإنسان إلى الإيمان اليقيني الذي لا يتزعزع بهذا الخالق العظيم، حيث جعل هذا الكون الفسيح مجال تفكر واتعاظ.

6- إن تغيّر المصنوعات تدل على كمال قدرة صانعها، وتغير المصنوع يقود إلى الإيمان بالصانع.

7- بيان أهمية الماء بالنسبة إلى جميع الأحياء.



تدريب (2)

ضع دائرة حول الجواب الصحيح.

المراد بتقليب الليل والنهار هو:

1- تعاقبهما بحيث يعقب كل منهما الآخر.

2- أن يأخذ كل منهما من الآخر.

3- انقلاب الأحوال الجوية من حر إلى برد أو العكس.

4- كل ما ذكر صحيح.

?

أسئلة التقويم الذاتي (2)

1- ما معنى المفردات التالية: (صافات، يزجي، الودق، يقلب الله الليل والنهار).

2- فسّر قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ»، ولم خص الطير حالة طيرانه في الجو بالذكر دون غيره؟

3- اذكر ثلاثة أدلة كونية على عظيم قدرة الله وتوحيده، ووضّح واحدة منها.

4- عدّد أربعاً من الحكم والفوائد المستفادة من هذه الآيات.

5- اذكر وجوه القراءات الواردة في الآية (43).

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (52) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ

صدق الله العظيم (النور/47-54)

1.4 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات:

* يتولى: يعرض ويمتنع عن قبول حكمه.
* فريق منهم: ناس يقصدون الفرقة، وهم المنافقون.
* مذعنين: طائعين منقادين؛ لعلمهم بأنه يحكم لهم.
* أفي قلوبهم مرض: كفر أو ميل إلى الظلم، ونوع الاستفهام إنكاري.

* ارتابوا: شكوا في نبوتك، فزالت ثقتهم بك.
* يحيف: يجور ويظلم في الحكم.
* بل: حرف إضراب عما قبله لإبطاله وإثبات ما بعده، ولكنها هنا إضراب انتقالي الى ما هو أعظم وأفظع.
* إذا دعوا إلى الله ورسوله: أي إلى حكم الله تعالى والرسول ﷺ.
* جهد أيمانهم: بذلوا أقصى جهدهم وطاقتهم في توكيد أيمانهم.
* لئن أمرتهم ليخرجن: أي أمرتهم بالجهاد، أو الخروج عن ديارهم وأموالهم.
* طاعة معروفة: أي طاعتكم طاعة معروفة بأنها قولية فقط لا فعلية.
* تولوا: أي تتولون وتعرضون.
* ويتقه: أي ويتق الله عز وجل ويخافه.

سبب النزول:

قال المفسرون: هذه الآيات نزلت في بشر المنافق، وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض، فجعل اليهودي يجرّه إلى رسول الله ﷺ؛ ليحكم بينهما، وجعل المنافق يجرّه إلى كعب بن الأشرف، وجعل يقول: إن محمداً يحيف علينا، ثم تحاكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي؛ لأنه صاحب الحق، فلم يرض المنافق بقضائه ﷺ، وقال: نتحاكم إلى عمر رضي الله عنه، فلما ذهبا إليه قال له اليهودي: قضى لي النبي ﷺ، فلم يرض بقضائه، فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: بلى، فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل - رضي الله عنه - بيته وخرج بسيفه فضرب به عنق المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله.

ب- المعنى الإجمالي:

وإليك المعنى الإجمالي لهذه الآيات: فبعد تلك الجولة في مجالي الكون والمشاهدة، والحجج الدامغة والبراهين القاطعة الدالة على قدرة الله تعالى التي لا تحد ووحدانيته وربوبيته، بعد هذه الجولة، يعود سياق السورة إلى موضوعها الأصيل، وهو الآداب والأخلاق الفاضلة التي ربّى عليها القرآن الكريم هذه الأمة.

وبدأ هذا المقطع بالحديث عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، إنهم يقولون أمام الناس صدقنا بالله رباً وبمحمد ﷺ، رسولاً، وأطعنا الله فيما قضى، والرسول ﷺ، فيما حكم، ثم يعرض فريق منهم عن قبول الحق، فيخالفون أقوالهم بأفعالهم، ويقولون ما

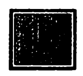
لا يفعلون، وهم قطعاً ليسوا بمؤمنين وإنما هم منافقون طبعوا على النفاق. فإذا طلبوا إلى تحكيم كتاب الله واتباع هداه وإلى الرسول؛ ليحكم بينهم في خصوماتهم، أعرضوا عن قبول حكم الله ورسوله، واستكبروا عن اتباع حكمه. أما إذا كان الحكم في صالحهم جاءوا إليه سامعين مطيعين لعلمهم بأنه لا يحكم إلاّ بالحق، وهذا دليل واضح على انتهازيتهم وإرادتهم النفع المعجل، ثم شرع القرآن يحلل نفسياتهم، ويبين بأن ترددهم وذبذبتهم بين قبول حكم النبي تارة، والإعراض عنه أخرى لأحد الأسباب الثلاثة، وهي (1) إما أنهم مرضى القلوب بالكفر والنفاق، والمرض ملازم لهم، (2) وإما أنهم شكوا في الدين وفي نبوته ﷺ، (3) وإما أنهم يخافون أن يجور الله تعالى ورسوله ﷺ، عليهم في الحكم. والباعث الحقيقي هو ظلمهم أنفسهم بكفرهم بما أنزل الله على محمد عليه السلام وعدم رضاهم به حكماً.

في هذه الآيات دليل على أن الإيمان ليس مجرد قول بل لا بد أن يصاحبه العمل، كما أنه يحرم إساءة الظن بأحكام الشريعة وأن يُظن بها غير العدل والخير.

هذا ما قاله المنافقون، وما فعلوه، وما اعتقدوه. أما المؤمنون حقاً فلهم مع الله تعالى ورسوله ﷺ، أدب غير هذا، وقول غير هذا، فإذا طلبهم أحد إلى حكم الله ورسوله في خصوماتهم سواء وافق أهواءهم أم خالفها فإنهم يقولون بلا تردد أو جدال سمعاً وطاعة، وليس هذا خبراً، وإنما تعليم أدب الشرع بمعنى أن المؤمنين ينبغي أن يقولوا هكذا، ثم بعد هذا بين سبحانه أن من يطع الله في الفرائض ورسوله في السنن، ويخشَ الله فيما مضى من عمره، ويتقه فيما بقى من عمره بترك المحظور، ويجعل بينه وبين ما يغضب الله وقاية فهو من الفائزين.

وبعد هذه المقابلة اللطيفة بين حسن أدب المؤمنين، وسوء أدب المنافقين الذين يدّعون الإيمان وما هم بمؤمنين، فإن الآيات عادت لاستكمال الحديث عن صفات المنافقين وهي حلفانهم الأيمان المغلّظة للرسول ﷺ،: لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا، وأموالنا، ونسائنا لخرجنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا، فنزلت هذه الآيات، فقال تعالى لنبيه قل: لا تقسموا فإن طاعتكم معروفة لنا فهي مجرد طاعة باللسان من غير تصديق قلبي، وقول لا فعل معه، وفي هذا نهي عن القسم القبيح الكاذب، فهو سبحانه مطلع على أعمالكم الظاهرة والباطنة خبير بكم، وبمن يطيع ومن يعصي يعلم أيمانكم الكاذبة فيجازيكم على كل عمل سيء، وفي هذا تهديد ووعيد لهم، ثم طلب الله تعالى من رسوله ﷺ، أن يقول لهم اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله، وهذا دليل على أنهم لم يطيعوا ما فيهما فإن أعرضوا وتولوا عن طاعة الله وطاعة رسوله فإن الذي على الرسول إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، أما أنتم فعليكم قبول ذلك وطاعته فيما أمر وتعظيمه فإن

أطعتموه فيما أمركم به ونهاكم عنه فإنكم تهتدون إلى الحق وما على الرسول عليه السلام إلاّ البلاغ البيّن الذي لا يُبقي لأحدٍ شكا ولا شبهة.



نشاط (3)

كانت هذه الآية الكريمة «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» سبباً في إسلام رجل من دهاقين الروم (انظر القصة في تفسير القرطبي جـ 12/295).

2.4 القراءات الواردة في الآية «52»

١ «وَيَتَّقْهِ»: قرأ نافع في رواية الحلواني (ويتّقه) بكسر القاف والهاء بالاختلاس لحركة الهاء وهي الكسر - أي من غير مد - وهو الاختيار عند أهل النحو من غير إشباع؛ لأن الأصل في الفعل قبل الجزم أن تقول: (يتقيه) وبالاختلاس. فلما سقطت الياء للجزم بقيت الحركة مختلسة كأول وهلة.

وقرأ أبو عمر وأبو بكر: (ويتقْه) بإسكان القاف وكسر الهاء أيضاً من غير إشباع الهاء وحجته أمران. أولهما أنه كره الكسرة في القاف فأسكنها تخفيفاً. والعرب تقول: «هذا فخِذ وفخْذ. وكبِد وكبْد » ويجوز أن يكون أسكن القاف والهاء معاً فكسر الهاء لالتقاء الساكنين. كما قرأ أبو بكر في أول الكهف قوله تعالى (من لدْنِهِ) بكسر الهاء. فإنه اسكن الدال استثقالاً للضمة. فلما أسكن الدال التقى ساكنان (النون والدال). فكسر النون لالتقاء الساكنين. وكسر الهاء لمجاورة حرف مكسور ووصلها بياء.

وقرأ الباقون: (ويتّقهي) بكسر الهاء لمجاورة القاف المكسورة ويتبعون الهاء بياء للتقوية (حجة القراءات / 503. 504. الكشاف جـ 2/97. القرطبي جـ 12/295).

3.4 مقارنة بين مواقف المنافقين ومواقف المؤمنين

إنها مقارنة بين فئتين من الناس تعيشان في مجتمع واحد. ويمثلان صورتين وصفحتين متغايرتين. الفئة الأولى: المنافقون الذين أظهروا الإسلام. وأخفوا في قلوبهم مرض الكفر والنفاق. وهم يمثلون صورة سيئة وصفحة قاتمة سوداء. والفئة الثانية: المؤمنون الذين استجابوا لله ولرسوله. وهؤلاء قد مثلوا الصورة الحسنة والصفحة المشرقة الناصعة.

مواقف المنافقين:

أولاً: إن هؤلاء المنافقين الذين في قلوبهم مرض، وضعف إيمان، وقلة علم يعلنون بألسنتهم الإيمان بالله وبرسوله والطاعة لهما. ثم يتولى فريق منهم عن الحق ويعرض عن الطاعة وحكم الرسول بعدما صدر عنهم من ادّعاء الإيمان والطاعة. وهذا أكبر شاهد على كذبهم ونفاقهم.

ثانياً: أنهم متقلّبون مترددون ينطلقون من الهوى والمصلحة. فيعرضون تارة عن حكم النبي ﷺ. إذا عرفوا أن الحق لغيرهم، ويقبلون به ويذعنون له تارة أخرى إذا كان الحكم في صالحهم، وأن الحق لهم لعلمهم بأنه لا يحكم إلاّ بالحق. وهذا منتهى الظلم والجهل والأنانية.

ثالثاً: أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة المغلّظة أمام الرسول عليه الصلاة والسلام للتخلي عن الأموال، والديار، والنساء، أو الخروج للجهاد إذا أمرهم بذلك. لذا أمر الله رسوله أن يقول لهم لا تقسموا على الكذب فإن طاعتكم معروفة لدينا لا تخفى على أحد منا، فقد عرفنا منكم التثاقل والكسل من غير عذر، وطاعتكم طاعة باللسان فقط دون العمل.

وقد بين سبحانه أن سبب هذه المواقف المخزية هو ظلمهم أنفسهم بكفرهم بما أنزل الله على رسوله وعدم رضاهم به حكماً، مع أن الأسباب الثلاثة الأخرى وهي إما مرض قلوبهم، أو الشك في أمر النبوة أو أنه راجع إلى خوفهم من الظلم والجور من الله ورسوله، كلها متحققة في نفوسهم، ولم ينفها الحق عنهم، بل أثبتها فيهم، لذا فقد توعدهم الله وتهددهم، بأنه لا يخفى عليه شيء من أسرارهم، وسيفضح أعمالهم الظاهرة والباطنة، وسيجازيهم على أعمالهم السيئة ومنها النفاق.

مواقف المؤمنين:

أما موقف المؤمنين الذين آمنوا بالله إيماناً حقاً، وصدقوا إيمانهم بالعمل، فهؤلاء إذا دعوا إلى حكم الله ورسوله في خصوماتهم يجيبون جواباً يليق بالمؤمنين الصادقين المخلصين، وينبئ عن قلوب استنارت بنور الله وأشرقت بهداه فيقولون بلا تردد أو جدال أو ريب، سواء وافق أهواءهم، أم خالفها: سمعنا وأطعنا، إنه سمع مطلق، وطاعة مستمدة من ثقة مطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم العدل، وما سوى ذلك فهو هوى.

لذا فقد استحق هؤلاء أن يجزيهم الله خير الجزاء . فأخبرهم بأن من يطع الله ورسوله

فيما أمراه به وترك ما ينهيانه عنه. وخاف الله فيما مضى من ذنوبه واتقاه، وتقوى الله معناها كما عرفها علي رضي الله عنه وهي «الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل». فيما يستقبل من أيامه، من يفعل ذلك فأولئك هم الذين فازوا بكل خير، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة.

4.4 إعراض المنافقين عن التحاكم إلى شريعة الله

رأيتم - أعزائي الدارسين - أن هذه القضية جدٌّ خطيرة، بل هي من أخطر القضايا التي تتعلق بعقيدة المسلم وإيمانه - والناس لا يلقون لها بالاً؛ لذا أفردتها بالبحث والتوضيح؛ لنتجنبها ونتحاشى الوقوع فيها.

مما يُلحظ في صفحات المنافقين، وخصائلهم الذميمة، أنهم يدّعون ويزعمون الإيمان والطاعة والانقياد لله ورسوله، ثم يعرضون عن قبول حكم الرسول عليه الصلاة السلام، فهؤلاء حكم الله عليهم بقوله: «وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ». ويبين سبحانه أن من مظاهر نفاقهم وكذبهم أنهم إذا طلب منهم التحاكم والتقاضي إلى الرسول أعرضوا واستكبروا، وانتحلوا المعاذير إلاّ أن تكون لهم مصلحة في التحاكم. وهذا بلا شك هدم لما زعموه سابقاً.

وقد بين سبحانه في سورة أخرى أن سبب هذا الإعراض وهذا التولي: هو أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى منهج آخر، وإلى حكم آخر وهو حكم الطاغوت، وقد حرّم الله عليهم التحاكم إليه، وقد عرفوا ذلك من قبل ولكنهم يُصرون عامدين إلى التحاكم إليه فقال جل وعلا: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا» (النساء/60).

لذا فإنه سبحانه أقسم بذاته وقرر أن لا إيمان قبل تحكيم الرسول عليه السلام، وقبل الرضاء والتسليم بقضائه وحكمه فقال سبحانه: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (النساء/65).

ويتساءل المرء المسلم لِمَ كلّ هذا؟ والجواب لأن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرّأ من الحيف، فالله العادل لا يظلم أحداً وكل خلقه أمامه سواء. أما البشر فلا بد وأن يميلوا إلى

مصالحهم ومع شهواتهم وهم يشرّعون سواء أكانوا أفراداً، أم طبقة، أم دولة. فالفرد حين يُشرّع لا بد أن يلحظ في التشريع حماية نفسه وحماية مصالحه، وكذلك حين تشرّع طبقة لطبقة، وحين تشرّع كذلك دولة لدولة. فأما حين يشرّع الله تعالى فلا حماية ولا مصلحة، إنما هي العدالة المطلقة فمن أجل ذلك وصف المنافقين بالظلم؛ لأنهم لا يريدون للعدالة أن تستقر ولا يحبون للعدل أن يسود. علاوة على أن العقول البشرية مختلفة ومحدودة وعاجزة عن معرفة ما يضرها، أو ينفعها.

تدريب (3)

ضع علامة (√) بجانب الجواب الصحيح.

تشير الآيات الكريمة إلى أن سبب إعراض المنافقين عن التحاكم إلى الله ورسوله هو:

1- اتباعهم للأهواء والشهوات.

2- خوفهم على ذهاب زعامتهم.

3- ظلمهم لأنفسهم: باستفحال النفاق فيها، والشك في نبوة الرسول عليه الصلاة السلام، والخوف من ظلم الله ورسوله لهم.

5.4 ما ترشد إليه الآيات

ترشد هذه الآيات إلى ما يأتي:

1. بيان أهم صفات المنافقين ومنها:

أ- القول باللسان وعدم الإقرار بالجنان، وأما العمل فهو رياء.

ب- نفي صفات الإيمان عنهم، إذ لا يتمتعون بأي صفة من صفاته.

جـ- لا يرضون بحكم الله تعالى أو حكم رسوله، بل يرغبون في حكم الطاغوت.

د- يتهمون الله والرسول بالظلم والجور. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

هـ- قلوبهم مريضة مرض عقيدة، لا مرض حقيقة.

و- ظالمون لأنفسهم، ولا يحبون إلاّ أن يوقعوا الظلم على الآخرين.

ز- كثرة الحلف بالله أيماناً مغلظة كاذبة ويكررونها حتى يجهدوا أنفسهم من تكرارها.

2. بيان أهم صفات المؤمنين:

أ- سرعة الاستجابة والتنفيذ لما يطلبه الله والرسول منهم.

ب) مراقبة الله تعالى في السر والعلانية، والخشية الدائمة له.

جـ) التقوى والبعد عن المحرمات والكبائر.

3- هداية التوفيق مرتبطة بطاعة الله تعالى وتنفيذ أوامره.

4- وظيفة الرسول ﷺ، هي التبليغ، وأما الهداية فأمرها لله تعالى.

?

أسئلة التقويم الذاتي (3)

1- أ- ما معنى المفردات والتراكيب التالية:

(مذعنين، يحيف، أقسموا بالله جهد أيمانهم، طاعة معروفة، تولّوا).

ب- اذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمة.

2- قارن بين موقفي المنافقين، والمؤمنين وبيّن سبب ذلك.

3- لماذا نفى الله الإيمان عن المنافقين؟

4- بيّن الحكمة في أن الله تعالى لم يجعل حق التشريع للبشر، بل اختص به وحده.

5- عدّد ثلاث صفات للمؤمنين، وثلاث صفات للمنافقين على ضوء دراستك لهذه الآيات.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ

صدق الله العظيم (النور/55-57)

1.5 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات:

* ليستخلفنهم في الأرض: ليجعلنهم خلفاء متصرفين في الأرض تصرف الملوك في ممالكهم.
* كما استخلف الذين من قبلهم: كداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، وبني اسرائيل في مصر والشام بعد هلاك الجبابرة فرعون وأمثاله.
* وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم: وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت وإظهاره على جميع الأديان.
* معجزين في الأرض: أي لا تلحقهم قدرة الله على الإهلاك بأن يفروا منها.

سبب النزول:

أخرج الحاكم وصححه والطبراني عن أُبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ، وأصحابه، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلاّ بالسلاح، ولا يصبحون إلاّ فيه فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلاّ الله فنزلت: « وَعَدَ

اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ».... الآية.

ب- المعنى الإجمالي

بعد أن استعرض الحق جل وعلا أمر المنافقين، وأمر التبليغ الذي طلب من الرسول ﷺ، والطاعة التي أمر بها المؤمنون، بعد كل هذا بين أصول دولة الإيمان، وهي الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، وبين كذلك ثمرتها وهي:

أولاً: إنجاز وعد الله بالعزة والسيادة في الأرض، ونصرة الإسلام على الكفر، وتمكين هذا الدين المرتضى، وهو دين الإسلام في الأرض بتثبيته وتوطيده وتأمين أهله بإزالة الخوف الذي كانوا عليه.

ثانياً: الظفر برحمة الله في الآخرة. إنه خطاب للرسول ﷺ، وللأمة فهو وعد من الله تعالى للذين تحقق فيهم وصفان معاً: هما الإيمان بالله ورسوله، والعمل الصالح الطيب بأن يجعلهم أئمة وولاة بهم تصلح البلاد، كما استخلف من سبقهم مثل داود وسليمان عليهما السلام، وبني اسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد أن أهلك الجبابرة كفرعون وأمثاله.

وبما أن وعد الله حق وصدق فقد أنجز وعده، وأظهر المسلمين على الجزيرة العربية، وفتحوا بعدئذ بلاد المشرق والمغرب، ومزّقوا ملك الأكاسرة (حكام فارس) وملكوا خزائنهم، وفتحوا بلاد الروم واستولوا على الدنيا، وظلت دولة الإسلام قوية منيعة في ظل خلافات متعاقبة: الخلافة الراشدة، ثم الخلافة الأموية، ثم العباسية، ثم الخلافة العثمانية حتى ألغى أتاتورك الخلافة عام 1924م.

ثم بين تعالى حال هذه الأمة في أثناء تمكنها في الأرض، أو علة تمكينها في الأرض، فهي أمة تعبد الله وحده لا شريك له، ومن ارتد أو كفر النعمة، أو خرج عن طاعة ربه فأولئك هم السادرون في فسقهم حيث كفروا تلك النعمة العظيمة، وتناسوا فضل الله عليهم.

وتقرر هذه الآية الكريمة وهي (55) أن الله تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها، فقد أخبر فيها بشيء سيحصل في المستقبل وقد حصل كما أخبر، وفيها كذلك دلالة على صدق نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله أنجز له ذلك الوعد.

وبعد ذلك أمر عز وجل بإقامة الصلاة في أوقاتها تامة الشروط والأركان والآداب التي أرشدنا إليها الرسول عليه الصلاة والسلام، وإعطاء الزكاة المفروضة لمستحقيها، وإطاعة رسوله ﷺ، فيما أمر به ونهى عنه فلعل الله يرحمكم معشر المؤمنين وينجيكم من عذاب أليم.

وأما أولئك المتنكرون لطاعة الله ورسوله، فلا تبهرنك أيها الخاطب كثرة هؤلاء الكافرين، ولا تغتر بما متّعوا به في الحياة الدنيا، وما أسبغ عليهم من نعم ومن زيادة في الأموال والأولاد. فالكافرون لا يعجزون الله، فهم مأخوذون وإن أمهلهم، فهو جل وعلا يمتعهم قليلاً، ثم بعد ذلك يضطرهم إلى عذاب غليظ، فبئس مرجعهم وتعس مآلهم.

2.5 معنى الاستخلاف في الأرض وحقيقته وشروطه

والاستخلاف في الأرض هو أن يجعل المسلمين خلفاء الأرض بحيث تكون لهم السيطرة ونفوذ الكلمة فيها، وأن يمد سلطانهم وزمانهم فيتصرفون في الأرض تصرّف الملوك في ممالكهم، وينفذ أحكامهم وينصرهم على من عاداهم، ويورثهم أرضهم وديارهم في مشارق الأرض ومغاربها.

إن من قرأ القرآن الكريم يعلم يقيناً أن كلمة الخلافة، استعملت فيه بثلاثة معانٍ مختلفة:

المعــــنى الأول: حمل أمانة السلطة والصلاحيات.

المعنى الثاني: ممارسة صلاحيات الخلافة تحت أمر الله التشريعي، لا تحت أمره التكويني فقط، مع التسليم بحاكميته العليا.

المعنى الثالث: قيام أمة جديدة مقام أمة غالبة في عصر من العصور بعد انقراضها.

ومن قرأ آية الاستخلاف التي في هذه السورة يجد أنها قد استعملت في هذا المقام بمعنى الحكومة التي تقوم بحق نيابة الله تعالى وفق أمره الشرعي، ولأجل هذا يأبى الله تعالى أن يشمل المنافقين المدعين بإسلامهم في وعده الذي قطعه للمسلمين في هذه الآية فضلاً عن أن يشمل فيه الكفار (تفسير سورة النور للمودودي / 216 - 217).

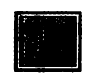
وكان الاستخلاف كما وعد الله ففي عهده ﷺ، فتحت مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب واليمن وأخذت الجزية من مجوس هجر، وفي عهد الخلفاء الراشدين، افتتحت بلاد كثيرة في الشرق والغرب وهي أكثر بلاد فارس، والروم، والعراق، والشام، ومصر وبعض بلاد شمال أفريقيا وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وفي العهد الأموي استمرت الفتوحات حتى شملت بلاد الأندلس، والهند، وفي عهد الدولة العثمانية فتحت بلاد المغرب إلى أقصى بلاد الأندلس وقبرص والقسطنطينية، وبلاد القيروان وامتد الفتح إلى أقصى بلاد الصين.

أما حقيقة هذا الاستخلاف فليس هو مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنه استخلاف وُجِّـه نحو الخير واستخدم في الاصلاح والتعمير والبناء وتحقيق المنهج الذي رسمه

الله للبشرية كي تسير عليه؛ لتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدّر لها، واللائق بها.

أما أولئك الذين يملكون فيفسدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجوْر، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان، فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض. إن من استخلفهم الله عز وجل في الأرض وهم أهل الإيمان والعمل فقد وعدهم بتمكين دينهم؛ لأنه دين يأمر بالإصلاح، ويأمر بالعدل، ويأمر بالاستعلاء على الشهوات. ووعدهم كذلك بتغيير أحوالهم من فزع وخوف وضعف إلى أمن واستقرار وقوة وحقق لهم ما وعدهم (انظر في ظلال القرآن لسيد قطب م 6/118 - 119 بتصرف).

أما شروط هذا الاستخلاف فهي الإيمان، والعمل الصالح والعدل والإحسان، وعبادة الله وحده لا شريك له فهي أهمها، فإذا تحققت هذه الشروط يتحقق المشروط كما تحقق لمن سبقهم من الأمم حينما آمنوا بأنبيائهم ورسالاتهم حيث أهلك الجبابرة بمصر والشام، وأورث بني اسرائيل أرضهم وديارهم حين كانوا يعبدون الله حق عبادته وقبل أن يغيروا ويبدلوا. فوعد الله مذخور لكل من يقوم على هذه الشروط من هذه الأمة إلى يوم القيامة وإذا فقدت هذه الشروط التي قررها الله، فلا يكون استخلاف ولا تمكين ولا أمن. لذلك عقب الله على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة.



نشاط (4)

حوى القرآن الكريم على كثير من الآيات التي تتحدث عن المستقبل. استخرج خمس آيات كريمة ذاكراً اسم السورة ورقم الآية.

3.5 ما ترشد إليه الآيات

1- بيان أن من شروط الاستخلاف في الأرض:

أ- الإيمان الخالص بالله تعالى وتوحيده بالعبادة.

ب- العدل والإحسان.

جـ- العمل الصالح البعيد عن الرياء، والذي هو تنفيذ لأمر الله تعالى.

2- الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى لخلقه «وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا» (المائدة/3) .

3- الإيمان والعمل الصالح والعبادة الصادقة تثمر:

أ- توطيد دعائم الدين وتثبيته، وإرساء قواعده، وتقوية حجته.

ب- إحلال الأمن والسلام في صفوف المسلمين، وطرد الرعب والخوف والجبن من نفوسهم.

4- بيان شمول علم الله تعالى، وإحاطته بالأشياء قبل حدوثها.

5- صحة صدق نبوة الرسول ﷺ.

6- بيان أن قدرة الله غير محدودة، وأنه فعال لما يريد لا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء، ودليل ذلك نصر المؤمنين على الرغم من قلتهم، وكثرة أعدائهم.

7- الكفر سبب لزوال النعم وطريق إلى الخروج عن دين الله، بينما شكران النعم سبب في استمرارها وزيادتها.

8- بيان أن من موجبات رحمة الله تعالى: الصلاة والزكاة والطاعة الخالصة له.

9- بيان أن النار مثوى الكافرين والمنافقين المستكبرين عن تنفيذ أمر الله تعالى.

10- التحذير من مغبة الفسق والخروج عن طاعة الله تعالى.

?

أسئلة التقويم الذاتي (4)

1- اذكر سبب نزول قوله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» الآية.

2- بيّن معنى الاستخلاف، وما حقيقته؟ واذكر شروطه.

3- عدّد معاني الخلافة التي وردت في القرآن الكريم.

4- هل تحقق الاستخلاف لأمة محمد ﷺ؟ وما دليل ذلك؟

5- اذكر خمساً مما ترشد إليه هذه الآيات.

6. الجزء الخامس: تفسير الآيات من (58-64) وحفظها

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (62) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

صدق الله العظيم (النور/58-64)

1.6 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات:

* ملكت أيمانكم: العبيد والإماء.
* والذين لم يبلغوا الحلم منكم: الصبيان الذين لم يبلغوا سن البلوغ، والحلم من حلم: وقت البلوغ: إما بالاحتلام، أو ببلوغ خمس عشرة سنة.
* ثلاث مرات: أي في ثلاثة أوقات، وهي أوقات الاستئذان.
* وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة: أي تخلعون ثيابكم وقت الظهر، وقوله من الظهيرة: بيان للحين.
* ثلاث عورات: أي ثلاثة أوقات يختل فيها تستركم، وتبدو فيها العورات، والعورة الخلل.
* ليس عليكم ولا عليهم جناح: أي ليس على المماليك والصبيان إثم، أو ذنب في الدخول بغير استئذان.
* طوّافون عليكم: أي كثيرو التردد عليكم للقيام على خدمتكم.
* والقواعد من النساء: جمع قاعد (بغير هاء) وهن العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل والولد لكبرهن.
* لا يرجون نكاحا: لا يطمعن في النكاح لكبرهن.
* فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن: أن يتخففن بإلقاء الثياب الظاهرة كالجلباب والرداء، والقناع فوق الخمار.
* غير متبرجات بزينة: أي غير مظهرات زينة خفية كقلادة وسوار وأصل التبرج: تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه.
* وأن يستعففن خير لهن: أي يرتدين أكمل الثياب خير لهن من الوضع؛ لأنه أبعد عن التهمة.
* حرج: الحرج لغة: الضيق، ويراد به شرعاً الإثم والذنب.
* ما ملكتم مفاتحه: جمع مفتح بكسر الميم كمنبر الذي يُجمع على منابر أي ما كنتم فيه وكلاء عن غيركم، أو حفظة له.
* أو صديقكم: الصديق يطلق على الواحد والجمع وهو الصادق في المودة والمخالّة.
* أشتاتا: متفرقين.
* فسلّموا على أنفسكم: أي على أهلها الذين هم إخوانكم كأنهم أنفسكم.
* على أمر جامع: أمر مهم يجمع الناس للتشاور فيه.

*كدعاء بعضكم بعضاً: بأن تقولوا يا محمد، بل قولوا يا نبي الله يا رسول الله في لين وتواضع وخفض صوت.

*يتسللون: أي ينسلّون أو يخرجون من الاجتماع خفية مستترين بشيء.

*لواذا: مستترين بعضهم ببعض.

*فتنة: بلاء ومحنة وامتحان في الدنيا.

*قد يعلم ما أنتم عليه: قد يعلم ما أنتم عليه أيها المكلفون من الإيمان، أو النفاق، أو المخالفة أو الوفاق.

ب- المعنى الإجمالي:

وبعد كل ما ذكر من تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهي والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، بعد كل هذا تعود الآيات؛ لتبين آداب الاستئذان والضيافة في محيط البيوت بين الأقارب والأصدقاء، وإلى آداب الجماعة المسلمة كلها كأسرة واحدة مع رئيسها ومربيها محمد ﷺ.

فقد أمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يأمروا مماليكهم وصبيانهم الذكور والإناث سواء أكانوا أجانب أم محارم بالاستئذان في الدخول عليهم في ثلاثة أوقات، والصحيح أنه وإن كان ظاهر الأمر أنه للوجوب بالاستئذان إلاّ أن جمهور العلماء قال على أنه للاستحباب والندب، ومن قبيل التأديب والتعليم والإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وهذه الأوقات الثلاثة هي: من قبل صلاة الفجر ووقت الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء، لما يُخشى من انكشاف العورات ونحو ذلك من مقدمات النوم والراحة، فهي ساعات الخلوة والانفراد ووضع الملابس، ومثل هذا الأدب السامي قد يغفل عنه الكثيرون في حياتهم اليومية مستهينين بآثاره النفسية، والعصبية، والخلقية ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة، وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر، بينما يقرر النفسيون اليوم أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم ربما تؤثر في حياتهم كلها.

وأما ما عدا هذه الأوقات الثلاثة، فلا حرج في ترك الاستئذان لأن هؤلاء الخدم، والأطفال الصغار يطوفون عليكم ويترددون على مجالسكم للخدمة وقضاء الحاجات، ولكن إذا بلغ الأطفال الصغار مبلغ الرجال، وأصبحوا في سن التكليف، فيجب عليهم أن يستأذنوا مع الأجانب والأقارب كما استأذن الكبار الذين سبقوهم.

ثم انتقلت الآيات لبيان حكم النساء العجائز اللواتي كبرن، وانقطع الحيض عنهن،

ويئسن من الولد، وليس عندهن رغبة في الزواج، فلا إثم عليهن أن يخففن من ملابسهن، ويخلعن ثيابهن الظاهرة كالجلباب والرداء ويظهرن أمام الرجال بملابسهن المعتادة إذا لم يقصدن إظهار ما عليهن من الزينة الخفية كشعر ونحر وساق، ولم يكن فيهن جمال ظاهر، فإن وجد حُرم خلع الثياب الظاهرة ومع أنه سبحانه رخص للعجائز بوضع بعض ألبستهن من غير تبرج، ولا إبداء زينة لكنه سبحانه جعل التستر لهن بارتداء الجلباب كما تلبسه الشابات من النساء خيراً لهن وأفضل، ولا يخفى أن في ذلك إشارة إلى ندب المرأة المسلمة أن تبالغ في التستر والاستعفاف، ثم انتقلت الآيات لتبين لنا آداب الإسلام في الأكل والشرب مع غيرنا، وأن لا نأنف من الأكل مع بعض الفئات من الناس، فقد كان بعض الناس من العرب يأنفون من الأكل مع الأعمى والمريض والأعرج، فجاءت الآيات لترشدنا إلى مثل هذه الآداب، فأباح للمسلمين ورفع عنهم الحرج في الأكل معهم وقيل أنه ليس على أهل الأعذار (الأعمى والأعرج والمريض) حرج ولا إثم في القعود عن الجهاد لضعفهم وعجزهم.

وأباح الله عز وجل لنا الأكل من أحد عشر موضعاً بلا إذن صريح من صاحب البيت حيث علمنا رضاه وسروره، فإن كان يتضجر أو يتألم فلا نأكل من طعامه في غيبته، ونتعفف عنه، وتلك المواضع هي: الأكل من بيوتنا ومنها بيوت أولادنا، وبيوت آبائنا وأجدادنا وبيوت أمهاتنا وجداتنا، وبيوت إخواننا، وبيوت أخواتنا، وبيوت أعمامنا، وبيوت عماتنا، وبيوت أخوالنا، وبيوت خالاتنا، وما ملكنا مفاتحه بالوكالة عن أصحاب البيوت، وبيوت أصدقائنا إذا عرفنا أنهم راضون ومسرورون بما نفعل وإلاّ فلا يجوز لقوله ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلاّ بطيب نفس منه» (رواه أحمد وأبو داود) وأبيح كذلك أن نأكل كيف شئنا مجتمعين، أو متفرقين لكن الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك.

وبعد هذا علمنا الله أدباً آخر وهو أنه إذا دخلنا بيوتاً مسكونة فلنسلم على من فيها من الناس ونحيّيهم بتحية الإسلام (السلام عليكم)، وهي التحية المباركة الطيبة التي شرعها الله لعباده المؤمنين.

وبعد ذلك حدثتنا الآيات الكريمة عن آداب اجتماعية دينية إلزامية فأثنت على المؤمنين الذين إذا كانوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام في أمر خطير ومهم لم ينصرفوا عن المجلس حتى يستأذنوه، فيأذن لهم، ووصفت الآيات المؤمنين المستأذنين في الانصراف بالمتقين المصدقين الله ورسوله. فكما أن الاستئذان مطلوب حين الدخول، فهو مطلوب أيضاً حين الخروج، وطلب الله من نبيه عليه الصلاة والسلام إذا استأذنه أحد الصحابة في بعض ما يطرأ له من مهمة فليأذن له على وفق الحكمة والمصلحة، وطلب منه أيضاً أن يغفر لهم ما قد يصدر عنهم من

زلات وهفوات، وطلب من المؤمنين وحثهم على تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام وتبجيله وحذرهم أن ينادوه باسمه، وأن يخفضوا أصواتهم في حضرته، وحذّر الله وتوعد المخالفين لتلك الآداب الإسلامية فينسلّون من مجلسه خفية واحداً بعد الآخر دون استئذان يتستر بعضهم ببعض أو بشيء آخر، والذين يخالفون شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً ويعصون أمره أن يخافوا أن تنزل بهم محنة عظيمة في الدنيا، أو ينالهم عذاب شديد في الآخرة فإن لله عز وجل كل ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً، وهو يعلم ما في نفوسكم ولا يخفى عليه خافية، وسوف يجازيكم يوم القيامة كلا بعمله.



نشاط (5)

في القرآن الكريم آيات ظاهرها يدل على الوجوب ولكنها تفيد الندب: مثّل لذلك بثلاث آيات.

6/2 استئذان الإماء والأطفال في ثلاثة أوقات

ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة في سبب نزول قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» ولكننا اكتفينا بذكر هذه الرواية قال ابن عباس: وجه رسول الله ﷺ، غلاماً من الأنصار يُقال له مُدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الظهيرة؛ ليدعوه، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته في ذلك، فقال: يا رسول الله وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

مما هو معلوم أنه ما من شخص إلاّ وله أحوال وظروف داخلية خاصة به لا يحب أن يطلع عليها إنسان ولو كان ابنه، لذلك لم يتركنا القرآن الكريم الذي هو الدستور الإلهي، بل أنقذنا من كل حرج في مثل هذه القضية، وربّى الجماعة المسلمة في جميع مجالات الحياة الإنسانية.

فأمر سبحانه عباده المؤمنين أن يأمروا الخدم من الرقيق والأطفال المميزين الذين لم يبلغوا الحلم أن يستأذنوهم فقط في أوقات ثلاثة هي: قبل صلاة الفجر؛ لأنه وقت النوم في الفراش، واليقظة من المضاجع وتغيير ثياب النوم، وارتداء ثياب اليقظة، ويحتمل انكشاف العورة، وقت الظهيرة عند القيلولة: حيث يخلعون ملابسهم في العادة، ويرتدون ثياب النوم

للراحة، أو يخففون من الثياب بسبب شدة الحر، ومن بعد صلاة العشاء؛ لأنه وقت خلع ثياب اليقظة، ولبس ثياب النوم، وسمّاها الله عورات لانكشاف العورات فيها.

وفي هذه الأوقات الثلاثة لا بد أن يستأذن الخدم، وأن يستأذن الصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم، وخصصت هذه الأوقات من دون غيرها، لأنها مظنة انكشاف العورات لكي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم.

وهنا نذكر بما قلناه من قبل من أن مثل هذه الآداب قد يغفل عنها الكثيرون في حياتهم المنزلية مستهينين بآثاره النفسية والخلقية ظانين أن الخدم لا تمتد أنظارهم إلى عورات سادتهم وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر، بينما أثبت النفسيون خلاف ذلك وقرروا أن بعض المشاهد التي يراها الأطفال في صغرهم تؤثر في حياتهم كلها، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها؛ لذا أدّبنا الله بهذه الآداب، وهو يريد أن يبني أمة سليمة الأعصاب، مهذبة المشاعر طاهرة القلوب نظيفة التصورات، وقد بينا من قبل أيضاً أن الأمر مصروف في هذه الآية إلى الندب والاستحباب والتعلم والإرشاد إلى محاسن الأخلاق، فلو حدث دخول بغير استئذان لم يكن ذلك معصية، وإنما خلاف الأولى، وإخلال بالآداب، فإن علم الخادم أن دخوله على سيده إيذاء له حرم الدخول بسبب الأذى لغيره.

ولا يخفى أن أمر الطفل غير البالغ بالاستئذان في هذه الأوقات الثلاثة فيه تعويد له على الآداب، والنظام، والانضباط، والإعداد لتحمل المسؤولية، والتكاليف الشرعية.

وإذا كان الخدم والأطفال مأمورين بالاستئذان في الحياة الخاصة على غرف نوم الأزواج، فالكبار من الذكور والإناث الأحرار من أهل البيت، ومن الضيوف وغيرهم من باب أولى، والاستئذان في حق هؤلاء فرض ومخالفته حرام، وإثم كبير.

ومن حكمة الله تعالى أنه خص فقط هذه الأوقات الثلاثة بالاستئذان، ولم يجعله في كل حين منعاً للحرج، فهم كثيرو التردد في الدخول والخروج على أهليهم بحكم صغر سنهم، أو قيامهم بالخدمة.

أما حين يكبر الصبي، ويصل سن البلوغ، فيدخل في حكم الأجانب الذين يجب أن يستأذنوا في كل وقت.

وقد يتوهم بعض الناس أن الصبي وقد اعتاد الدخول والتردد على أهل بيت معين إذا بلغ مبلغ الرجال، فلا حرج في دخوله بغير استئذان كسابق عادته فجاء قوله تبارك وتعالى: «وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» ...الآية، لدفع ذلك التوهم وبيان أن الأطفال الذين قد رُخص لهم في ترك الاستئذان في غير

العورات الثلاث إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا في كل الأوقات، ويرجعوا إذا قيل لهم ارجعوا.

ومن الفوائد التي يمكن أخذها من طلب استئذان الإماء والأطفال في ثلاثة أوقات:

1- أن السيد وولي الصغير مخاطبان بتعليم عبيدهم، ومن تحت ولايتهم من الأولاد، العلوم والآداب الشرعية لأن الخطاب موجه إليهم.

2- الأمر بحفظ العورات والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن المحل والمكان الذي هو مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه منهي عن الاغتسال فيه والاستنجاء، ونحو ذلك.

3- جواز كشف العورة عند الضرورة كالحاجة للنوم، أو عند البول والغائط، أو أمام الطبيب للكشف عن المرض، وغير ذلك مما هو ضروري لحفظ حياة الإنسان.

4- أن الصغير الذي هو دون البلوغ، لا يجوز أن يمكّن من رؤية العورة ولا المملوك أن يرى عورة سيده.

5- جواز القيلولة وأن الناس من المسلمين كانوا معتادين عليها كما اعتادوا نوم الليل.

6-3 لباس المرأة المسلمة في كبرها

عزيزي الدارس، سبق بيان أمره سبحانه وتوضيحه للنساء بإخفاء زينتهن منعاً لإثارة الفتنة والشهوات، فجاءت الآية الكريمة في قوله سبحانه: «وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (النور/60).

تستثني من النساء القواعد، وتبين أن لهن حكماً خاصاً والقواعد جمع قاعد، وهن اللواتي فرغت نفوسهن من الرغبة في معاشرة الرجال، وفرغت أجسادهن من الفتنة المثيرة للشهوات وقعدن عن الحيض والحبل وجلسن في بيوتهن، فبين الله سبحانه في هذه الآية بأنه لا حرج ولا إثم على النساء العجائز أن يخلعن ثيابهن الخارجية، ويتخففن منها، على ألا تنكشف عوراتهن، ولا يكشفن عن زينة خفية كالقلادة والسوار وغير ذلك، وبين كذلك أنه خيرٌ لهن وأفضل أن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة، وسمي هذا استعفافاً أي طلباً للعفة وإيثاراً لها.

فهذه رخصة لهن دون غيرهن من النساء ، ولا يخفى أن في ذلك إشارة إلى ندب المرأة المسلمة بصفة عامة أن تبالغ في التستر والاستعفاف بحيث تدني عليها جلبابها لما في ذلك من الحشمة ومحاسن الآداب فإنه أبعد بهن عن الريبة، وأقطع لأطماع ذوي الأغراض الخبيثة،

والنفوس المريضة.

وللعلماء أقوال في لباس المرأة حين كبرها:

قرأ ابن مسعود وأبي وابن عباس رضي الله عنهم (أن يضعن ثيابهن) بزيادة (من) قال ابن عباس: وهو الجلباب. وروى عن ابن مسعود أيضاً (من جلابيبهن) بدل من ثيابهن والعرب تقول: امرأة واضع، للتي كبرت فوضعت خمارها. وقال قوم: المرأة الكبيرة التي أيست من النكاح لو بدا شعرها فلا بأس. والصحيح أنها كالشابة في التستر غير أن الكبيرة تضع الجلباب الذي فوق الدرع والخمار. قاله ابن مسعود وابن جبير وغيرهما(القرطبي جـ 12/309). وعن جابر بن زيد: يضعن الخمار والرداء. قال أبو بكر الجصاص: لا خلاف في أن شعر العجوز عورة لا يجوز للأجنبي النظر إليه كشعر الشابة. وأنها إن صلّت مكشوفة الرأس كانت كالشابة في فساد صلاتها. فغير جائز أن يكون المراد وضع الخمار بحضرة الأجنبي ومن التبرج أن تلبس المرأة - سواء أكانت عجوزاً أم شابة - ثوباً رقيقاً يصف جسدها. ومن التبرج أيضاً وضع المساحيق. وغيره الذي ظهر في أيامنا.

4/6 البيوت التي يباح الأكل منها

الآية الكريمة رقم (61) من سورة النور رفعت الحرج والكلفة بين أفراد الأسرة الأصحاء. وأصحاب الأعذار في تناول الطعام على مائدة واحدة. ورفعت الحرج والمشقة كذلك في الأكل من البيوت الخاصة أو بيوت الأقارب والأصدقاء بدون إذن صريح. وبينت أن الحكم في البيت الخاص كبيت القريب والصديق على حدّ سواء وهذا أدب اجتماعي من أدب الإسلام الرفيع في تنظيم العلاقات والارتباطات بين الأقارب. والأصدقاء.

وهذه الآية أباحت للمسلمين أن يأكلوا من أحد عشر موضعاً ولو من غير إذن. شريطة أن يعلم الآكل أن صاحب الطعام لا يتأذى ولا يتألم. ولا تشح نفسه بذلك. بل يسر ويفرح. فإذا عرفت - عزيزي الدارس - أن قريبك أو صديقك يتألم من أكل طعامه في حال غيبته. فإياك أن تأكل منه. وكن عفيفاً بعيداً عن الشبهات. وهذه المواضع هي:

1- الأكل من بيوتنا. ويشمل ذلك بيوت الأبناء للصلة الوطيدة بين الابن وأبيه. والابن من كسب أبيه. قال عليه السلام: «أنت ومالك لأبيك» (رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن). ومعلوم أن الإنسان لا حرج عليه أن يأكل من بيت نفسه.

2- بيوت الآباء.

3- بيوت الأمهات.

4- بيوت الإخوان.

5- بيوت الأخوات.

6- بيوت الأعمام.

7- بيوت العمات.

8- بيوت الأخوال.

9- بيوت الخالات.

10- البيوت التي تملك مفاتحها كأن يكون الإنسان وكيلاً عن صاحب المال مثلاً، وقد سمح الأصيل للوكيل بالأكل من طعامه.

11- بيوت الأصدقاء إن كنت تعلم أنه يسر ويرضى، كما تقتضي ذلك الصداقة الحقة والأخوة الإسلامية، فإن ظننت أنه لا يرضى فحرام عليك الأكل حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «لا يحل مال امرئ مسلم إلاّ بطيب نفس منه» (رواه أحمد وأبو داود). وقال عليه السلام: «لا يحلبن أحد ماشية أحد إلاّ بإذنه» (رواه الشيخان عن ابن عمر).

في الآية السابقة كثير من الفوائد نذكر منها:

1- مدى حرص الإسلام على تقوية روابط القرابة سواء في النسب، أم الرضاع، أم المصاهرة.

2- استحباب إكرام الضيف.

3- أن من سرق من ذوي رحم كالأخ، أو العم، أو الخال، فلا تقطع يده لإباحة الله تعالى له بهذه الآية الأكل من بيوتهم بغير إذن. (الرازي جـ 24/37، الجصاص جـ 3/336)

تدريب (4)

يجوز للمرأة الكبيرة في السن أن: 1- تظهر بعض شعرها في الصلاة وللرجال غير محارمها. 2- خلع الجلباب، وإظهار ما تحته من قلادة وغير ذلك. 3- خلع الجلباب من غير تبرج، أو إبداء أي زينة مهما كان نوعها. إجابة واحدة فقط هي الصحيحة، من الإجابات الثلاث السابقة، أبرزها.

6\5 الاستئذان عند الانصراف

كما أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بالاستئذان حين الدخول، أمرهم كذلك بالاستئذان حين الخروج لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول ﷺ، من صلاة جمعة، أو عيد، أو جماعة،

أو في أمر خطير قد حدث لم ينصرفوا عن المجلس حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ، فيأذن لهم، وقد عدّ الله استئذانهم دليلاً على عمق إيمانهم وعد تقيدهم بالإذن دليلاً آخر على إخلاصهم، فقال جل ذكره: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (النور/62) فمن موجبات الإيمان عدم الذهاب إلاّ بإذن، وفي هذا بيان لآداب الاستئذان عند الخروج من الاجتماعات العامة. فإن أذن لهم الرسول عليه الصلاة والسلام ذهبوا، وإن لم يأذن لهم، فهم يلتزمون الأمر، وينصاعون له غير متبرمين، ولا متذمرين ويسلمون تسليماً.

وبيّن عليه الصلاة والسلام لأمته أنه إذا كان أحدهم في مجلس، وأراد الخروج فعليه أن يستأذن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلّم فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلّم فليست الأولى بأحق من الآخرة» (رواه أحمد في مسنده وأبو داود والترمذي وابن حيان والحاكم).

وقال ﷺ: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر» (رواه الشيخان) وهذا يشمل استئذان الدخول واستئذان الانصراف. وهذا غاية ما حرص عليه الإسلام في الحفاظ على حرمة البيوت وصيانة الأعراض والحرمات.

6/6 وجوب طاعة الله وخوفه وتوقير الرسول الكريم وعدم مخالفة أمره

تعد طاعة الله تعالى والخوف منه، وطاعته عليه الصلاة والسلام وعدم مخالفته، ووجوب توقيره من أهم القضايا وأخطرها في حياة الأمة الإسلامية.

لقد أنزل الله هذا الكتاب الإلهي على نبيه ﷺ، وأودعه شريعته ودستوره؛ ليتحاكم إليها الناس في دنياهم، وما كانت شريعة الله مثالية لا تصلح للتطبيق في عالم الواقع، كما يزعم أعداء الإسلام، بل كانت عملية واقعية طُبقت في حياة المسلمين أكثر من ألف سنة، فكانت نوراً وهداية للناس جميعاً حققت لهم الخير وبنت للمسلمين مجداً وعزاً، وكان لها دور في تاريخ البشر.

ومما هو معلوم في ديننا أن التشريع من خصائص الألوهية وحدها، وحق له عز وجل لأنه هو الذي خلق الكون وهو مالكه ومدبره، وهو سبحانه يعلم ما يصلح العباد، وما ينفعهم،

وما يضرهم، وغيره عاجز عن كل ذلك، ثم إن هذه العقول البشرية قاصرة ومحدودة، وتقع تحت مؤثرات شتى تميل بها هنا وهناك. علاوة على أنها مختلفة ومتناقضة.

وبما أن لهذا التشريع هذه الميزة وهذه الخصيصة التي لا تصلح أن تكون للمخلوقين فهي واجبة التنفيذ، وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله في كل أمر ونهي، ولا بد أن تكون هذه الطاعة مصحوبة بخشية الله وتقواه كما مر معنا في قوله سبحانه: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» (النور/52) فلا إيمان بدون طاعة لله ولرسوله، ولا طاعة بدون خشية ونظراً لأهمية تقوى الله وخشيته والخوف منه، فقد ختم الله بها هذه الأوامر والتكاليف التي تخللت هذه السورة من أولها لآخرها، فهي إذاً الضمان لتنفيذ تلك الأوامر والنواهي، وهذه الأخلاق والآداب التي فرضها الله في هذه السورة فقال جل ذكره:

«أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (النور/64).

فهذه الخاتمة تشعر القلوب المؤمنة، أو المنحرفة على حد سواء بأن الله مطلع عليها ورقيب على عملها، عالم بما تنطوي عليه هذه النفوس الخفية. وسيجازي كل إنسان بما عمل.

وأما بالنسبة لطاعة الرسول ﷺ، وعدم مخالفته، ووجوب توقيره: فقد ورد في القرآن آيات كثيرة تأمر المؤمنين بطاعة الله وطاعة رسوله؛ لأنه عليه السلام مرسل من عند ربه بهذا الكتاب العزيز، فطاعة الرسول من طاعة الله الذي أرسله بهذه الشريعة، وبينها للناس في سنته، وسنته وقضاؤه عليه الصلاة والسلام جزء من الشريعة، فهو إذاً واجب النفاذ. والإيمان يتعلق - وجوداً وعدماً - بهذه الطاعة وهذا التنفيذ، وقد أقسم سبحانه وتعالى بذاته العلية أنه لا يؤمن مؤمن حتى يحكم رسول الله ﷺ، في أمره كله، ثم لا بد من الرضا بحكمه، ويسلّم بقضائه، ليس في صدره حرج منه ولا في نفسه تلجلج في قبوله: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (النساء/65).

وحذر الله تعالى المخالفين لشريعة الرسول، المتبعين نهجاً غير نهجه - وهم المنافقون - ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة، أو اتقاء مضرة أن تصيبهم محنة أو بلاء وامتحان في الدنيا من كفر ونفاق، أو يصيبهم عذاب مؤلم في الآخرة، فقال عز وجل:

«فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (النور/63).

وهذه الآية تعم كل من خالف أمر الله، وأمر الرسول، ناهيك عن المنافقين.

ويلفت الله سبحانه في هذه السورة إلى ضرورة توقير الرسول ﷺ، في كل الأحوال، فلا يدعى باسمه يا محمد، أو كنيته يا أبا القاسم، كما يدعو المسلمون بعضهم بعضاً، إنما يُدعى بتشريف الله له وتكريمه، يا نبي الله، يا رسول الله. ولا بد من خفض الصوت في مجلسه، قال سبحانه: «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا» (النور/63).

7 ما ترشد إليه الآيات

1- وجوب الاستئذان في الأوقات الثلاثة التي ذكرها القرآن الكريم في هذه السورة ولو على الوالدين.

2- تأديب الصغار، وتعليمهم آداب الإسلام، وتربيتهم على الأخلاق الحسنة.

3- حرمة التبرج للنساء حتى العجائز منهن، اللهم إلاّ أن العجوز أبيح لها التخفف من اللباس، لكن من غير تبرج، مع أن عدم التخفف أولى وأفضل.

4- في غير الأوقات المذكورة يباح للعبيد والصغار الدخول من غير استئذان، وعلل ذلك سبحانه وتعالى: بأنهم من الطوافين الذين يقومون على خدمتكم. أما غير الصغار والعبيد فلا يجوز لهم الدخول حتى على الأقارب إلاّ بعد الاستئذان.

5- رفع التكليف بالجهاد عن أصحاب الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض.

6- إباحة الأكل من طعام الأبناء والأقرباء والأصدقاء ولو في غير وجودهم إذا علمت أنهم يسمحون بذلك، ويطيبون به نفساً.

7- استحباب إفشاء السلام.

8- إباحة الأكل فرادى وجماعات على الرغم من أن الاجتماع على الطعام أفضل.

9- بيان صفات المؤمنين ومنها:

أ- الإيمان بالله ورسوله.

ب- طلب الإذن حين الخروج من الاجتماع لأمر مهم، وفيه مصلحة للمسلمين، وحرمة الخروج بدون استئذان إمام ذلك الأمر.

10- تعظيم الرسول واجب، ولا يجوز أن يُنادى باسمه.

11- لله جميع ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وعلماً.

أسئلة التقويم الذاتي (5)

1- ما معنى المفردات والتراكيب التالية: ثلاث عورات، والقواعد من النساء، وأن يستعففن خير لهن، ملكتم مفاتحه، على أمر جامع، لواذا.

2- اذكر الحكمة من تخصيص ثلاثة أوقات باستئذان الإماء والأطفال الصغار، وماذا يفيد الأمر الوارد في ذلك.

3- هناك فوائد يمكن أخذها، وتعلمها من طلب استئذان الأطفال والإماء على حجرة النوم في هذه الأوقات الثلاثة، عدد أربعاً منها.

4- رخص الله للمرأة العجوز بلباس خاص غير لباس الشابات، ما سبب ذلك؟ وما شروط هذا اللباس؟ وهل يعد شعر العجوز عورة إذا انكشف أمام غير المحارم؟ بيّن ذلك.

5- أباح الله لنا أن نأكل من بيوت الأقارب والأصدقاء ولو من غير إذن منهم، ما شروط هذا الأكل؟ مع الاستشهاد بدليل شرعي على صحة ما تقول.

6- بيّن الحكمة من اختصاص الله وحده بحق التشريع للعباد وسنّ القوانين لهم.

7- لماذا جعل الله الاستئذان من المجالس علامة من علامات الإيمان، وتركه من علامات النفاق؟

8- وضّح مدى أهمية تقوى الله، والخوف منه في تنفيذ أوامر الله ورسوله وطاعتهما.

9- اذكر خمساً مما ترشد إليه هذه الآيات.

7. الخلاصة

عزيزي الدارس، هذه هي الوحدة الرابعة من منهاج مقرر «التفسير»، وقد درست في هذه الوحدة تفسير سورة النور من آية «35-64»، وإليك أهم الأفكار الرئيسة التي نوقشت في هذه الوحدة:

1- الحكمة من ضرب الأمثال والعبرة من الأمثال.

2- أهمية بيوت الله في الأرض.

3- بيان حال الكافرين ومآلهم.

4- أدلة عظمة الله وقدرته: تسبيح المخلوقات، إزجاء السحاب، إنزال المطر، تقليب الليل والنهار، خلق الدواب من ماء، اختلاف المخلوقات.

5- مقارنة بين مواقف المنافقين، ومواقف المؤمنين.

6- إعراض المنافقين عن التحاكم إلى شريعة الله.

7- معنى الاستخلاف في الأرض وحقيقته وشروطه.

8- تحقيق وعد الله لعباده المؤمنين.

9- استئذان الإماء والأطفال في ثلاثة أوقات.

10- لباس المرأة المسلمة في كبرها.

11- البيوت التي يباح الأكل منها.

12- الاستئذان عند الانصراف.

13- وجوب طاعة الله وخوفه، وتوقير الرسول ﷺ، وعدم مخالفة أمره.

8. لمحة مسبقة عن الوحدة الدراسية الخامسة

بعد أن درست، عزيزي الدارس، في الوحدات الثلاث السابقة تفسير سورتي «محمد» و «النور»، وتعرفت على المعاني والعبر والدروس المستفادة منهما، ننتقل بك إلى الوحدة الخامسة والأخيرة من هذا المقرر والتي ستتناول تفسير سورة «يوسف». حيث تتعرض الوحدة إلى التعريف بيوسف عليه السلام، وبالسورة، مكيتها وصلتها بما قبلها وأهدافها وأغراضها، وتشرح معاني المفردات الصعبة والغريبة في السورة.

هذا وتقف الوحدة على عدة مواضيع تتعلق بالسورة الكريمة وهي: أحسن القصص، الرؤيا، هل إخوة يوسف أنبياء، في ظلال قوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا»... الآية، يوسف في السجن داعية إلى الله، «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ».

نتمنى لك، عزيزي الدارس، دراسة موفقة للوحدة القادمة، وأن تستفيد منها ومن عبرها وعظاتها الجليلة.

9. إجابات التدريبات

تدريب (1)

كل ما ذكر صحيح.

تدريب (2)

كل ما ذكر صحيح.

تدريب (3)

ظلمهم لأنفسهم باستفحال النفاق فيها، والشك في نبوة الرسول، والخوف من ظلم الله ورسوله لهم.

تدريب (4)

يجوز للمرأة الكبيرة في السن خلع الجلباب من غير تبرج، أو إبداء أي زينة مهما كان نوعها.

10. مسرد المصطلحات

- التعزير: عقوبة تأديبية يفرضها الحاكم على ذنب لا حد فيه ولا قصاص ولا كفارة.
- الجزية: مشتقة من الجزاء، وهي مبلغ من المال يوضع على من دخل في ذمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب.
- الحدود: جمع حد، ومعناها في الشرع عقوبة مقدرة لأجل حق الله. ولا تجوز الشفاعة فيها أبداً، وهي ستة حدود: الزنا، والقذف، والسرقة، والسكر، والمحاربة، والردة والبغي.
- الدين الحنيف: دين الإسلام، وأصل كلمة الحنف هو الميل عن الضلال إلى الاستقامة.
- القيلولة: النوم بنصف النهار، وكانت سنة متبعة عند السلف الأول لقوله عليه الصلاة والسلام «أقيلوا فإن الشياطين لا تقيل».
- مسجد الضرار: مسجد بناه المنافقون في المدينة المنورة في السنة التاسعة، كان الغرض منه محاربة الإسلام، وتفريق المسلمين، ولما أطلع الله رسوله على حقيقته أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بهدمه وتحريقه.
- نشد الضالة: السؤال عما فقد، ولا يجوز ذلك في المسجد.

* القرآن الكريم.

1- الآلوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني، جـ 17، جـ 18. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

2- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، تفسير سورة النور، تحقيق صلاح عزام. دار مطابع الشعب، 1972 م (1392 هـ).

3- الجصاص الحنفي، أحكام القرآن، جـ 3. دار الكتاب العربي، بيروت.

4- حسن، محمد علي، وابن علية، عبد الرحيم، تفسير سورة النور، ط 1. دار الأرقم، عمان، 1983م (1404 هـ).

5- ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن. دار الهجرة.

6- الخطيب الشربيني، السراج المنير. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

7- درويش، محيي الدين، إعراب القرآن الكريم، المجلد السادس، جـ 12. دار ابن كثير للطباعة والنشر، دمشق، 1988م (1408 هـ).

8- الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، جـ 24.

9- الزحيلي، وهبي، التفسير المنير، جـ 17 و جـ 18. دار الفكر، دمشق.

10- ابن زرعة، حجة القراءات، تحقيق سيد الأفغاني. ط 4، مؤسسة الرسالة، 1984م(1404 هـ).

11- الزمخشري، الكشاف، جـ 2. القاهرة، 1308 هـ.

12- السايس، محمد علي، تفسير آيات الأحكام. 1953م (1373 هـ).

13- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن، جـ 5. الرياض، 1404 هـ.

14- أبو السعود، إرشاد العقل السليم، جـ 4. دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

15- الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان، جـ 6. الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية، الرياض، 1983م (1403 هـ).

16- الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، جـ 2. دار القرآن الكريم، بيروت، 1981م(1401 هـ).

17- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، المجلد التاسع، جـ 18. دار المعرفة، بيروت 1978م (1398 هـ).

18- ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.

19- ابن العربي، أحكام القرآن، المجلد الثالث. دار المعرفة، بيروت.

20- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، المجلد السادس، جـ 12. دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1969م.

21- قطب، سيد، في ظلال القرآن، جـ 18. ط 5، 1967م (1386 هـ).

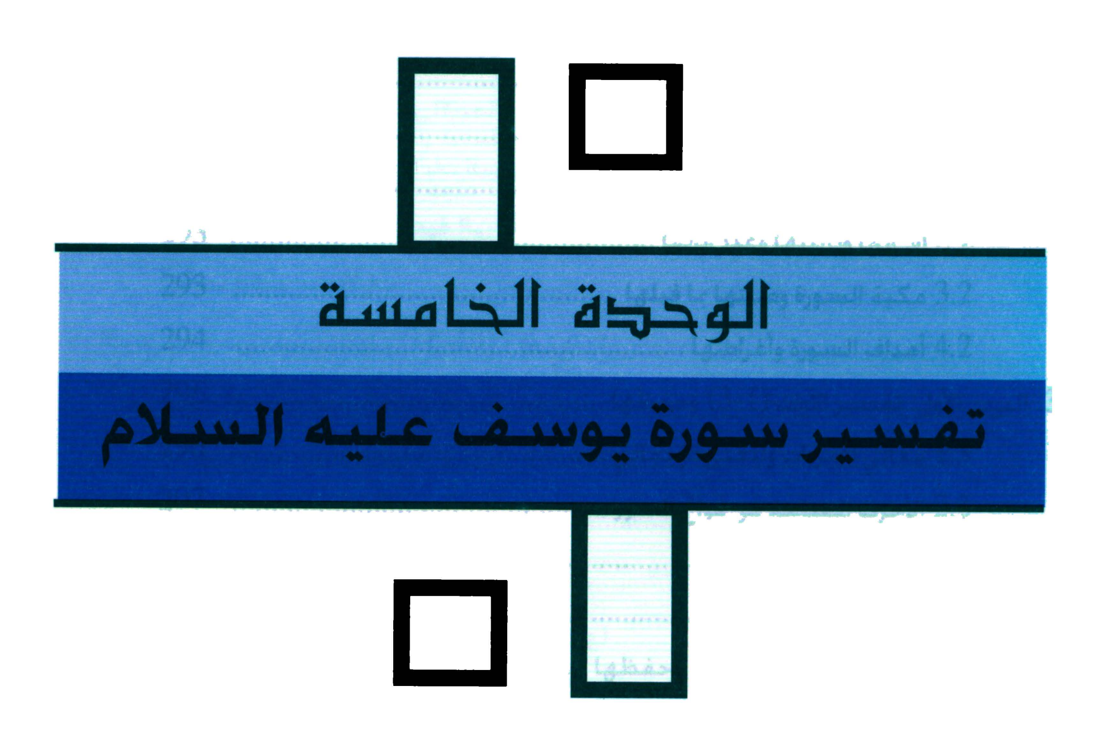
22- ابن كثير، اسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، جـ 3. دار إحياء التراث العربي، بيروت 1969م (1388 هـ).

23- الكلبي، ابن جزيء، التسهيل لعلوم التنزيل، ط 1، جـ 3. المكتبة التجارية بمصر.

24- المودودي، أبو الأعلى، تفسير سورة النور، تعريب محمد عاصم الحداد، دار الفكر، لاهور، 1959م (1378 هـ).

25- النسفي، عبد الرحمن، تفسير النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت.

26- النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، على هامش تفسير الطبري.



الوحدة الخامسة

تفسير سورة يوسف عليه السلام

محتويات الوحدة

الموضوع	الصفحة

1. المقدمة

1.1 تمهيد

عزيزي الدارس، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فهذه هي الوحدة الخامسة من مقرر التفسير في برنامج التربية -تخصص التربية الإسلامية- وموضوع هذه الوحدة هو تفسير سورة يوسف عليه السلام، وقد جاء التفسير مختصراً غاية الاختصار، وذلك لظروف تتعلق بالمقرر نفسه.

وقد حرصنا عند كتابة هذه الوحدة على تقديم خلاصة نافعة للدارس عن موضوعات هذه الوحدة، استقيناها من مصادر التفسير الأصيلة قديمها وحديثها، وذكرنا ما نطمئن إليه من المسائل والقضايا التفسيرية.

تتكون هذه الوحدة من ثمانية أجزاء عدا المقدمة والأجزاء الختامية.

يتحدث الجزء الأول «بين يدي سورة يوسف عليه السلام» عن التعريف بيوسف عليه السلام، واسم السورة وترتيبها وعدد آياتها، وعن مكية السورة وصلتها بما قبلها، ثم عن أهدافها وأغراضها.

وتشترك الأجزاء السبعة الأخرى في الحديث عن معاني مفردات الآيات والمعنى الإجمالي، ووجوه القراءات في كل جزء، ثم ما ترشد إليه آيات كل جزء من أجزاء السورة.

كما تتناول الدراسة بعض الموضوعات المهمة والبارزة في سورة يوسف عليه السلام، كموضوع الأحرف المقطعة في فواتح السور، وأحسن القصص، والرؤيا، وهل إخوة يوسف أنبياء، وفي ظلال الآية الكريمة «» (يوسف/24)، ويوسف في السجن داعية إلى الله عز وجل، وأخيراً موضوع «» (يوسف/67).

وإيماناً منا باستثارة الدوافع التعليمية لدى الدارس الكريم، فقد أوردنا في ثنايا هذه الوحدة عدة تدريبات تزيد الدارس علماً وفهماً للمادة العلمية، وقد جاءت تلك التدريبات على مستويات متباينة، فمنها ما يستطيع الدارس أن يجيب عنه أثناء قراءة الوحدة، ومنها ما يحتاج إلى الرجوع إلى مصادر أخرى للإجابة عنه.

وتجد -عزيزي الدارس- في نهاية كل جزء من أجزاء هذه الوحدة أسئلة التقويم الذاتي، يمكن الإجابة عنها بعد الدراسة المتأنية والمتدبرة، كما أنك تجد في نهاية الوحدة قائمة بأهم المراجع.

عزيزي الدارس، أهلاً بك مرة أخرى إلى هذه الوحدة، ونأمل من الله أن تستمتع بدراستها، وتستفيد من معارفها وحقائقها، وفي حال وجود أي استفسارات لا تتوان في التوجّه إلى مشرفك الأكاديمي سائلاً ومستفسراً؛ راجين لك التوفيق والسداد.

2.1 أهداف الوحدة

عزيزي الدارس، بعد الانتهاء من دراسة هذه الوحدة، واستيعاب مضمونها، وحل أسئلتها وتدريباتها، ينبغي أن تكون قادراً على أن:

1- تعرف شيئاً عن شخصية يوسف عليه السلام، وتاريخ نزول السورة وصلتها بما قبلها، وترتيبها، وعدد آياتها وأهدافها.

2- تحدد الألفاظ الغريبة فيها، وتعرف معناها.

3- تعرف المعنى الإجمالي لآيات السورة.

4- تعدد القراءات الصحيحة في السورة، وتعرف معانيها.

5- تحدّد بعض القضايا المهمة والمواضيع المفيدة في السورة.

6- تتعرف على الدروس والعبر والحكم والأحكام الواردة في السورة.

7- تحفظ السورة.

3.1 أقسام الوحدة

تتكون هذه الوحدة من مقدمة، ونص رئيس، وأجزاء ختامية، ويقسم النص الرئيس ثمانية أقسام:

القسم الأول : بين يدي سورة يوسف عليه السلام.

القسم الثاني : تفسير الآيات (1-3) وحفظها.

القسم الثالث : تفسير الآيات (4-6) وحفظها.

القسم الرابع : تفسير الآيات (7-20) وحفظها.

القسم الخامس : تفسير الآيات (21-35) وحفظها.

القسم السادس : تفسير الآيات (36-53) وحفظها.

القسم السابع :	تفسير الآيات (54-101) وحفظها.
القسم الثامن :	تفسير الآيات (102-111) وحفظها.

يحقق القسم الأول من هذه الأقسام الهدف الأول من أهداف الوحدة. أما الأقسام السبعة الباقية فإنها تتكامل في انسجامٍ لتفي بتحقيق الأهداف الستة الأخيرة التي أعدّت الوحدة لبلوغها.



4.1 قراءات مساعدة

عزيزي الدارس، لقد جاء تفسيرنا لسورة يوسف عليه السلام موجزاً غاية الإيجاز، وذلك لغايات التيسير، فإذا أردت أن تطلع على تفاصيل أعم وأشمل فإننا ننصح بقراءة ما يتّصل بالسّورة في التفاسير والكتب التالية:

1- الخالدي: صلاح، القصص القرآني، دمشق - دار القلم، الطبعة الأولى، 1419هـ 1998م، (ج2: ص 256-73).

2- ابن عاشور: محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، تونس - الدار التونسية للنشر، 1984م. (ج 12: ص 197- 293، ج 13: ص 5-73).

3- القاسمي: محمد جمال الدين، تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت - مؤسسة التاريخ العربي، 1415هـ - 1994م. (ج4: ص 424-341).

4- قطب: سيد، في ظلال القرآن، القاهرة - دار الشروق، 1408هـ - 1987م. (م4 ج 12: ص 1949-2037).

5- نوفل: أحمد، سورة يوسف دراسة تحليلية، عمّان - دار الفرقان، الطبعة الأولى، 1409هـ - 1989م.

5.1 وسائط مساندة

عزيزي الدارس، تحتاج في دراسة هذه الوحدة، وحل تدريباتها، إلى ما يلي:

1- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمعرفة الآيات الكريمة وسورها.

2- أشرطة مسجلة للقرآن الكريم بقراءة أحد القراء المشهورين؛ كالشيخ محمد صدّيق المنشاوي، أو الشيخ محمود خليل الحصري، وذلك لضبط قراءة كلمات السورة وإتقان حفظها.

6.1 ما تحتاج إليه لدراسة الوحدة

عزيزي الدارس، حتى تكون دراستك للوحدة مثمرة وناجعة، لا بد لك من القراءة المتأنية المتدبرة للمادة العلمية، كما لا بد لك من إجابة أسئلة التقويم الذاتي وحل التدريبات.

وهناك بعض النشاطات التي يؤمل منك القيام بها، وتقديم المطلوب فيها للجهة المعنية في الجامعة.

2. بين يدي سورة يوسف عليه السلام

1.2 التعريف بيوسف عليه السلام

يوسف هو أحد أبناء يعقوب عليهما السلام؛ فهو ابن نبي كريم، بل هو سليل أسرة مباركة عريقة في الكرم.

روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام» (أخرجه البخاري برقم 3382).

«قال العلماء: وأصل الكرم كثرةُ الخير، وقد جمع يوسف عليه السلام مكارم الأخلاق مع شرف النبوة وشرف النسب، وكونه نبياً وابناً لثلاثة أنبياء متناسلين أحدهم خليل الله ﷺ، وانضم إليه شرف علم الرؤيا وتمكنه فيه، ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة وحياطته للرعية، وعموم نفعه إياهم وشفقته عليهم، وإنقاذه إياهم من تلك السنين»(صحيح مسلم بشرح النووي (15:134)). و«يوسف» اسم علم أعجمي، فهو ليس عربياً ولا مشتقاً، ولهذا لا نبحث عن مادة لاشتقاقه ولا عن معناه في العربية (الخالدي، القصص القرآني (2:73)).

ذكر اسم يوسف في القرآن في 26 آية؛ منها 24 آية في سورة يوسف، وآية في الأنعام، وآية في سورة المؤمنون (نوفل، سورة يوسف، ص 131).

2.2 اسمها وترتيبها وعدد آياتها

الاسم الوحيد لهذه السورة هو سورة يوسف.

ووجه تسميتها ظاهر؛ لأنها قَصَّت قصة يوسف -عليه السلام- كلها، ولم تذكر قصته في غيرها، وفي هذا الاسم تميز لها من بين السور المفتتحة بحروف «الر».

وهي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور (ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (12:197)).

وهي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف، وتقع في الجزء الثاني عشر أيضاً، وآياتها إحدى عشرة ومائة آية، ولا يماثلها في عدد آياتها إلا سورة الإسراء (نوفل، سورة يوسف، ص 24-25).

3.2 مكية السورة وصلتها بما قبلها

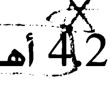
سورة يوسف مكية بالاتفاق (الفيروز أبادي، بصائر ذوي التمييز (1:255)).

نزلت بعد سورة هود في فترة حرجة بين عام الحزن بموت أبي طالب وخديجة سَنَدَيْ رسول الله ﷺ، وبيعة العقبة الأولى ثم الثانية اللَتَيْن جعل الله فيهما لرسول الله ﷺ، وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلامية، فرجاً ومخرجاً بالهجرة إلى المدينة (قطب، في ظلال القرآن (4: 1949)).

أما صلتها بما قبلها فقد جاء في تفسير القاسمي: «لما ختمت السورة التي قبلها بقوله: «وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ» (هود/120)، ذكرت هذه بعدها، لأنها من أنبائهم. وقد ذكر أولاً ما لقي الأنبياء عليهم السلام من قومهم، وذكر في هذه ما لقي يوسف من إخوته، ليعلم ما قاسوه من أذى الأجانب والأقارب، فبينهما أتم المناسبة» (القاسمي، تفسير القاسمي (4: 341)).

ثمةَ وجهٌ آخر للصلة بين سورة يوسف -عليه السلام- وما قبلها من السور؛ فالسورتان السابقتان لسورة يوسف هما سورتا يونس وهود عليهما السلام، وقد نزلت السور الثلاث (يونس وهود ويوسف) في مرحلة عصيبة توالت فيها الشدائد والنكبات على النبي ﷺ وعلى

المسلمين في مكة. وجاء ترتيب هذه السور الثلاث في النزول موافقاً لترتيبها في المصحف، وذلك لتحقيق هدف مشترك هو تقوية معنويات المسلمين، ومواساة الرسول ﷺ، ومواجهة أفكار وشبهات وإيذاءات الكفار في تلك الفترة العصيبة من تاريخ الدعوة، بما تقصّه تلك السور الثلاث على النبي ﷺ وعلى المسلمين من قصص الأنبياء السابقين الذين واجهوا الابتلاءات والمحن بقوة وصبر؛ فكانت العاقبة لهم، والهلاك لمن عاداهم.



تدريب (1)

هناك سور في القرآن غير سورة يوسف عليه السلام سميت بأسماء أنبياء، اذكر هذه السور.

4.2 أهداف السورة وأغراضها

عزيزي الدارس، لقد جاءت سورة يوسف -عليه السلام- لتحقق أهدافاً وأغراضاً جليلة القدر، عظيمة الشأن، نذكر منها ما يلي:

1- تسلية نبينا محمد -ﷺ- بما مر عليه من الكرب والشدة، وما لاقاه من صنوف الأذى والبلاء من العتاة الطغاة الظالمين من كفار مكة، الذين تآمروا عليه وعلى أتباعه ليطفئوا نور الله كما فعل إخوة يوسف بيوسف الصدّيق، فكانت المحنة متشابهة والعاقبة بالفرج والنصر متحدة.

2- بيان قصة يوسف -عليه السلام- مع إخوته وما لقيه في حياته، وما في ذلك من العبر من نواح مختلفة.

3- إثبات أن بعض المرائي قد يكون إنباء بأمر مغيَّب.

4- بيان أن تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحي عباده.

5- إثبات أن ذوي القرابة قد يتحاسدون فيما بينهم.

6- أن الله عز وجل يلطف بمن يصطفيه من عباده.

7- بيان سكنى إسرائيل (يعقوب عليه السلام) وبنيه بأرض مصر.

8- التعريف بشيء من تاريخ الأمم والحضارات القديمة، وحكوماتها وقوانينها وعقوباتها وتجاراتها، وأوضاعها الدينية والاجتماعية والأخلاقية.

9- التنويه عن أسلوب القرآن المعجز في قصّ القصص، ونقل أخبار الأمم والملوك.

10- الإيماء إلى هجرة النبي -ﷺ- والعصبة المؤمنة من مكة إلى البلد الذي حلوا فيه كما فعل يعقوب -عليه السلام- وآله.

11- ضرورة التقوى والصبر لاجتياز المصائب والمصاعب، والوصول إلى الأهداف العاجلة والآجلة.

12- بيان عاقبة المكر والظلم والخيانة، وأنها إلى ضلال وضياع.

13- إبراز عظمة الأخلاق الكريمة والصفات النبيلة التي اتصف بها نبيُّ الله يوسف، وخصوصاً صفات العفّة والعفو، والصبر الجميل، والوفاء، والصدق، والأمانة، والاستبراء للعرض، والتوكل على الله، والأخذ بالأسباب، والتخطيط الواعي للمستقبل، والتوبة والرجوع إلى الحق، وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

14- الدعوة إلى الله عز وجل على نور وعلم وبصيرة هي مهمة كل مسلم ومسلمة.

15- أهمية القصص القرآني، ووجوب التأمل فيه وتدبره.

?

أسئلة التقويم الذاتي (1)

1- كم مرة ذُكر يوسف عليه السلام في القرآن؟ وما السور التي ورد اسمه فيها؟

2- بيِّن وجه تسمية سورة يوسف بهذا الاسم.

3- هل سورة يوسف مكية أم مدنية؟ وضح إجابتك.

4- وضح صلة سورة يوسف بما قبلها من السور.

5- اذكر خمسة أهداف لسورة يوسف عليه السلام.

6- أجب «بنعم» أو «لا» على ما يلي:

أ- يوسف عليه السلام نبي وابنٌ لثلاثة أنبياء أحدهم كليم الله.

ب- الاسم الآخر لسورة يوسف هو أحسن القصص.

جـ- تقع سورة يوسف عليه السلام في الجزء الثاني عشر.

د- عدد آيات سورة الإسراء مائة وإحدى عشرة آية.

هـ- نزلت سورة يوسف بعد سورة هود.

و- إنَّ بعض المرائي قد يكون إنباءً بأمر مغيَّب.

ز- إسرائيل هو إسحاق عليه السلام.

3. الدرس الأول: تفسير الآيات (1-3) وحفظها «آلر.....لمن الغافلين»

1.3 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات

* المبين: الظاهر بنفسه في حقيقته وإعجازه، والمظهر لما شاء الله من حقائق الدين ومصالح الدنيا.
* القصص: إتباعُ الخَبرِ بَعْضَهُ بعضاً، وأصله في اللغة المتابعة، والمراد بالقصص: الأخبار التي قصها علينا الله في كتابه العزيز.
* لعلكم تعقلون: رجاء حصول العلم لكم من لفظه ومعناه.
* لمن الغافلين: الغفلة: انتفاء العلم لعدم توجّه الذهن إلى المعلوم، والمراد هنا غفلة النبي وقومه عن قصة يوسف لكونهم أميّين؛ لم تخطر القصة ببالهم ولم تقرع سمعهم.

ب- المعنى الإجمالي

تشكل هذه الآيات الثلاث مقدمة السورة، وهي تتحدث عن عظمة القرآن وأهميته وإعجازه.

تبدأ الآيات بهذه الحروف المقطعة: ألف، لام، راء، وفي ذلك إشارة إلى إعجاز القرآن وتحديه لمن نزل فيهم. فمن هذه الحروف الهجائية وأمثالها تتألف آيات هذا الكتاب المعجز، وهي ذاتها وعينها الحروف الّتي يتكلم بها العرب -وهم أول من نزل فيهم القرآن- فهي ليست بغريبة عنهم، وإنما هي مادة ألفاظهم وكلامهم وتَخاطُبِهم، فعجزهم بعد ذلك عن الإتيان بمثل القرآن دليل ساطع وبرهان قاطع على أن هذا القرآن من عند الله عز وجل. وليس لأحد من البشر -بعد عجز أئمة البيان وفرسان الكلام- أن يدّعي مقدرته على الإتيان بمثل هذا القرآن. وهذا القرآن مع إعجازه قد اتسم بالبيان واتصف بالوضوح؛ فآياته ظاهرة في نفسها، واضحة في معانيها ومراميها، مظهرة لغيرها من سبل الهداية والرشاد وصالح العباد.

وهذا القرآن المعجز المبين قد أنزله الله العليم الحكيم، فهو أشرف كتاب نزل من السماء، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق، في أشرف زمان ومكان، بأفصح لغة وأظهر لسان وأعذب بيان. كل ذلك، عزيزي الدارس، حتى يتفهمه الناس، ويستعملوا عقولهم لإدراك معانيه، والإحاطة بمراميه، والوقوف على دقائقه ولطائفه، واستخراج كنوزه وأسراره وحكمه

وأحكامه. فقد أودع الله فيه أصدق الأخبار وأعدل الأوامر والنواهي والأفكار، وضمّنه أحسن القصص من أنباء الأخيار والأشرار؛ قصّها علينا سبحانه بأبدع الطرائق الرائعة، وأعجب الأساليب الفائقة الرائقة، من قصص الأولين والآخرين؛ مَنْ أدركها عَقَلَ، ومن لم يعرفها وينتفع بعبرها غَفَلَ، مهما كان حظه من المعارف والعلوم.

2.3 الأحرف المقطعة في فواتح السور

بُدِئَت سورة يوسف -عليه السلام- بحروف ثلاثة، تقرأ مقطعة هكذا: ألف، لام، را. وشاركها في البداية بالحروف نفسها أربع سور أخرى، وهي يونس وهود وإبراهيم والحجر. أما عدد السور القرآنية التي افتتحت بالحروف المقطعة فهو تسع وعشرون سورة، بدئت بأربعة عشر حرفاً من حروف الهجاء.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور -بحذف المكرر منها- أربعة عشر حرفاً، وهي: أ ل م ص ر ك هـ ي ع ط س ح ق ن. يجمعها قولك (نص حكيم قاطع له سر) وهي نصف الحروف عدداً.

قال الزمخشري: «وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف، يعني من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة المفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقلة» (شاكر، عمدة التفسير (1: 93)).

وقد جاءت الحروف المقطعة التي بدئت بها هذه السور كلها، على أنواع: منها ما هو ذو حرف واحد، مثل «ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ»(ص/1)؛ «ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» (ق/1)؛ «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ» (القلم/1). ومنها ما هو ذو حرفين، مثل «طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى» (طه/1-2)؛ «يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» (يس/1-2)؛ «حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» (الجاثية/1-2). ومنها ما هو ذو ثلاثة أو أكثر، مثل «الم» (البقرة/1)؛ «المص» (الأعراف/1)؛«المر» (الرعد/1)؛ «كهيعص» (مريم/1)؛ «حم (1) عسق» (الشورى/1-2) .....إلخ (الشيخ محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم، ص 54-53).

وفي تفسير هذه الحروف -عزيزي الدارس- مذهبان؛ فقد قال علامة الشام الشيخ محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله معلقاً على قوله تعالى «الم» في سورة البقرة: «اعلم أن للناس في هذا وما يجري مجراه من الفواتح مذهبين: الأول أن هذا علم مستور وسر

محجوب، استأثر الله تبارك وتعالى به فهو من المتشابه. ولم يرتض هذا كثير من المحققين وقالوا: لا يجوز أن يرد في كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوماً للخلق. واحتجوا بأدلة عقلية ونقلية بسطها العلامة الفخر.

المذهب الثاني مذهب من فسرها وتكلم فيما يصح أن يكون مراداً منها، وهو ما للجمهور. وفيه وجهان: الأول، وعليه الأكثر، إنها أسماء للسور. الثاني أن يكون ورود الأسماء هكذا على نمط التعديد: كالإيقاظ وقرع العصا لمن تُحدّي بالقرآن وغرابة نظمه، وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلوّ عليهم -وقد عجزوا عنه عن آخرهم- كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أنْ لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله - بعد المراجعات المتطاولة - وهم أمراء الكلام، وزعماء الحوار، وهم الحِراصُ على التساجل في اقتضاب الخطب، والمتهالكون على الافتنان في القصيد والرجز، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي برّت بلاغة كل ناطق، وشقت غبار كل سابق، ولم يتجاوز الحد الخارج من قُوَى الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء، إلا لأنه ليس بكلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدر؛ قاله الزمخشري» (القاسمي، تفسير القاسمي (1: 236 - 237)).

3.3 أحسن القصص

تصف آيات الدرس الأول قصص القرآن بأنه أحسن القصص؛ «أي إنه أحسن من القصص البشري، مهما كان أسلوب القاص من البشر ومهما كانت بلاغته وموهبته».

(١) وحسن القصص القرآني يتجلى في الحسن الفني، فهو معروض في القرآن بأسلوب التصوير الفني، والجمال البياني المؤثر المعجز.

(٢) ويتجلى في الحسن الموضوعي، حيث يعرض لنا أخباراً أو معلومات عن ذلك التاريخ الماضي وأحداثه.

(٣) ويتجلى في الحسن الأخلاقي، لأن كل ما فيه حق وصدق، لا كذب فيه ولا تصرف بزيادة أو نقصان.

(٤) ويقدم القصص القرآني الدروس والعبر والعظات والدلالات المختلفة، سواء كانت دلالات عَقَديّة أو علمية أو دعوية أو جهادية أو تاريخية أو أدبية أو فنية.

وقد جعل القرآن ورود القصص فيه دليلاً على نبوة محمد ﷺ، ففي الآية يقول الله لرسوله ﷺ: «بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ» (يوسف/3).

أي: لم تكن تعرف أنت هذا القصص، لأنك أمي وسط قوم أميين، والله هو الذي أعلمك بها في القرآن، لأن القرآن كلامه، وأنت رسول له سبحانه» (الخالدي، القصص القرآني (1:29-30)).

إن وصف أحسن القصص يشمل قصة يوسف -عليه السلام- وسائر قصص القرآن، وقد جانب بعض العلماء الصواب حين قصروا صفة الأحسنية على قصة يوسف عليه السلام دون غيرها من قصص القرآن. يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «فكل قصص في القرآن هو أحسن القصص في بابه، وكل قصة في القرآن هي أحسن من كل ما يقصه القاص في غير القرآن، وليس المراد أحسن قصص القرآن قصة يوسف -عليه السلام- حتى تكون أحسن من بقية قصص القرآن كما دل عليه قوله «بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ» (تفسير التحرير والتنوير (12: 204-203)).

ثم إن القاص لجميع القصص القرآني هو الله عز وجل، وجميع ما يصدر عنه سبحانه هو الأحسن والأتم والأكمل.

ثم إن جوانب الأحسنية من الحسن الفني والموضوعي والأخلاقي، وتقديم العبر والدلالات والأسرار واللطائف، وتقديم الأدلة على نبوة محمد ﷺ كل ذلك متوفر وحاضر في سائر قصص القرآن.

نشاط (1)

ارجع إلى كتاب (سورة يوسف دراسة تحليلية) للدكتور أحمد نوفل، ولخص ما جاء فيه من أقوال العلماء والمفسرين في أحسن القصص.

3-4 ما ترشد إليه الآيات

1- القرآن كتاب ومعجزة في آن واحد، فهو معجز ومتحدى به، وآياته واضحة في نفسها، موضحة لغيرها.

2- اللغة العربية هي أفصح اللغات، وأبينها، وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم في النفوس.

3- وجوب تدبر قصص القرآن لكونه أحسن القصص وأنفعه، فعبرهُ كثيرة وحكمه وفيرة ودلالاته غزيرة.

4- من لا يهتدي بالقرآن ولا ينتفع بقصصه فهو غافل وإن ملك ناصية العلوم كلها.

أسئلة التقويم الذاتي (2)

1- فسر قوله تعالى: «الر».

2- اذكر ثلاث سور قرآنية افتتحت بحرفين من حروف التهجي.

3- بيِّن الجوانب التي يتجلى فيها حسن القصص القرآني.

4- كيف ترد على من يزعم بأن وصف أحسن القصص مقصور على قصة يوسف عليه السلام؟

5- اذكر ثلاثاً مما ترشد إليه آيات الدرس الأول.

6- أجب «بنعم» أو «لا» عن ما يلي:

* في القرآن الكريم تسع وعشرون سورة بدئت بالحروف المقطعة.
* ليس في القرآن سورة مفتتحة بستة أحرف من حروف الهجاء.
* القرآن كتاب ومعجزة في آن واحد.
* قد يُعَد بعض حملة الشهادات العليا في مختلف العلوم الدنيوية من الغافلين.

4. الدرس الثاني : تفسير الآيات (4-6) وحفظها
«إذ قال يوسف لأبيه......عليم حكيم»

4.1 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات

* الرؤيا: خاصة بالمنام، أما الرؤية -بالتاء- فهي خاصة باليقظة. قال الألوسي: مصدر رأى الحُلْمية الرؤيا ومصدر البصرية الرؤية.

* السجود: التطامن والانحناء الذي سببه الانقياد والخضوع، أو المبالغة في التعظيم.

* فيكيدوا لك كيداً: يدبروا ويحتالوا للإيقاع بك، تدبيراً شيطانياً يحكمونه بالتفكير والرّويّة. يقال: كاده إذا وجه إليه الكيد مباشرة، وكاد له إذا دبر الكيد لأجله سواء كان لمضرته وهو المراد هنا، أو لمنفعته.

* يجتبيك: الاجتباء: الاصطفاء والاختيار، وأصله من جبيت الماء في الحوض، إذا جمعته.

* تأويل الأحاديث: تفسير الرؤى والأخبار بما تؤول إليه في الوجود.

* آل يعقوب: الآل: مقلوب من الأهل، ويصغر على أهيل. والمراد من آل يعقوب خاصته وهم أبناؤه وزوجه.

ب- المعنى الإجمالي

تتحدث آيات هذا الدرس عن بداية قصة يوسف عليه السلام؛ تلك البداية التي كانت رؤيا رآها يوسف فأخبر بها أباه، فما كان من الأب الحاني إلا أن عقَّب على تلك الرؤيا، فكان تعقيبه تحذيراً وتبشيراً.

«قال المفسرون وغيرهم: رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم كأن أحد عشر كوكباً -وهي إشارة إلى بقية إخوته- والشمس والقمر -وهما عبارة عن أبويه- قد سجدوا له، فهاله ذلك، فلما استيقظ قصها على أبيه فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على إخوته كي لا يحسدوه ويبغوا له الغوائل، ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر» (الهلالي، صحيح قصص الأنبياء، ص 194).

ثم أخبر يعقوب ابنه يوسف عليهما السلام بأن الله سيكرمه بالنبوة، ويعلمه تفسير الأحلام والرؤى في المنام، ويتم عليه النعمة بالسيادة على جميع إخوته كما أتم النعمة على

أبويه إبراهيم وإسحاق؛ فالله عالم بمن هو أهل للفضل، حكيم في تدبيره لشؤون عباده.

وقد تسأل عزيزي الدارس عن الحكمة من ابتداء قصة يوسف برؤياه، وفي الإجابة عن هذا التساؤل يقول الشيخ ابن عاشور: «وابتداء قصة يوسف -عليه السلام- بذكر رؤياه إشارةٌ إلى أن الله هيأ نفسه (نفس يوسف) للنبوءة، فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة (أن اول ما ابتدئ رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح) (أخرجه مسلم في الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم 160). وفي ذلك تمهيد للمقصود من القصة، وهو تقرير فضل يوسف -عليه السلام- من طهارة وزكاة نفس وصبر، فذكر هذه الرؤيا في صدر القصة كالمقدمة والتمهيد للقصة المقصودة. وجعل الله تلك الرؤيا تنبيهاً ليوسف -عليه السلام- لعلو شأنه ليتذكرها كلما حلت به ضائقة، فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة» (ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (12: 208)).

4\2 من وجوه القراءات في الآيات في قوله تعالى (يَا أَبَتِ)

قرأ ابن عامر بفتح التاء، وقرأ الباقون بالكسر؛ وحجة من فتح أنه قرر إثبات ياء الإضافة، أي كأنه قال: يا أبتَيْ، ثم تحولت إلى (يا أبَتَا) ثم حذفت الألف لدلالة الفتح عليها.

وحجة من كسر أنه أبقى الكسرة تدل على الياء المحذوفة.

4\3 الرؤيا

اشتملت سورة يوسف عليه السلام على ثلاث رؤى: رؤيا يوسف عليه السلام، ورؤيا صاحبيه في السجن، ورؤيا الملك. وقد جاء تأويل هذه الرؤى في السورة نفسها.

«والرؤيا الـمَنامِيّة من عالم الغيب، فقد تكون حقيقة واقعية، كما في رؤيا يوسف الصديق -عليه السلام- وقد تكون أضغاث أحلام، أو من تلاعب الشيطان بالإنسان، وقد قسمها العلماء ثلاثة أقسام، أحدها: حديث النفس، كمن يهمه أمر من الأمور في نهاره، ويشتغل فكره بقضية من القضايا، فيراها في منامه ويسميها علماء النفس (أحلام الذاكرة) أو (خواطر الذاكرة)؛ كالعاشق الولهان يجد معشوقته في نومه لأن شكلها وصورتها لا تغيب عن ذاكرته، وكالقاتل المجرم يعلم أن أفراد الشرطة يبحثون عنه، فيراهم في منامه يلاحقونه ويطاردونه.

الثانية: أضغاث أحلام لا حقيقة لها ولا وجود، بل هي من رعونة النفس وتلاعب الشيطان بالإنسان، فإن الشيطان إذا لم يقدر على الإنسان بالنهار، فقد يأتيه ليلاً بصورة مفزعة مخيفة، ليعكر عليه صفوه، ويشغل به فكره، حتى تسيطر عليه الأوهام، وقد ورد في صحيح مسلم أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: رأيت في المنام كأن رأسي ضرب فتدحرج -أي قطع رأسي عن جسدي- وأنا أتبعه وأجري خلفه؛ فضحك النبي -ﷺ- ثم قال: (لا تخبر الناس بتلعّب الشيطان بك في منامك) وفي رواية : (إذا لعب الشيطان بأحدكم فلا يحدِّث به الناس).

الثالثة: الرؤيا الصادقة التي هي بشرى من الرحمن، وهي الرؤيا الحسنة يراها المؤمن في منامه، أو يراها له غيره، وقد كان -ﷺ- يعبِّر الرؤيا لأصحابه، ويقول: (هل رأى أحد منكم رؤيا؟)، فكان بعضهم يقص عليه ما رأى فيعبِّرها له عليه السلام. ومما يؤيد هذه الأقوال ما رواه الترمذي عن النبي -ﷺ- أنه قال: (الرؤيا ثلاث: فرؤيا حق، ورؤيا يحدث بها نفسه، ورؤيا تحزين من الشيطان).

وفي صحيح مسلم: (إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، والرؤيا ثلاث: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدِّث المرء نفسه، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليُصَلِّ ولا يحدِّث بها الناس، قال: وأحب القيد وأكره الغُلّ) قال أبو هريرة: «والقيد ثبات في الدين» (الصابوني، قبس من نور القرآن الكريم، (5: 106-107) بتصرف).

«والرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض أصفيائه الذين زكت نفوسهم، فتتصل نفوسهم بتعلقات من علم الله، وتعلقات من إرادته وقدرته وأمره التكويني، فتنكشف بها الأشياء المغيَّبة بالزمان قبل وقوعها، أو المغيبة بالمكان قبل اطلاع الناس عليها اطلاعاً عادياً؛ ولذلك قال النبي ﷺ: (الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) (ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (12 : 210-211)).

وعلة تحديد الرؤيا بهذه النسبة هي «أن النبي ﷺ بقي ستة أشهر يرى الوحي مناماً، ثم جاء الملك يقظة، ومدة الوحي ثلاث وعشرون سنة، فتكون نسبة الرؤى من حيث المدة واحداً

إلى ست وأربعين» (نوفل، سورة يوسف دراسة تحليلية، ص 251).

«وإنما شرطت المرائي الصادقة بالناس الصالحين لأن الارتياض على الأعمال الصالحة شاغل للنفس عن السيئات، ولأن الأعمال الصالحات ارتقاءات وكمالات، فهي معينة لجوهر النفس على الاتصال بعالَـمها الذي خلقت فيه وأنزلت منه، وبعكس ذلك الأعمال السيئة تبعدها عن مألوفاتها وتلبّدها وتذبذبها»(ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (12:211)).

عزيزي الدارس، «أما رؤيا الكافر والفاجر والفاسق والكاذب، وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات، فلا تكون من الوحي ولا من النبوة؛ إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب، يكون خبره ذاك نبوّة. ومن المعلوم أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكنّه نادر وقليل، فكذلك رؤيا هؤلاء» (الزحيلي، التفسير المنير، (12: 209)).



تدريب (2)

كان للنبي ﷺ عدة مرائي رآها في النوم تحققت في عالم الواقع، سجل ثلاث رؤى من تلك.

4) ما ترشد إليه الآيات

ترشد آيات هذا الدرس إلى حكم وعبر كثيرة منها:

1- إن فضائل الأنبياء تظهر منذ الصغر، وتكون فضائلهم علامات ودلائل على نبوتهم.

2- فضل الوالدين على الإخوة كفضل الشمس والقمر على سائر الكواكب.

3- جواز ترك إظهار النعمة لمن يُخشى منه حسد أو مكروه، فالحَسَنُ إذا كان سبباً للقبيح قَبُح.

4- إن عداوة الشيطان لجنس الإنسان تحمله على أن يدفعهم إلى إضرار بعضهم ببعض.

5- النبوة هي أكمل النعم وأتـمّها على الإطلاق.

6- تقديم الأشرف على الشريف في الذّكر.

أسئلة التقويم الذاتي (3)

1- فرق بين كلمتي: الرؤيا / والرؤية.
2- ما القضية التي تتحدث عنها آيات الدرس الثاني؟
3- وضّح الحكمة من ابتداء قصة يوسف عليه السلام برؤياه.
4- عدِّد أقسام الرؤيا المنامية.
5- اذكر خمس عِبَر ترشد إليها الآيات (6-4).

5. الدرس الثالث: تفسير الآيات (7-20) وحفظها «لقد كان في يوسف وإخوته..وكانوا فيه من الزاهدين»

1.5 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات

* آيات للسائلين: عبر ودلالات للذين يسألون عن أخبارهم وقصصهم.
* لفي ضلال مبين: لفي خطأ واضح، وخروج عن الصواب ظاهر.
* اطرحوه أرضاً: ألقوهُ في أرض بعيدة مجهولة.
* يخل لكم وجه أبيكم: يخلص لكم وجه أبيكم ويصفو، فيقبل بكلّيته عليكم، ولا يلتفت عنكم إلى غيركم، ولا ينازعكم في محبته أحد.
* غيابة الجب: غيابة: كل شيء غيَّب عنك شيئاً، ومنه قيل للقبر غيابة.

والجب: البئر غير المطوية. فغيابة الجب: قعره وغَوْره سمّي به لغيبته عن عين الناظر.
* السيّارة: جمع سيّار، وهم القوم الذين يسيرون في الأرض للتجارة وغيرها.
* وإنّا له لناصحون: النُّصح: عمل أو قول فيه نفع للمنصوح. وفعله يتعدى باللام غالباً وبنفسه.
* يرتع: يَتَّسع في أكل ما لَذَّ وطاب.
* متاعنا: المتاع: ما يتمتع أي ينتفع به، والمراد به هنا: ثيابنا.
* مؤمن لنا: بمصدّق لنا في قولنا.
* سوّلت: التسويل: التسهيل وتزيين النفس ما تحرص على حصوله.
* واردهم: الوارد: الذي يَرِدُ الماء ليستقي للقوم.

* (فأدلى دلوه) الإدلاء : إرسال الدلو في البئر لنزع الماء.
* (أسرّوه) أخْفَوْه.
* (وشَروه بثمن بخس) شرى الشيء يشريه : باعه، و(اشتراه) : ابتاعه. أي باعوه بثمن قليل ناقص عن ثمن مثله، على أنه ليس له مثل.

ب- المعنى الإجمالي

تكشف آيات هذا الدرس، عزيزي الدارس، عن مؤامرة إخوة يوسف عليه، وكيدهم له. فليوسف -عليه السلام- أحد عشر أخاً، أحدهم أخوه لأبيه وأمه، والبقية إخوة له من أبيه، وهم الذين تآمروا عليه، وكادوا له. وقبل أن تشرع الآيات بالتحدث عن المؤامرة، بينت لنا أن في قصة يوسف -عليه السلام- وحكايته مع إخوته عبراً ودروساً، ولطائف وإشراقات حري بأصحاب العقول أن ينظروا فيها، وأن يتعظوا ويعتبروا بها.

بدأت المؤامرة على يوسف -عليه السلام- في جلسة عقدها إخوته، فهم عشرة كبار -باستثناء يوسف الصبي وأخيه الأصغر الغلام- وناقش الإخوة مسألة أخيهم يوسف وأبيهم يعقوب، فاتهموا أباهم بالخطأ والانحراف وسوء التقدير والعمل؛ لأنه قدم يوسف وأخاه الصغيرين على بقية أبنائه في العناية والاهتمام والمحبة والمودة، وكان جديراً به -حسب رأيهم- أن يقدمهم هم على يوسف وأخيه، فهم جماعة أقوياء، ذوو عدد وقوة، يقدرون على النفع والضر بخلاف أخويْهم.

وبعد أن اتهم الإخوة أباهم بما اتهموه به من الضلال والانحراف -وهو نبي كريم- عزموا على قتل يوسف عليه السلام، أو تشريده إلى أرض بعيدة مجهولة حتى يخلص لهم وجه أبيهم، ويقبل عليهم بعد أن كان مشغولاً عنهم بيوسف عليه السلام.

وأما قتلهم ليوسف، أو تشريدهم له، فذنب سيتوبون منه ويكونون بعده من أهل الخير والصلاح. وبينما هم يتآمرون ويتشاورون في الطريقة التي يتخلصون بها من يوسف، إذ خطرت لأحدهم خاطرة، وبدا له رأي غير الرأيين السابقين، فيه تحقيق لرغبتهم دون مباشرة لجريمة القتل أو التشريد، وذلك الرأي يتمثل بإلقاء يوسف -عليه السلام - في قعر بئر مظلم على طريق القوافل، ليلتقطه بعض المسافرين، فيأخذوه معهم، فيكونوا قد تخلصوا منه دون أن يقتلوه أو يشردوه.

ويلقى الرأي الجديد قبولاً عند الإخوة، فيجتمعون عليه ويعزمون على تنفيذه.

ولتحقيق ذلك يتوجه الإخوة إلى أبيهم يعقوب، طالبين منه أن يرسل أخاهم يوسف

معهم، ليرتع كما يرتعون، ويلعب كما يلعبون، آخذين العهد على أنفسهم بحفظه ورعايته من كل سوء ومكروه. ولكن الأب الحاني على ابنه الصغير، والعالم بحسد إخوته له، يعتذر عن عَدَمِ رغبتِه بإرساله مع إخوته بحجة حزنه على مفارقته، وخوفه على يوسف من الذئب أن يفترسه إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم. وبدهاء شديد يبدد الإخوة مخاوف أبيهم قائلين له: كيف تخاف عليه من الذئب، ونحن جماعة أقوياء أشداء؟ فوالله لئن وصل إليه الذئب وهو معنا، لنكوننّ من الفاشلين الذين لا يصلحون لأي شيء، ونحن لسنا هكذا، ولهذا أبعد عن ذهنك هذا الخاطر.

نزل يعقوب عليه السلام عند إصرارهم ورغبتهم، فأرسله معهم، فأخذ الإخوة أخاهم الصغير، وفي الطريق أجمعوا من جديد على إلقائه في البئر، واختاروا بئراً مطويةً على طريق القوافل فألقوه فيها، وفي تلك المحنة العصيبة تتدارك يوسف عليه السلام الرحمة الإلهية -والله رحيم بأوليائه- فيوحي الله إليه وحي إلهام لتخبرنَّ إخوتك بجريمتهم هذه، وتؤنبهم عليها، وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف، في موقف تكون أنت فيه في عِزّ وهم في ذُلّ.

وبعد تنفيذ الجريمة، يعود الإخوة إلى أبيهم وقد انتشر الظلام، وهم يبكون، حاملين معهم قميص يوسف وقد لطخوه بدم مكذوب، ونسي الإخوة أن يمزقوا القميص أو يخرقوه -وآفة الكذب النسيان- «قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ» (يوسف/17).

ولكن الأب الواعي المدرك لم تنطلِ عليه المؤامرة، ولم تَخَلْ عليه الدموع الكاذبة التي ذرفوها، بل عرف أنهم تآمروا على أخيهم: «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا» (يوسف/83). لم يزد يعقوب -عليه السلام- على هذه الكلمات مع أبنائه حتى لجأ إلى الصبر واستعان بالله وهو خير معين.

أما يوسف -عليه السلام - فقد قيض الله له قافلة كانت تسير في طريقها إلى مصر، فأرسلوا أحدهم ليأتيهم بماء، فلما أدلى دلوه في البئر تعلق به يوسف، وكان ذلك سبباً لنجاته من الهلاك.

فرح أولئك المارة بهذه الغنيمة الثمينة، وأخفوا أمره عن الناس ليبيعوه في أرض مصر، ولما وصلوا أرض مصر باعوه بثمن زهيد، «وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ» (يوسف/20).

2.5 من وجوه القراءات في الآيات

2.5.1 في قوله تعالى: ﴿آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾

قرأ ابن كثير (آية) بغير ألف حيث حمله على شأن يوسف، وقرأ الباقون (آيات) على الجمع لأن أمور يوسف كانت كثيرة، وكل واحد منها آية بنفسه.

2.5.2 وفي قوله تعالى: ﴿غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾

قرأ نافع (غيابات) بالجمع، ومعناه جهات تلك الغيابة، أو بجَعْل الجمع للمبالغة في ماهية الاسم، كقوله تعالى: «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ» (النور/40) وقرأ الباقون «غَيَابَةِ الْجُبِّ» بالإفراد؛ لأن يوسف لم يلق إلا في غيابة واحدة، فالإنسان لا تحويه أمكنة إنما يحويه مكان واحد.

2.5.3 وفي قوله تعالى: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾

قرأ نافع بياء الغائب وكسر العين (يرتَع ويلعب) أي (يَرْتَعي) وقرأ ابن كثير بنون المتكلم وكسر العين (نرتع ونلعب) وهو على قراءتي هؤلاء مضارعُ ارتعى، وهو افتعال من الرعي للمبالغة فيه. فهو حقيقة في أكل المواشي والبهائم، واستعير في كلامهم للأكل الكثير.

وقرأ أبو عمرو وابن عامر بنون وسكون العين (نرتَعْ ونلعب)، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بياء الغائب وسكون العين (يرتَعْ ويلعبْ) وهو على قراءتي هؤلاء مضارعُ رَتَعَ إذا أقام في خصب وسعة من الطعام، والتحقيق أن هذا مستعار من رتعت الدابة اذا أكلت في المرعى حتى شبعت، فمفاد المعنى على التأويلين واحد.

2.5.4 وفي قوله تعالى: ﴿يَا بُشْرَى﴾

قرأ عاصم وحمزة والكسائي بغير ياء بعد الألف هكذا (بُشرى)، وقرأ الباقون بياء مفتوحة بعد الألف.

تدريب (3)

أطلق الضلال في القرآن الكريم على ثلاثة أمور؛ بيِّنها.

3.5 هل إخوة يوسف أنبياء؟

هذا السؤال قد يخطر ببالك عزيزي الدارس، وللإجابة عنه نقول:

ذهب بعض العلماء إلى أن إخوة يوسف -عليه السلام- أنبياء، وذهب آخرون إلى أنهم ليسوا بأنبياء، والذي ترتاح إليه النفس، ويطمئن إليه القلب، ويستريح إليه الفؤاد، أن أخوة يوسف -عليه السلام- ليسوا بأنبياء.

قال ابن كثير: «اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنه أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: «قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ» (البقرة/ 136). وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم» (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2-487)).

«إن تصرفات وأفعال إخوة يوسف لا يمكن أن تصدر عن أنبياء، ولو قبل أن يكونوا أنبياء.

(١) ومن الجرائم الخطيرة لهم: سوء كلامهم مع أبيهم النبي يعقوب عليه السلام، فمرة يقولون: «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (يوسف/8)، ومرة يقولون له: «تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ» (يوسف/85). ومرة يقولون له: «تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ» (يوسف/95).

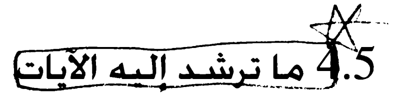
فهل يقول مؤمن صالح هذا الكلام لأبيه المؤمن؟ فكيف يقوله من سيكونون أنبياء لأبيهم؟ ومن جرائمهم: الكذب، فلقد كذبوا على أبيهم عندما اتهموا الذئب بأكل يوسف، وكذبوا على يوسف -عزيز مصر- عندما قالوا له «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ» (يوسف/77). فهل يكذب النبي بعد النبوة؟ بل هل يكذب النبي قبل النبوة؟

(٢) ومن جرائمهم: الحقد واللؤم والكيد والتآمر، وهي أمراض وانحرافات أخلاقية وعقد نفسية، لا تصدر عمّن سيكونون أنبياء.

(٣) ومن أفظع جرائمهم: ما فعلوه بأخيهم الصغير يوسف، فهل يفكر من سيكونون أنبياء بقتل أخيهم الصغير؟ وإذا ما استفظعوا القتل فهل يلقونه في البئر؟

ولولا رحمة الله التي أدركت يوسف الطفل في البئر لكان فيه موته وهلاكه.

لهذه الجرائم التي صدرت عن إخوة يوسف نقول: لم يكونوا أنبياء! ودعك من دعاوى ومزاعم أحبار اليهود التي سجلوها في روايات العهد القديم المحرفة» (الخالدي، القصص القرآني (2: 253-252)).



4.5 ما ترشد إليه الآيات

ترشد آيات هذا الدرس إلى حكم وأحكام ومعانٍ كثيرة منها:

1- الحث على تعلم وإدراك قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، واستنباط دروسها وعبرها ومعرفة آياتها وإيحاءاتها.

2- يجوز للأب أن يؤثر أحد أبنائه لسبب يقتضي هذا الإيثار من صِغَر أو مرض أو سفر.

3- إن الأفضلية ليست بالكثرة، إنما بعموم النفع وكرم الخلق.

4- إن الحسد والحقد والكيد والتآمر أخلاق أصيلة وطباع قديمة في بني إسرائيل، نشأت معهم بنشأة أصولهم.

5- ظهور مبدأ الغاية تبرر الوسيلة مبكراً في بني إسرائيل.

6- إن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب.

7- إن بكاء المرء لا يدل على صدقه لاحتمال أن يكون تصنعاً.

8- مشروعية المسابقة.

9- جواز الاعتماد على الأمارات في المسائل الفقهية؛ فيعقوب عليه السلام استدل على كذب أولاده بصحة القميص وسلامته من التخرق.

10- الجمع بين الصبر والاستعانة -في كلام يعقوب- دال على أن إقدامه على الصبر لا يكون إلا بمعونة الله تعالى للتغلب على الجزع، أو الحزن، بسبب الدواعي القوية إليه.

?

أسئلة التقويم الذاتي (4)

1- وضح معاني المفردات التالية:

* لفي ضلال مبين.
* غيابة الجب.
* يرتع.
* فأدلى دلوه.
* أسرّوه.

2- ما الذي قرره إخوة يوسف حين اجتمعوا للتآمر عليه؟

3- كيف نجا يوسف عليه السلام من الجب؟

4- بم استدل يعقوب عليه السلام على كذب أبنائه في اتهام الذئب بأكل يوسف؟

5- في قوله تعالى «آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ» قراءتان؛ اذكرهما مبيناً من قرأ بهما.

6- وضح رأي ابن كثير في نبوة إخوة يوسف.

7- من جرائم إخوة يوسف الكذب؛ بين ذلك.

8- ما الدروس أو العبر التي يمكن أخذها من الآيات التالية:

* «اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ» (يوسف/9).
* «وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ» (يوسف/16).
* «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» (يوسف/18).

6. الدرس الرابع : تفسير الآيات (21-35) وحفظها «وقال الذي اشتراه من مصر.....ليسجننه حتى حين»

1.6 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات

* أكرمي مثواه: الثواء: الإقامة، والمثوى: موضع الإقامة، والمراد بأكرمي مثواه: أحسني معاملته.
* مكنا ليوسف في الأرض: مكّنا له في أرض مصر، وجعلنا له مكانةً رفيعة فيها.
* بلغ أشده: استكمل قوته جسماً وعقلاً.
* وراودته: المراودة: المطالبة برفق ولين مع ضرب من المخادعة والمراوغة، لكي يريد منها ما تريد هي منه مخالفاً لإرادته.
* هيت لك: اسم فعل أمر بمعنى أقبل وبادر، واللام في لك لبيان الفاعل؛ أي أَقْبِلْ أنت.
* معاذ الله: أعوذ بالله معاذاً، وأتحصن به.
* همّت: الهَمُّ يأتي بمعنى العزم والقصد، ومنه «وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ» (غافر/5). ويأتي بمعنى الخاطر وحديث النفس دون عزم.
* قدّت: القدّ: الشق والقطع، وأكثر ما يستعمل في الطول، والقطّ يستعمل في العرض.

* وألفيا سيدها لدى الباب: وجدا زوجها عند الباب. وكانت النساء في مصر يلقبن الزوج بالسيد. واستمر هذا إلى زماننا.
* من قُبُل: من قدّام أو من أمام.
* من دُبُر: من خلف.
* كيدكن: الكيد: المكر والحيلة.
* من الخاطئين: المتعمدين للذنب؛ من خَطِئَ الرجل فهو خاطئ إذا تعمد الذنب. وأخطأ يُخطئ إذا غلط ولم يتعمد.
* العزيز: لقب لأكبر وزراء الملك وأمنائه.
* شغفها حباً: وصل حبه إلى سويداء قلبها.
* بمكرهن: باغتيابهن لها. سمي مكرا لأنهن أخفينه كما يخفي الماكر مكره.
* وأعتدت: أعدت وهيأت.
* متكأ: ما يتكأ عليه من فرش ونحوه.
* أكبرنه: أعظمنه وأجللنه.
* حاش لله: تنزه الله عن صفات العجز وتعالت عظمته في قدرته على خلق مثله.
* فاستعصم: امتنع امتناعاً شديداً. مأخوذ من العصمة؛ وهي المنع من الوقوع في المعصية.
* من الصاغرين: الذليلين المهانين.
* أَصْبُ: أَمِلْ. يقال: صبا إلى اللهو إذا مال إليه.
* بدا لهم: ظهر لهم من الرأي. من البَداء - بالفتح - لا من البُدُوّ.
* ليسجننه حتى حين: أي يسجن سجناً مؤقتاً لا مؤبداً.

ب- المعنى الإجمالي

عُرض يوسف للبيع في أسواق مصر. فاشتراه العزيز وهو لقب لأكبر الوزراء. وتوسم العزيز في يوسف أمارات الذكاء والنبوغ. فأوصى به خيراً. وقال لامرأته: أحسني معاملته. وأكرمي مقامه ومَنزِله. لعله إذا كبر أن ينفعنا في تدبير شؤوننا الخاصة والعامة. أو نتبناه؛ لأن العزيز كان عقيماً لا يولد له. كما قال أكثر المفسرين.

وهكذا -عزيزي الدارس- منَّ الله على يوسف بإنجائه من كيد إخوته. وإخراجه من البئر. وجعله في بيت عزيز مصر. عزيزاً مكرماً. بعد أن أحبه صاحب البيت وأوصى به خيراً. ثم تعليمه حقائق الأمور. ومنها تعبير الرؤيا؛ كل هذه المنن والنعم رفعت من شأن يوسف عند الناس.

وجعلت منه إنساناً موثوقاً معروفاً للعامة والخاصة. وهذا الذي حصل مع يوسف إنما هو بتدبير الله وإرادته فإن الله «غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (يوسف/21).

أقام يوسف -عليه السلام- في بيت العزيز مكرماً منعماً، وبقي كذلك إلى أن بلغ رشده، واشتد عوده، واكتمل قوةً ورجولة، فآتاه الله العلم والحكمة، وكان يوسف -عليه السلام- على قدر كبير من الجمال. وهكذا اجتمع في شخص يوسف الكريم القوة والشباب، والعلم والحكمة، والجمال والجلال، وهي صفات تستهوي القلوب وتوجب المحبة والاحترام والتقدير. ولهذا أعجبت به سيدته _ امرأة العزيز _ إعجاباً شديداً، ومالت إليه ميلاً عظيماً، فأحبته حباً بلغ شغاف قلبها وملك عليها عقلها وكيانها، فما كان منها إلا أن دبّرتلإيقاعه في حبالها، وأن يريد منها ما تريد هي منه، فأغلقت أبواب القصر بعد أن خرج زوجها، وأحكمت إغلاقها، ولم يبق في القصر إلا هي ويوسف في خلوة تامة آمنة، فهيأت وتهيأت ولبست وتعطرت وتزينت وتصنعت، وعن محاسنها كشفت، ولمفاتنها أبرزت، ثم في لين ورفق طلبت ومن بعد الطلب أمرت، «وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ» (يوسف/23) في دعوة صريحة ليوسف أن يواقعها ويضاجعها، ليشبع نار عشقها ولهيب غرامها.

إنها فتنة طاغية، وعاصفة عاتية، لا عاصم منها ولا ملجأ إلا باللجوء إلى الله، لذا لجأ يوسف -عليه السلام- إلى ربه، واستعاذ به، وبه استعان «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» (يوسف/23).

وحين رأت تلك المرأة الشهوانية إباء يوسف -عليه السلام- وتمنّعه الشديد، هاجت وماجت، وهمّت بالبطش به لعصيانه أمرها. وهي في نظر نفسها سيدته وهو عبدها، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة، ومراوَدَةً عن نفسها لا مراوِدةَ. ولولا قوة الإيمان في قلب يوسف عليه السلام، وقوة مراقبته لربه، لَهَمّ بالدفاع عن نفسه أمام بطشها وعدوانها. ولكنّ الله الذي أكرم يوسف، وأخلصه له، صرف عنه سوء التصدي بالضرب لامرأة باغية كما صرف عنه الفحشاء من قبل.

وترجيحاً للفرار على الدفاع الذي لا تعرف عاقبته، فرَّ يوسف -عليه السلام- من أمامها هارباً إلى باب الدار يريد الخروج منه للنجاة منها، غير أن المرأة المتهالكة تبعته تبغي إرجاعه، وتكلف كل منهما أن يسبق الآخر فأدركته «وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ» (يوسف/25) إذ جذبته به من ورائه فانقد.

وفي هذه اللحظة تقع المفاجأة التي لم تتوقعها هي، إذ يصل زوجها في غير ميعاد، «وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ» (يوسف/25) وبدهاء المرأة الماكرة صرخت وصاحت في وجه زوجها «قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (يوسف/25)، فحولت التهمة إليه، وأرادت السوء به، ليصير الظالم مظلوماً والطالب مطلوباً، والخائن بريئاً، والبريء متهماً. ولم تكتفِ بهذا بل قررت العقوبة، وهي السجن أو عذاب أليم. وأمام كذبها وبهتانها اضطر يوسف النظيف العفيف التقي النقي أن يدافع عن نفسه، وأن يدفع التهمة الشنيعة عنه «قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي» (يوسف: 26) فامتنعتُ وفررتُ.

وأمام اختلاف الروايتين، رفع العزيز القضية إلى رجل حصيف ذكي من أهل امرأته ليرى رأيه، وليسمع قضاءه، فكان قضاؤه أن قال: انظروا إلى قميص يوسف، من أين تم قده وشقه؟ إن كان قميصه قدَّ وشق من الأمام؛ من جهة صدره، يكون هو المهاجم المعتدي عليها، وتكون هي المظلومة البريئة الـمُعتدى عليها. وإن كان قميصه قدَّ من الخلف تكون هي المعتدية الطالبة له، المراودة له عن نفسه ويكون هارباً منها قد جاءته من جهة ظهره.

فلما رأى العزيز أنَّ القميص قدَّ وقطع من الخلف أيقن أن زوجته هي الخائنة، وهي التي راودت يوسف عن نفسه، وأن يوسف بريء بل عفيف وشريف وأمين.

تعامل العزيز مع هذا الموضوع الخطير بأعصاب متجمدة، ودم بارد، ولهذا لم يزد على أن قال: «إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ» (يوسف/28).

ثم خاطبهما معاً بقوله: «يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ» (يوسف/29)، أي: لا تذكر يا يوسف ما حدث لأحد، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن، وأمر زوجته بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها، والتوبة إلى ربها، فان العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه.

لعلك -عزيزي الدارس- تتساءل الآن: هل انتهت الحادثة إلى هنا، أم كان لها ظلالها وتداعياتها؟

لقد شاع خبر المراودة في أرجاء المدينة، وتناقلته الألسنة، وخصوصاً ألسنة النساء من الطبقة الحاكمة، وكان الحديث يجري حول لوم امرأة العزيز وانتقادها على ما صدر منها، إذ كيف يليق بامرأة من الطبقة الراقية، من سيدات القصور، ومن ذوات العز والجاه أن يتعلق قلبها بعبد مملوك، وهو أجير وخادم لها؟ وأن يبلغ حبه في قلبها إلى هذه الدرجة المهينة من مراودة العبد عن نفسه والتوسل إليه لقضاء حاجتها؟

ولما سمعت امرأة العزيز بما تقول النسوة عنها، من كلام فيه لوم وانتقاد واستهجان لصنيعها، أرادت أن تبرر لهن صواب تصرفها وأنها لم تضل، ولم تخطئ في حبها وعشقها لفتاها. وتحقيقاً لذلك دعت النسوة إلى حفلٍ في بيتها، فيه ما فيه من اللهو والمرح، والمآكل والمشارب بعد أن هيأت لهن الفرش، ورتبت لهن جلسة مريحة ناعمة. ثم وضعت بين أيديهن ما لذَّ وطاب من أنواع الطعام والفاكهة، وناولت كل واحدة منهن سكيناً لتستخدمه في تقشير الفاكهة وتقطيعها. حتى إذا باشرن الطعام، أمرت يوسف أن يخرج عليهن، فخرج عليهن يوسف في بهائه وجماله، ووقاره وزينته، فألهاهن حسنه، وبهرهن جماله، وتشاغلن به عما في أيديهن من السكاكين فجرحن أيديهن، ولم يشعرن في تلك اللذة الغامرة من الاستمتاع بالنظر إليه بألم جراحة الأصابع، حيث كان الدم يسيل على ثيابهن، وهنَّ يحسبن أنهن يقطعن الفاكهة.

في هذه اللحظة شعرت امرأة العزيز بأنها انتصرت على النسوة، فباحت لهن بسر عشقها له بعد أن أوقعتهن في شباك غرامه، فقالت قولة المجاهرة المنتصرة التي لا تستحي -أمام النساء من بنات جنسها- أن تفضي لهن بما في نفسها، دون أي شعور من حياء أو خجل «قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ» (يوسف/32). فهي تعترف أمام النسوة بأنها هي التي راودته عن نفسه فقوبلت بالامتناع الشديد والاستعصام، ثم تعلن أن يوسف مخير بين أمرين: إمّا أن يفعل ما تريده منه، وإما أن يسجن ويعتقل.

عندها أعلن يوسف -عليه السلام- أن السجن على سوئه وشره أحب إليه من الوقوع في المعصية، واستغاث بالله عز وجل أن يعينه وأن يصرف عنه كيد النسوة «فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (يوسف/34).

ولإلصاق التهمة بيوسف عليه السلام، وصرف الألسنة والأنظار عن امرأة العزيز، قرر العزيز وحاشيته سجن يوسف عليه السلام سجناً مؤقتاً، مع قيام الأدلة والبراهين على عفته وبراءته.

2.6 من وجوه القراءات في آيات الدرس

1.2.6 في قوله تعالى: (هَيْتَ لَكَ)

قرأ نافع، وابن ذكوان عن ابن عامر، وأبو جعفر بكسر الهاء وفتح التاء (هيتَ لك). وقرأ

هشام: (هِئْتَ لك) بكسر الهاء والهمزة الساكنة وفتح التاء، وقرأ ابن كثير (هَيتُ لك) بفتح الهاء وسكون الياء، وضم التاء، وقرأ الباقون (هَيْتَ لك) بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء.

ومؤدى القراءات هذه ما عدا (هِئتُ لك) واحد، لأنها لغات بمعنى: هلم، تعال؛ وهي اسم فعل بهذا المعنى، أما (هِئتُ لك) فهي بمعنى تهيأت لك. فامرأة العزيز تهيأت ليوسف عليه السلام ودعته بقولها هلم أو تعال.

2.6.2 في قوله تعالى: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (المخلِصين) بكسر اللام، على أنه اسم فاعل.

وقرأها باقي القراء (المخلَصين) بفتح اللام، على أنه اسم مفعول. وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

2.6.3 في قوله تعالى: (وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ)

قرأ أبو عمرو (وقلن حاشى لله) بإثبات الألف بعد الشين؛ وهي الأصل لأنها من المحاشاة، وهي التنحية والتبعيد.

وقرأ الباقون بحذف الألف للتخفيف، وكثرة دورانها على الألسن اتباعاً للمصحف.

نشاط (2)

ارجع إلى تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) وبيّن ما ذكره عن الشاهد في قوله تعالى: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا» (يوسف/26).

3.6 في ظلال قوله تعالى: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)...الآية

يقول الشيخ محمد علي الصابوني معقباً على هذه الآية : «لقد شط القلم، وزلقت القدم ببعض المفسرين حين زعموا أن يوسف عليه السلام قد همَّ بمقارفة الفاحشة، وشحنت بعض كتب التفسير بكثير من الروايات الإسرائيلية الواهية، بل المنكرة الباطلة في تفسير (الهم) و(البرهان)؛ حتى زعم بعضهم أن يوسف حلَّ رباط السروال، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته، ثم رأى صورة أبيه (يعقوب) عاضاً على إصبعه، فقام عنها وتركها خجلاً من أبيه، إلى غير ما هنالك من أقوال واهية، لا زمام لها ولا خطام.

ولست أدري كيف دخلت تلك الروايات المنكرة إلى بعض كتب التفسير، وتقبلها بعضهم بقبول حسن، وكلها -كما يقول العلامة أبو السعود- خرافات وأباطيل تمجها الآذان،

وتردها العقول والأذهان! ثم كيف غاب عن أولئك المفسرين أن (يوسف الصديق) نبي كريم، ابن نبي كريم، وأن العصمة من صفات الأنبياء!!» (صفوة التفاسير(2:53)).

لقد اختلفت أقوال العلماء في تفسير همّها به وهمّه بها، "فقال بعضهم : همّت به همّ الفاحشة، ودعته إلى نفسها، وهمّ بها فمال إليها لولا أن رأى برهان ربه.

وقال آخرون: فَرْقٌ بين همّها به ، وهمه بها. أما هي فكان همها به هم الفاحشة، وهمه بها كان هم الضرب، فقد همّ أن يضربها لأنها دعته إلى الفاحشة، لولا أنه رأى برهان ربه، فكف عما هم به من ضربها.

وقال آخرون: لقد همت هي به، أما هو فإنه لم يهم بها، ولقد انتهى الخبر عنها عند قوله «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ » (يوسف/24). ثم أخبر عن أن يوسف ما هم بها، فقال «وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» (يوسف/24)، أي : لولا رؤيته برهان ربه لهم بها، فرؤيته برهان ربه منعه أن يهم بها» (الخالدي، تفسير الطبري تقريب وتهذيب (4: 441-442)).

والصحيح الذي ترتاح إليه النفس، ويطمئن إليه القلب، أن همّها به كان همّ الضرب، وأما يوسف عليه السلام فلم يقع منه هم أبداً، لا همّ بفاحشة ولا همّ بسوء.

عزيزي الدارس، ولتأكيد هذه الحقيقة وتقريرها يحسن بنا أن نعرف أولاً معنى الهم.

«فالهم بالشيء في كلام العرب حديث المرء نفسه بمواقعته ما لم يواقع» (الخالدي، تفسير الطبري تقريب وتهذيب (4 : 441)). وعليه فإن الهم بالشيء يكون قبل مباشرة ذلك الشيء لا بعده، وقد عرفنا من الآية السابقة وهي قوله تعالى «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ» (يوسف/23) أن امرأة العزيز قد باشرت الفعل فدبرت وخططت، وغلقت الأبواب، وهيأت وتهيأت، ثم دعت دعوتها الصريحة ليوسف عليه السلام بأن يواقعها ويضاجعها، فكيف يقال بعد المباشرة بالفعل وتهيئة مقدماته وأسبابه أنها حدثت نفسها بهذا الأمر؟ بل إن همّها بالفاحشة وتحديث نفسها بها قد جاء مبكراً، ومبكراً جداً.

«فيوسف -عليه السلام- قد أمضى صباه وفتوته في بيت امرأة العزيز، وبقي في البيت إلى أن بلغ أشده واكتمل شبابه، وهذا يعني أنه أمضى في البيت سنوات وسنوات. وقد تعرض يوسف خلال هذه السنوات العديدة إلى مراودة وإغراء امرأة العزيز، ولعلها بدأتها بالإشارة الموحية غير الصريحة، والتصرفات اللافتة للنظر، من تبرج وتزين وحركة، وهذه الحركات والتصرفات كفيلة بلفت نظر الراغب فيها، وإيقاظ هاجس الشهوة عنده» (الخالدي، القصص القرآني (2:115)).

فالمراودة المذكورة في قوله تعالى «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ

وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ» إنما هي المراودة السافرة الجاهرة التي لم تلجأ إليها امرأة العزيز إلا بعد محاولات ومراودات لطيفة هادئة، فلما أخفقت فيها لجأت إلى الدعوة الصريحة «وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ». يقول سيد قطب رحمه الله معقباً على هذه الدعوة «هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة، إنما تكون هي الدعوة الأخيرة، وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً. والفتى يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج، فلا بد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة» (سيد قطب، في ظلال القرآن، (4:1980)).

فهل لأحد بعد هذا البيان أن يقول: إن همّ امرأة العزيز الوارد في قوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» كان همّاً بالفاحشة؟ أم إنه همٌّ بشيء آخر؟ إنه هم بالبطش والانتقام، كما قال صاحب المنار، فبعد أن فعلت المرأة ما فعلت -مما ذكرنا- ولم تجد إلا الإباء والاستعصام استعملت يدها لتثأر لكرامتها -وهي السيدة- من فتاها وخادمها الذي أهانها برفضه، وأذلها بإبائه وهي الراغبة الطالبة.

هذا عن همِّ المرأة. أما يوسف عليه السلام، فلم يقع منه هم ألبتة، ولا مال قلبه، ولا حدَّث نفسه بشيء، ولا خطر في باله إلا الإباء والتمنع والاستعصام، ومن قال بغير ذلك فقد خالف النقل والعقل واللغة والواقع.

يقول الإمام الرازي رحمه الله: «إن يوسف عليه السلام كان بريئاً عن العمل الباطل، والهم المحرم، وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين، وبه نقول وعنه نذب.

ثم قال: واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف عليه السلام، وتلك المرأة وزوجها، والنسوة والشهود ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب، وإبليس أقر ببراءته عن المعصية، وإذا كان الأمر كذلك، فحينئذ لم يبق للمسلم توقف في هذا الباب.

أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام «هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي»(يوسف:26)، وقوله عليه السلام «رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ»(يوسف/33)؛ وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة «وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ»(يوسف/32) وأيضاً قالت «الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ»(يوسف/51). وأما بيان أن زوج المرأة أقر بذلك، فهو قوله «إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ».

وأما الشهود فقوله تعالى « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ». وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله «كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ». فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات: أولها قوله «لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ» واللام للتأكيد والمبالغة. والثاني: قوله «وَالْفَحْشَاءَ» أي كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء. والثالث: قوله «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» مع أنه تعالى قال «وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» (الفرقان/63). والرابع: قوله «الْمُخْلَصِينَ» وفيه قراءتان: تارة باسم الفاعل، وأخرى باسم المفعول، فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً للطاعات والقربات مع صفة الإخلاص. ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته، وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه. وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته فلأنه قال «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ»(ص/82-83). فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى: «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» فكان هذا إقراراً من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى (الرازي، التفسير الكبير، (18 : 115-117)).

وأما شهادة النسوة على براءة يوسف من الهم المحرم فهو قولهن «قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ» (يوسف/51).

فتأمل -عزيزي الدارس- تنكير كلمة سوء، ومجيئها في معرض النفي لتفيد العموم، أي أن يوسف عليه السلام بريء من أدنى السوء، ولا شك أن مجرد الهم وإن كان حديثاً أو خاطراً يعد سوءاً.

فإذا كانت هذه شهادة المحيطين بالقضية، المطلعين عليها، فإنه لا ينبغي لغيرهم أن يقول بغير قولهم؛ وبناء على ذلك تكون القراءة الصحيحة للآية هكذا:«وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» وهنا وقف تام، ثم يبتدئ القارئ : «وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ» ويكون المعنى: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه رآه فلم يهم، ويشبه هذه الآية قول الله تعالى عن أم موسى «إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا» (القصص/10) أي: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به.

«ويؤيد هذا أن الله قد فرّق بين الهمَّين: همّ امرأة العزيز، وهمّ يوسف الصدّيق، فقال عن همها «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» دون تعليق بشيء. وأما بالنسبة إلى همِّ يوسف فقد علقه تعالى بقوله «وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» فعلقه برؤية البرهان، والبرهان هنا عصمته تعالى، وحفظه وصونه له بما ألقاه من نور الإيمان في قلبه، والمعنى: لولا أن الله حفظه وصانه وعصمه لواقعها وضاجعها» (الصابوني، قبس من نور القرآن الكريم، (5: 135)).

إذا عرفت هذا -عزيزي الدارس- فلك أن تسأل: إذا كان المقصود من الآية هو نفي الهم عن يوسف عليه السلام، فلماذا لم يقل النص: ولقد همت به، وما هم بها؟

للإجابة عن هذا التساؤل نقول: إن تعليق النص همَّ يوسف عليه السلام برؤية البرهان، فيه من الحكم والإشارات ما يزيد على مجرد نفي الهم عن يوسف عليه السلام.

١) ففيه بيان أن ترك الهم بها ما كان لعدم رغبته بالنساء، أو عدم قدرته عليهن، أو انعدام الميل والشهوة عنده، بل لأجل خوفه من الله واستعصامه بحبله المتين.

٢) وفيه بيان فضل الإيمان وشرفه، وأنه الحامي من الوقوع في مثل هذا النوع من المعاصي.

٣) وفيه بيان لعظيم فضل الله على يوسف عليه السلام، وكبير إنعامه عليه ولطفه به، ليزداد له شكراً ومنه قرباً.

٤) وفيه بيان لخطورة الفتنة التي تعرض لها يوسف عليه السلام؛ ذلك لأنها من فتن النساء، فهي من أشد الفتن وأعتاها وأقساها، لأن الميل إليهن مركوز في الطبع، والالتذاذ بهن أكثر، والاستئناس بهن أتم، ولهذا قدّمهن الله في كتابه على سائر المشتهيات فقال: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ»(آل عمران/14). وجاء في الحديث الشريف «ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء» متفق عليه (البخاري (5096) ومسلم (2740)).

وإذا كان هذا في النساء عامة، فإنه في امرأة العزيز أشد وأكبر، ذلك لأنها امرأة ذات منصب ومال وجمال، وهي في الوقت نفسه سيدة في قومها، وهي الطالبة الراغبة، ثم إنها جاءت بأنواع من الإغراءات وألوان من الإغواءات والمخادعات بما لا يخفى على ذي اللب البصير. فالدنيا قد تمثلت بها جمالاً، والفتنة قد تجسدت بها فتوناً. غير أن المقابل لها نبي كريم ابن نبي كريم، فهو يوسف الصّديق، المحسن، المخلِص المخلَص، لا تستفزه الإغواءات ولا تستخفه الإغراءات رغم كمال الرجولة، وشدة الدواعي، وتهالك الخصم، فنبوته فوق الفتن وإن عظمت، وفوق المحن

وإن كبرت.

تدريب (4)

تكررت كلمة الكيد في سورة يوسف عدة مرات. اكتب خمس آيات اشتملت على تلك الكلمة.

4.6 ما ترشد إليه الآيات

ترشد آيات هذا الدرس إلى حكم وعبر كثيرة منها:

1- الله تعالى غالب على أمره، فعّال لما يشاء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، أمره نافذ في الخلائق.

2- أكثر الناس لا يعلمون حقائق الأمور الإلهية، ويكتفون بظواهر الأمور، والأقل كالأنبياء والمؤمنين والأتقياء هم الذين يدركون أن الله غالب على أمره.

3- من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله.

4- إن السيد والملك يسمى (ربّاً).

5- لزوم حسن المكافأة بالجميل، وأنّ من أخلَّ بالمكافأة على المعروف كان ظالماً.

6- قوة شخصية امرأة العزيز، وقدرتها الفائقة على المكر والاحتيال.

7- الاستبراء للعرض بالدفاع عن النفس إذا اتهمت بتهمة فيها نيل من السمعة والكرامة.

8- إنّ كيد النساء عظيم ومكرهن شديد.

9- فقدان الغيرة عند العزيز، حيث لم يعاقب زوجته بعد ثبوت خيانتها، إنما اكتفى باللوم البسيط.

10- سرعة انتشار الإشاعة ذات المضمون السّيّئ خصوصاً في مجتمعات النساء.

11- جواز الأكل بالسكين والشوكة والملعقة.

12- انبهار النساء وذهولهن بالحسن الرائع والجمال البارع.

13- يجب على الإنسان إذا دعي إلى معصية أن يستعصم وإن هدّد.

14- إن الزنا لا يَحِلُّ بالإكراه مهما كان شديداً، فلو أكره رجل على الزنا بتهديده بالسجن ما جاز له بإجماع الفقهاء.

15- إن من يدعو الله بصدق وإخلاص يسمع الله دعاءه ويلبي مطلبه.

أسئلة التقويم الذاتي (5)

1- بين معاني المفردات التالية:

المراودة، من دبر، من الخاطئين، حاش لله، أصب.

2- ما المعاني التي تقع عليها كلمة (الهم)؟

3- ماذا فعلت امرأة العزيز حين رفض يوسف عليه السلام تلبية رغبتها؟

4- كيف تصرفت امرأة العزيز حين شاع خبر مراودتها ليوسف بين النسوة؟

5- وضح وجوه القراءات في قوله تعالى: «وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ».

6- بين أقوال المفسرين في قوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا».

7- شهد كل من له صلة بموضوع المراودة ببراءة يوسف -عليه السلام- ونزاهته. اكتب الآيات الدالة على الشهادات.

8- لماذا قال النص الكريم: «وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ»، ولم يقل «وما هم بها»؟

9- ما الدروس والعبر التي يمكن أخذها من الآيات التالية؟

«إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ».

«قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي».

«فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ».

«قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ».

7. الدرس الخامس: تفسير الآيات (36-53) وحفظها
«ودخل معه السجن فتيان........إن ربي غفور رحيم»

1.7 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات

* السِّجن: اسم للمكان الذي يسجن فيه.
* فتيان: الفتى: الشاب أول شبابه، فوق المراهقة ودون الرجولة، يجمع على فِتْيان وفِتْية.
* الملّة: الدين والشريعة.
* القهّار: الغالب الذي لا يحد غلبته شيء، المُجبر على ما يريد، وهو اسم من أسماء الله الحسنى.
* الدين القيِّم: الدين المستقيم الذي لا عِوَج فيه عن الحق والخير ومحاسن السلوك.
* البضْع: من الأعداد، ويطلق على الثلاثة إلى العشرة.
* عِجاف: جمع عجفاء: وهي الهزيلة قليلة الشحم واللحم.
* الملأ: أشراف القوم وسَرَاتهم الذين يملؤون عيون العامة.
* تعبرون: التعبير: معرفة تفسير الرؤيا المنامية.
* الأضغاث: جمع ضِغث، وهو الحزمة من كل شيء، وقيل: من النبات فقط، يختلط فيها الرطب باليابس.
* الأحلام: جمع حُلُم -بضمتين- وهو ما يراه النائم في نومه.
* ادّكر: تذكر بعد النسيان.
* بعد أمّة: بعد حين من الزمن.
* دأباً: الاستمرار على الشيء، يقال: دأب فلان في عمل ما : أي جدَّ فيه واجتهد بهمةٍ ونشاط.
* تحصنون: تحرزون وتدّخرون، يقال: أحصنه إحصاناً إذا جعله في حرز ووضعه في حصن.
* يغاث الناس: يفرج الله عنهم، ويطلق الغَيْث على المطر وعلى ما ينبت بسببه.
* يعصرون: يستخرجون العصير مما يعصر كالعنب والزيتون، وهو كناية عن الخصب.
* ما بال النسوة: أي ما شأنهن، والبال: هو الأمر الذي يُهتم به ويبحث عنه.
* ما خطبكن: ما شأنكن الخطير؟ والخطب: الشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب والبحث لغرابته أو إنكاره.

★ حصحص الحق: أصل الحص: القطع والاستئصال. يقال: حصَّ شعره: إذا استأصله جزّاً، ومعنى حصحص الحق: ذهب الباطل فانقطع وتبين الحق فظهر.

ب- المعنى الإجمالي

تعرض آيات هذا الدرس نبأ اعتقال يوسف عليه السلام وإيقافه في السجن، وما كان عليه أثناء إيقافه في السجن من معاملة طيبة وسيرة حسنة.

وفي السجن مارس يوسف عليه السلام واجبه ورسالته في الدعوة إلى الله عز وجل، وتعريف المسجونين بالدين الحق الذي ينبغي عليهم أن يتبعوه.

«وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن، بالجود والأمانة، وصدق الحديث، وحسن السمت، وكثرة العبادة صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير للرؤيا، والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم» (ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (2: 495)).

ونظراً لهذه الصفات التي اتصف بها يوسف عليه السلام، فقد أحبه أهل السجن حبا عظيماً، وأعجبوا به إعجاباً شديداً، فصار لذلك موضع ثقتهم، ومحل سرهم.

وكان من بين المسجونين مع يوسف عليه السلام خباز الملك وهو صاحب طعامه، وساقي الملك وهو صاحب شرابه. وذات يوم رأى كل واحد منهما رؤيا: رأى أحدهما أنه يعصر عنباً فيجعل منه خمراً، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه وعاء من خبز فتأتي الطير فتأكل من هذا الخبز.

طلب كل واحد من السجينين من يوسف عليه السلام تأويل رؤياه لما شاهدا من إحسانه وعلمه، ولكن يوسف عليه السلام لم يتعجل في تفسير رؤياهما، بل قدَّم لهما الدليل القاطع على صدقه في تفسير الرؤى وتعبيرها، مبيناً لهما أن الله عز وجل هو الذي علمه هذا النوع من العلم الذي فيه إخبار عن الغيب، فهو عليه السلام نبي مرسل.

ثم شرع عليه السلام في دعوة صاحبيه السائِلَيْن إلى الدين الحق، مبيناً لهما زيف ما هم عليه من عبادة الأوثان، وداعياً لهما إلى الله الواحد الحق الذي له الأمر والنهي، والذي له الحكم والعبادة.

وبعد أن أدى يوسف عليه السلام واجب الدعوة إلى الله، عبّر لكل من السائلين ما رآه كل واحد منهما في منامه قائلاً لهما: أما الذي رآى أنه يعصر خمراً فسيخرج من السجن، ويعود إلى عمله فيسقي الملك خمراً؛ وأما الذي رأى على رأسه الخبز فسيقتل صلباً، وستأكل الطير من رأسه.

بعد ذلك أوصى يوسف عليه السلام السجين الذي سيفرج عنه، وسيعود إلى خدمة

الملك، وطلب إليه أن يذكر قضيته للملك، وأن يبين له قصته مع امرأة العزيز، وما كان من سجنه ظلماً وزوراً.

تحققت رؤيا كل سجين كما أوّلها له يوسف عليه السلام، فأُخِذَ أحدهما وقتل صلباً، وأفرج الملك عن السجين الآخر وأعاده إلى عمله ساقياً، وفي خضم حياة القصر المترفة نسي الساقي وصية يوسف أن يذكر قضيته للملك، فلبث يوسف في السجن بضع سنين منسياً مظلوماً.

بعد تلك السنين العصيبة الشديدة التي مرت على يوسف عليه السلام وهو في السجن، جاءه الفرج والمخرج من الله عز وجل، فقد رأى ملك مصر رؤيا عجيبة غريبة أفزعته، رأى سبع بقرات سمان يهجم عليهن سبع بقرات مهازيل فيأكلنَهنَّ ويلْتَهِمْنَهنّ، ورأى سبع سنبلات خضر يانعات ومعها سبع سنبلات يابسات.

طلب الملك من مَلَئِه وخاصته أن يفسروا له رؤياه، فعجزوا عن ذلك و «قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ» (يوسف/44).

عند ذلك تذكر ساقي الملك -وهو الذي كان مسجوناً مع يوسف- تذكر قدرة يوسف على تفسير الرؤى وتأويل المنامات، فطلب من الملك وملئه أن يرسلوه إلى السجن ليأتيهم بالخبر اليقين في أمر الرؤيا.

ذهب الساقي إلى السجن ودخل على يوسف عليه السلام، وقبل أن يسأله عن تأويل الرؤيا أثنى عليه بالخير ومدحه، ثم قصَّ عليه رؤيا الملك التي عجز عن تأويلها خاصّةُ الملك وأشراف قومه، وطلب إليه أن يفسرها ويعبِّرها.

وبشهامة وإباء، ودون تأخر، ولا اشتراط عليهم أن يطلقوا سراحه مقابل تعبير الرؤيا، انطلق يوسف عليه السلام يفسر الرؤيا تفسيراً دقيقاً بما منحه الله من العلم، لأنه شعر بأن البلاد مقبلة على مخاطر، وأنه سيقع فيها قحط وجدب، ومجاعات قد تودي بحياة الجماعات، وتأتي على الأخضر واليابس «قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» (يوسف/47-49).

بيَّن يوسف عليه السلام أن البقرات السبع السمان رمز سبع سنواتٍ فيها خصب كثير، والبقرات السبع العجاف رمز سبع سنواتٍ فيها قحط وجدب وشدة، وأكل العجاف

للسِّمان فيه إرشاد إلى وجوب ادّخار الأقوات الناجّة في سنوات الخصب، بالمقدار الذي يكفي لطعام الناس في سنوات الجدب، مع زيادات احتياطية للطوارئ غير المرتقبة.

ثم يأتي بعد السبع الشداد عام فيه يمطر الناس ويغاثون، وفيه يعصرون الأعناب والزيتون لكثرة خصبه، وغزارة خيراته وثمراته.

رجع الساقي إلى الملك وملئه بهذا التأويل الدقيق، وهذا التفسير الحسن الذي يدل على كمال علم يوسف وكمال رأيه وفهمه.

أعجب الملك بهذا التأويل إعجاباً عظيماً، وأدرك أنه لا يصدر إلا عن إنسان تام العلم والمعرفة والفهم، فأمر بإحضاره إلى حضرته، ليكون من جملة خاصته، فلما جاءه الرسول بذلك أحب ألا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلماً وعدواناً، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتاناً، وقال يوسف للرسول لما جاءه «ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ» أي ارجع إلى سيدك الملك «فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ» (يوسف/50).

يقول صاحب المنار - معقباً على هذه الآية : «وفي هذا التريث والسؤال فوائد جليلة في أخلاق يوسف عليه السلام وعقله وأدبه.

(١) منها: دلالته على صبره وأناته.

(٢) ومنها: عزة نفسه وحفظ كرامتها؛ إذ لم يرض أن يكون متهماً بالباطل حتى تظهر براءته ونزاهته.

(٣) ومنها: وجوب الدفاع عن النفس وإبطال التهم التي تخل بالشرف كوجوب اجتناب مواقعتها.

(٤) ومنها: مراعاته النزاهة بعدم التصريح بشيء من الطعن على النسوة، وترك أمر التحقيق إلى الملك يسألهن ما بالهن قطّعن أيديهن وينظر ما يجبن به.

(٥) ومنها: أنه لم يذكر سيدته معهن وهي أصل الفتنة، وفاءً لزوجها ورحمة بها، لأن أمر شغفها به كان وجداناً قاهراً لها، وإنما اتهمها أولاً عند وقوفه موقف التهمة لدى سيدها وطعنها فيه دفاعاً عن نفسه، فهو لم يكن له بد منه» (رضا، مختصر تفسير المنار، ص 537-536).

كان هذا هو موقف يوسف عليه السلام حين جاءه العفو الملكي، لقد رفض الخروج من السجن بعفو كهذا حتى تبرأ ساحته مما نسب إليه ظلماً وزوراً. وبسبب هذا التريث وهذه العزة أثنى عليه رسول الله ﷺ، فقال فيه: «لو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبت» (أخرجه البخاري برقم (1593)).

واستجابة لدعوة يوسف عليه السلام قام الملك بجمع النسوة، بما فيهن امرأة العزيز، وقام بالتحقيق معهن واستجوابهن، «قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ»، فكانت الإجابة الحازمة الجازمة من النساء «قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ». عندئذ لم تجد امرأة العزيز مفراً من الاعتراف الواضح الصريح «قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ».

ثم قالت: وهذا الاعتراف مني ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب، فلم أشهد ضده وهو غائب عني، ولو فعلت غير هذا لكنت خائنة، والله لا يهدي كيد الخائنين، وتختم امرأة العزيز اعترافها بإدانتها لنفسها التي تحكمت بها، وسيطرت عليها، فأمرتها بالسوء والفحشاء، وهذا شأن النفس الأمّارة التي لا ينجو من وساوسها وسوئها إلا من تغمده الله برحمته، ثم تتوجه إلى الله طالبة المغفرة منه على ما حصل منها بحق يوسف عليه السلام.

2.7 من وجوه القراءات في آيات الدرس

1.2.7 في قوله تعالى (دَأَبًا)

قرأ حفص عن عاصم بفتح الهمزة، وأسكن الباقون، وهما لغتان مثل النَّهْر والنَّهَر، والشَّمْع والشَّمَع.

2.2.7 في قوله تعالى (وَفِيهِ يَعْصِرُونَ)

قرأ حمزة والكسائي «وفيه تعصرون» بالتاء؛ لأن الفعل قبلها بالتاء في قوله: «يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ».

وقرأ الخمسة الباقون «وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» بالياء؛ لأن الفعل قبلها مباشرة بالياء، في قوله «فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ».

3.7 يوسف في السجن داعية إلى الله

إن الله عز وجل قد بعث أنبياءه لأداء مهمة وتبليغ رسالة، تتمثل هذه المهمة وتلك الرسالة بالدعوة إلى الله سبحانه، ببيان دينه القويم وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

فالدعوة إلى الله هي الهدف من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وهذا ما جاء واضحاً جلياً في التعقيب على قصة يوسف عليه السلام، حيث جاء في آخر السورة قوله تعالى: «قُلْ

هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (يوسف/108).

فالدعوة إلى الله هي سبيل كل مؤمن إذاً. وفي مقدمة المؤمنين أنبياء الله ورسله.

ولما كان الأمر كذلك، فإن سيدنا يوسف عليه السلام قد مارس الدعوة إلى الله في أفعاله وأقواله، وفي جميع مراحل حياته، ولقد كشف لنا النص الكريم في هذه السورة الدور الدعوي البارز ليوسف عليه السلام، وخصوصاً في فترة سجنه وإيقافه، فإن ظلمة السجن وضيقه لم يَمْنَعاهُ من ممارسة مهمته وتبليغ رسالته، بل لقد أقبل عليه السلام على السجناء يدعوهم إلى الله، ويبين لهم عقائد التوحيد، ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم في دنياهم وأخراهم.

لقد أرشدنا يوسف عليه السلام من خلال دعوته في السجن إلى بعض قواعد الدعوة ومعالمها، نذكر منها ما يلي:

أولاً: الالتزام التام بمقتضيات الدعوة

إن التزام الداعية بما يدعو الناس إليه هو أول ركيزة في قبول دعوته ونجاحها، ولقد نعى الله على من يدعو إلى خير أو بر ولا يلتزمه فقال: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»(البقرة/44). وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ»(الصف/2-3).

ولقد كان سيدنا يوسف عليه السلام أول الملتزمين بما يدعو إليه من شعائر الحق وشرائع الخير، ولهذا بيّن للمدعوين أنه ترك ملة الكفر فلم يدخلها، ولم يتابع أهلها رغم أنه كان يعيش معهم، وأنه اتبع ملة التوحيد الخالص وهي ملة آبائه من الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام.

وكان عليه السلام من المشهود لهم بالإحسان، فلقد شهد الله له بالإحسان فقال فيه: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (يوسف/22)، وقال: «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» (يوسف/56)، وشهد له السجناء بالإحسان فقالوا له: «إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» (يوسف/78).

«فقد كان عليه السلام، يعبّر للسجناء رؤاهم وأحلامهم، وكان أيضاً يحسن إليهم في معاملته؛ يواسيهم ويساعدهم. فهو من المحسنين حقاً؛ أحسن في طاعة الله وعبادته،

وأحسن في معاملته مع الناس في سعة القصور، وفي ضيق السجون بقي عليه السلام محافظاً على جوهره الأصيل المضيء، ثابتاً في مقام الإحسان، رغم ما طرأ على حياته من تغيير وتبديل» (طهماز، الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف، ص 66).

وشهد له إخوته -وهم له منكرون- بالإحسان: «قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» (يوسف/78).

وعُرف يوسف عليه السلام بين من عرفه بالصدق، فلقد شهد له ساقي الملك بذلك فقال له: «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ» (يوسف/46). والصدّيق هو العظيم الصدق؛ وهي من صيغ التكثير والمبالغة، وشهدت له امرأة العزيز -في معرض الخصومة- بالصدق، فقالت: «أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» (يوسف/51).

إن صدق يوسف عليه السلام، وإحسانه، فيهما دليل قاطع على أن الداعية إلى الحق ينبغي أن يكون أول الملتزمين بمقتضيات دعوته.

ثانياً: التزام الأسلوب الحسن في الدعوة

من المقرر في ديننا الحنيف أن الداعية إلى الله ينبغي له التزام الأسلوب الحسن في دعوته، أخذاً بقوله تعالى: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (النحل/125). ولقد كان سيدنا يوسف عليه السلام مثالاً حياً وشاهداً صادقاً على التزام الحسن في الأسلوب، واللطف في المدخل والتعبير، والقوة في العرض، والعمق في التأثير.

تأمل خطابه للسجينين اللذين سألاه عن رؤياهما بقوله: «يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ»، فهو يناديهما بالصحبة ويخاطبهما بالمودة والقرب، وفي ذلك من التأثير في النفوس ما فيه؛ ثم تأمل قوله لهما وهو يدعوهما إلى الدين الحق: «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ» فهم قوم السجينين اللذين يتحدث إليهما، فهو أسلوب لطيف بيّن فيه خطأ ما كانا عليه من ملّة واعتقاد، دون أن يواجههما مباشرة بذلك لما في المواجهة من الإحراج والتنفير.

ثم تأمل -عزيزي الدارس- كيف بدأ مع السجينين السائلين بتقديم الدليل لهما على رسوخ قدمه وعلو كعبه في تفسير الرؤى وتعبير الأحلام، ليكونا أشد استماعاً وأكثر انتباهاً وأعظم ثقة فيما يلقيه عليهما بعد ذكر الدليل.

لقد أحسن يوسف عليه السلام استغلال موهبته في تعبير الرؤى، فأخر تفسير الرؤيا إلى النهاية، ليبدأ -بعد إقامة الدليل على صدقه وخبرته فيما سألاه عنه- بعرض حقائق الإيمان، وتفنيد ضلالات الكفر وهما -السجينان- يستمعان إليه، ويستمتعان بما يقول ويعرض. ولو أنه عليه السلام بدأ بتعبير الرؤيا لأخذ السائلان حاجتهما، ولربما انصرفا بعد ذلك عنه فلم يستمعا لبيانه الدعوي.

ثالثاً: الشعور والإشعار بشرف الدعوة إلى الله وفضلها

إن من الأمور المسلمة لكل مسلم أن الدين الإسلامي هو الدين الحق، وأن ما سواه إنما هو باطل وجور وضلال، يقول تعالى: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» (آل عمران/85)، ويقول : «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» (آل عمران/19). فالإسلام هو الدين الحق، وهو الدين القيم، ولذا ينبغي على المنتسب لهذا الدين أن يشعر بالعزة والفخار إذ منَّ الله عليه باتباع الإسلام والاهتداء بهديه، وعليه أن يستشعر -وهو يدعو إلى شعائر هذا الدين وشرائعه ومشاعره- أنه يحمل النور الرباني والشفاء الإلهي للبشرية جمعاء. فاستشعار المسلم أحقية ما يدعو إليه، وأحسنية ما هو عليه من الهدي، يجعله قوياً في عرض فكره ومنهجه، صلبا في مواجهة العقبات والمعوِّقات. ثم إنه لا ينبغي التوقف عند الشعور الشخصي والاستشعار النفسي، بل لا بد من إشعار المدعوّين بهذا الشرف الذي يحس به المسلم وهو يدعو إلى الله، وتلك السعادة الغامرة التي يعيش بها المسلم في ظلال هذا الدين الحق.

إن هذا الشعور، وذلك الإشعار، هو الذي نطقت به آيات كثيرة من كتاب الله عز وجل، كقوله تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (فصلت/33)، وقوله:«قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (يوسف/108)، وقوله: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (آل عمران/64)، وقوله: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (المائدة/50)، وآيات أخرى كثيرة.

لقد أرشدنا سيدنا يوسف عليه السلام من خلال دعوته لصاحبيه في السجن إلى هذه القاعدة الدعوية العظيمة، والتي هي سبب قوي في نجاح الدعوة. فقد تمثل هذا الشعور وتجسد ذلك الإشعار في دعوته عليه السلام بالقضايا التالية:

1- البراءة المطلقة من ملة الكفر وضلالاتها وسائر أوضاعها، فهو يخاطب صاحبيه قائلاً لهما: «إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ»(يوسف/37).

2- الإعلان الصريح والإعلام الواضح باتباع ملة الأنبياء الصالحين، والدخول في عدادهم، والولاء التام لما هم عليه من الحق والخير.

3- البيان بفساد أمر الشرك وضلال أهله ودناءة ما هم عليه.

4- التوضيح والتصريح بمعالم الدين القيِّم التي تتمثل بأن الحكم لله، وأن العبادة له وحده.

رابعا: الأخذ بأسباب العلم

«إن على الداعية إلى الله أن يأخذ بأسباب العلم والمعرفة التي تدفع به إلى الصفوف الأمامية في حياة المجتمعات، لحاجتها إلى علمه ومعرفته، مما يجعله أقدر على التأثير في الأمة، مما لو كان بعيداً عن مواقع القوة الاجتماعية» (نوفل، سورة يوسف دراسة تحليلية، ص 618، نقلاً عن كتاب الحوار في القرآن لمحمد حسين فضل الله).

لقد لجأ السجينان إلى يوسف عليه السلام يسألانه ويستفتيانه لما رأياه فيه من العلم والإحسان، كما أن الملك لجأ إلى يوسف عليه السلام في تأويل رؤياه، فلما رأى علمه طلب إلى من حوله أن يحضروه إليه ليستعين به في تصريف أمور البلاد.

خامسا: التدرج في الدعوة

يحسن بالداعية إلى الله أن يأخذ المدعوين بالتدرج في الدعوة، حتى يتقبل المدعوون شعائر الدعوة وشرائعها شيئاً فشيئاً، وحتى يتسنى لهم أن يتخلوا عما هم فيه من أمر الجاهلية شيئاً فشيئاً، فإن النفس لا تستطيع أن تتخلى عن كل معتقداتها وأخلاقها دفعة واحدة، بل لا بد لها من التدرج حتى تتخلى عن عقائد وأخلاق، وتتحلى بعقائد وأخلاق بديلة عنها.

لقد تدرج يوسف عليه السلام في دعوة أصحاب السجن إلى الدين القيم، «فبين لهم أولا رجحان التوحيد على عبادة الأوثان، ثم برهن لهم أن ما يسمونه آلهة ويعبدونه من دون الله، لا يستحق العبادة والألوهية، لأنها جمادات لا تستجيب ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع، ثم دعاهم إلى عبادة الله الواحد القهار، العزيز الجبار، الذي بيده الخلق والأمر والنفع والضر»

(الصابوني، قبس من نور القرآن الكريم(5: 154 - 155)).

تدريب (5)

تعرض يوسف عليه السلام لمحن كثيرة. عدِّد أربعاً منها.

4.7 ما ترشد إليه الآيات

ترشد آيات هذا الدرس إلى حكم وأحكام كثيرة منها:

1. سجون الظَّلَمة تغص بالأبرياء الذين سجنوا بغير وجه حق.
2. إن تعبير الأحلام يحتاج لعلم وصلاح وتقوى وإحسان.
3. معجزة يوسف عليه السلام، ودليل صدق نبوّته، تمثلا في الإخبار عن بعض أمور الغيب المستقبلية، وتأويل الرؤى وتعبيرها.
4. إن لفظ الآباء يشمل الجدود وإن علَوْا .
5. عقيدة التوحيد توحد البشر، وتَفَرُّق الآلهة يفرق بين البشر.
6. إمكانية صحّة رؤيا الكافر؛ فالرؤيا الصادقة قد تأتي عن طريق كافر، فهي للكافر تنبيه وإنذار، وللمؤمن كرامة.
7. الاستعانة بغير الله في دفع الظلم جائزة في الشريعة، لا إنكار عليها، لكن الأمر بالنسبة ليوسف الصديق كان خلافَ الأَوْلَى، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.
8. إنّ تذكُّر الخير والإقدام على فعله بعد نسيان، مردُّه إلى القضاء والقدر والتوفيق الإلهي.
9. من أراد أن يتعلم من رجل شيئاً، أو يستفتيه في أمر يهمه، فإنه يحسن به أن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالإجلال.
10. الأنبياء والرسل عليهم السلام رحمة للناس جميعاً، سواء في تصحيح العقيدة وتقويم الأخلاق وتصحيح السلوك، أو في الحياة المعيشية والاقتصادية.
11. جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة.
12. لا يجوز أن تطغى الأمور الشخصية على القضايا التي تمس الأمور العامة.
13. الواجب شرعاً عدم المبادرة إلى الاتهام بالسوء والطعن في الأعراض.
14. إن العودة إلى الحق، والاعتراف بالصواب، خير من التمادي في الباطل والإصرار عليه.
15. اتهام النفس وعدم تبرئتها أصل في التواضع.

?

أسئلة التقويم الذاتي (6)

1- بين معاني المفردات التالية:

القهار، البضع، عجاف، الأضغاث، دأبا، ما خطبكن، حصحص الحق.

2- بم اشتهر يوسف عليه السلام في السجن؟

3- ما الرؤيا التي رآها كل من صاحبي يوسف عليه السلام في السجن؟

4- كيف عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك؟

5- بين موقف الملك من تعبير يوسف عليه السلام لرؤياه.

6- اذكر خمس فوائد تؤخذ من تريث يوسف عليه السلام، ورفضه العفو الملكي، حتى تبرأ ساحته.

7- بين نتيجة تحقيق الملك مع النسوة.

8- بين وجوه القراءة في قوله تعالى: «وَفِيهِ يَعْصِرُونَ».

9- من قواعد الدعوة الى الله: التزام الداعية بمقتضيات دعوته. وضح ذلك.

10- كان سيدنا يوسف عليه السلام شاهداً صادقاً على التزام الأسلوب الحسن في الدعوة. وضح ذلك.

11- هل تدرج يوسف عليه السلام في دعوته السجينين إلى الدين القيم؟ وضح إجابتك.

12- ما الدروس والعبر التي تؤخذ من الآيات التالية:

* «نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».
* «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ».
* «أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».
* «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ».
* «وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ».
* «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا».
* «إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ».
* «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي».

8. الدرس السادس: تفسير الآيات (54-101) وحفظها
«وقال الملك ائتوني به ..... وألحقني بالصالحين»

1.8 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات

* أستخلصه لنفسي: أجعله خالصاً لنفسي لا يشاركني أحد فيه من وزير يدخل بيننا في إدارة الملك، ولا حاجب يبلغه عني ويبلغني عنه.
* مكين: صفة مشبهة من مَكُن -بضم الكاف- إذا صار ذا مكانة، وهي المرتبة العظيمة والمنزلة العالية.
* خزائن الأرض: خزائن : جمع خِزانة -بكسر الخاء- أي البيت الذي يختزن فيه الحبوب والأموال، والمراد خزينة الدولة واقتصادها.
* منكرون: أي لم يعرفوه.
* الجهاز: بفتح الجيم وكسرها: كل ما يُحتاج إليه، فجهاز المسافر: ما يحتاج إليه في سفره، وجهاز العروس: ما تحتاج إليه لدى انتقالها إلى بيت زوجها، وهكذا.
* خير المنزلين: خير المضيفين للضيوف.
* البضاعة: المال أو المتاع المعد للتجارة، والمراد بها هنا الدراهم التي ابتاعوا بها الطعام.
* في رحالهم: أي أوعيتهم، وهي جمع رَحْل بالفتح؛ يطلق على كل ما يُعدّ للرحيل من وعاء ومركب ورسن للدابة.
* الانقلاب: الرجوع.
* متاعهم: أصل المتاع: ما ينتفع به من العروض والثياب، والمراد به هنا أوعيتهم التي جلبوا بها القمح من مصر.
* ونمير أهلنا: الميرة بكسر الميم: الطعام المجلوب.
* كيل بعير: حمله.
* يحاط بكم: يقال: أحيط به: أي دنا هلاكه، وأصل العبارة من إحاطة العدو بعدوه، وإحاطة المهلكات بالشيء.
* الوكيل: هو الذي يُسَلَّم إليه أمر ما تسليماً كاملاً.
* آوى إليه أخاه: ضمه إليه.
* لا تبتئس: لا تحزن، مأخوذ من البؤس.

* السقاية: وعاء أو إناء يسقى به، والمراد بها هنا الصُّواع بدليل قوله: (نفقد صواع الملك)، والصواع والصاع بمعنى واحد، وهو المكيال.
* أذن مؤذن: نادى مناد.
* العير: الإبل التي عليها الأحمال، ثم كثر الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير.
* زعيم: كفيل.
* أنتم شرٌّ مكاناً: أنتم شرٌّ منزلة وأحطُّ حالة.
* استيأسوا: يئسوا يأساً بالغاً.
* خلصوا نجيا: انفردوا واعتزلوا متناجين متشاورين.
* فرطتم: التفريط في الشيء: المبالغة في التقصير والإهمال له، وضده الإفراط: وهو المبالغة فوق الحاجة.
* لن أبرح: لن أفارق.
* يا أسفا: يا حزني الشديد، والأسف: أشد الحزن.
* كظيم: ممتلئ من الحزن يكتمه ولا يبديه.
* تفتأ: لا تفتأ: لا تزال؛ من أخوات كان الناقصة.
* حَرَضا: الحرض: الشديد المرض، يقال: حَرِض فلان يحْرَض حَرَضا: أي أذابه الهم والحزن حتى أشرف على الهلاك.
* البث: أَشَدُّ الغم والهم.
* التحسس -بالحاء المهملة: شدة التطلب والتعرف، وهو أعم من التجسس -بالجيم- فهو التطلب مع اختفاء وتستر.
* رَوْح اللّه: الرَّوح : يطلق في اللغة على نسيم الريح، وعلى الراحة، وعلى الرحمة، ويجمع هذه معنى (الرحمة)، إذ تأتي الرحمة بالراحة من عناء الكرب والغم والحزن، وتأتي بالنسيم المريح، فالرَّوح -بالفتح- ما ترتاح له الرُّوح -بالضم.
* الضُّر: سوء الحال من شدة الحاجة إلى القوت.
* البضاعة المزجاة: البضاعة الرديئة أو القليلة، ويقال أزجى الشيء إذا دفعه برفق.
* آثرك: اختارك وفضلك.
* التثريب: التوبيخ والتقريع والتأنيب.
* فصلت العير: تجاوزت المكان الذي كانت فيه. يقال لغة: فصل القوم عن البلد، أي: خرجوا منفصلين عن حدودها.

* تفندون: الفَنَد - بفتحتين - وهو اختلال العقل من الخرف.
* ضلالك: ذهابك عن الصواب.
* العرش: السرير الذي يجلس عليه الملك أو الرئيس.
* البدو: البادية.
* نزغ: أفسد وأغوى.
* فاطر: مبدع ومخترع وأصله من فطر إذا شق، ثم صار عبارة عن الخلق والإيجاد.

ب- المعنى الإجمالي

بعد انتهاء التحقيق في أمر النسوة، وظهور براءة يوسف من كل سوء؛ طلب الملك من حاشيته أن يأتوه بيوسف عليه السلام، ليجعله من خاصته وأهل مشورته، فلما حضر يوسف عليه السلام وكلّم الملك، ورأى الملك فائق ذكائه ورجاحة عقله، وحسن بيانه، قال له: إنك اليوم عندنا رفيع المرتبة، عالي المنزلة، فأنت مفوض في إدارة ملكنا غير منازع في تصرفك ولا متهم في أمانتك.

وأمام هذا التفويض والثقة المطلقة من الملك -صاحب المنصب الأكبر في مصر- «لم يرد الكريم ابن الكريم أن يعيش في بلاط الملك من غير عمل، كما هو حال كثير من حاشية الملوك والحكام، بل أراد أن يقوم بعمل كبير مفيد، ويتحمل مسؤوليته، فرشح نفسه لأخطر المناصب وأعلاها، وأكبرها عملاً وجهداً، ودأباً وسهراً، وأكثرها نفعاً لعامة الناس وضعفائهم وفقرائهم، والتكفل بإطعام شعوب جائعة في أزمات اقتصادية خانقة» (طهماز، الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف، ص 82).

رشّح يوسف عليه السلام نفسه لإدارة الشؤون الاقتصادية والزراعية والمالية في مصر، ووصف نفسه بما يحتاج إليه هذا المنصب من صفات الحفظ والعلم.

«استجاب الملك ليوسف، فجعله على خزائن الأرض، طيلة السنوات الخمس عشرة التالية؛ أي أنه عزل الشخص الذي كان في منصب عزيز مصر، والذي راودت امرأته يوسف، وجعل يوسف مكانه في منصب عزيز مصر» (الخالدي، القصص القرآني، (2:182)).

وهكذا -عزيزي الدارس- مكّن الله ليوسف في الأرض، فأصبح مسموع الكلمة نافذ الأمر، «فهو صاحب التصرف والكلمة والقرار، يفعل ما يشاء، ويحكم في البلاد كما يشاء، وينفذ من القوانين والتشريعات ما يشاء، دون إنكار أو اعتراض، أو إبطال وإلغاء من قبل الملك الذي كان مجرد رمز في البلاد، يملك ولا يحكم، وإنما الحكم الفعلي كان بيد عزيز مصر» (الخالدي،

القصص القرآني، (2: 182) بتصرف).

«نهض يوسف عليه السلام بأعباء الدولة، وقام بإدارة شؤون البلاد خير قيام، وأشرف على زراعة الأرض، فكثرت الخيرات والبركات، وجاءت سنوات الرخاء، فأينعت الثمرات، وأعطت الأرض خيراتها، وافية زاهية، وجمع الناس أنواع الحبوب، وبنوا البيوت والمخازن، لحفظها وحمايتها، وأمر يوسف -بعد أن تولى إدارة شؤون البلاد- بأن تخزن الحبوب بسنابلها، حتى لقد ملأ الديار بالخزائن الزاخرة بالأرزاق والغلات، وتولى بنفسه حفظ اقتصاد البلاد، لأنه يعلم علم اليقين أنها ستمر على الناس سنوات عجاف، حسب الرؤيا التي رآها الملك، وأوَّلها له يوسف بنور العلم الإلهي الذي علمه الله إياه.

وقد طوت الآيات الكريمة، ذكر تلك الفترة التي مرت عليها البلاد، بما كان فيها طوال سنوات الخصب والرخاء، فلم تذكر كيف كان الخصب، ولا كيف زرع الناس؛ ولم تذكر كيف أدار يوسف جهاز الدولة، ولا كيف نظم ودبَّر وادَّخر؛ لأن هذه الأمور ملحوظة في رؤيا الملك العجيبة وتأويلها، فلا حاجة إلى ذكرها وتكرارها، وكذلك لم تذكر مَقْدَم سنوات الجدب وكيف تلقاها الناس، وكيف ضاعت الأرزاق، وحل البلاء العام على أرض مصر، وما جاورها من البلدان، إنما ذكرت مشهداً من مشاهد أثر القحط والجدب، أبرزه السياق في مشهد إخوة يوسف يجيئون من البدو، من بلاد بعيدة نائية، يقصدون أرض مصر، يبحثون عن الطعام» (الصابوني، قبس من نور القرآن الكريم، (5: 175-176)).

أخذ الناس من خارج مصر يفدون على مصر يبغون الميرة، فمصر بقيادة حاكمها الصالح يوسف عليه السلام قد أعدت لسنوات القحط عدتها، وهيأت لها مؤونتها، وكان ممن قدم مصر إخوة يوسف عليه السلام، جاءوا إلى مصر يمتارون طعاماً، فلما دخلوا على يوسف عرفهم ولم يعرفوه، لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة، ولأنهم فارقوه صغيراً قد تغيرت اليوم كل معالمه.

أحسن يوسف عليه السلام استقبال إخوته، دون أن يكشف لهم عن نفسه، وملأ لهم رواحلهم، وأعطاهم من الميرة ما جرت به عادته من إعطاء كل إنسان: حِمْلَ بعير لا يزيده عليه، وطلب منهم أن يُحضروا معهم أخاهم الصغير في المرة القادمة وشدَّد في ذلك، حيث رغَّب ورهب، وقال لهم ذاكراً إحسانه وإكرامه لهم: «أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» (يوسف/59). ثم حذرهم من عدم الإتيان به، وأن ذلك سيحرمهم من الميرة بل من دخول مصر. عندئذ وعدوه بأنهم سيجتهدون في إحضاره، وسيبذلون كل مستطاع في إقناع أبيه بسفره معهم.

ولكي يضمن يوسف عليه السلام عودتهم، أعاد إلى رحالهم ما أحضروه من ثمن للطعام الذي أخذوه، دون أن يشعرهم بذلك.

وعندما عادوا إلى أبيهم أخبروه بما حدث معهم، وبادروا إلى مطالبته أن يرسل أخاهم معهم في المرة القادمة وإلا سيحرمون من الميرة والطعام.

تذكر يعقوب عليه السلام ما فعله الإخوة بيوسف عليه السلام من قبل، فقال لهم: كيف آمنكم على ابني هذا وقد خنتموني في ابني يوسف من قبل بعد أن عاهدتموني على حفظه وصيانته؟ إنني لا أعتمد على حفظكم، إنما الحافظ هو الله. ولما فتحوا أوعيتهم فوجئوا بوجود ثمن الطعام فيها فأسرعوا إلى أبيهم مسرورين، قالوا يا أبانا ماذا نطلب من عزيز مصر بعد هذا الإحسان وهذا الإكرام؟ «هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ» (يوسف/65).

وأمام مسيس الحاجة إلى الميرة والطعام، وشدة إلحاح الإخوة ومشاهدة الإكرام العظيم من عزيز مصر لهم، وافق نبي الله يعقوب عليه السلام على إرسال ابنه مع إخوته، ولكن بعد أن أخذ عليهم العهد والميثاق الغليظ أن يحفظوا أخاهم بما يحفظون به أنفسهم. «فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» (يوسف/66). وقبل أن ينطلق الإخوة بأخيهم إلى مصر أوصاهم أبوهم أن لا يدخلوا أبواب مصر مجتمعين، بل متفرقين خشية العين وحسد الحاسدين، فقد كانوا ذوي جمال، وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء. نفذ أبناء يعقوب وصية أبيهم، فدخلوا مصر من أبواب متفرقة، وهذه الوصية من يعقوب عليه السلام لأبنائه لم تكن لتدفع عن الأبناء، أو تمنع قدر الله وقضاءه، إنما هي من قبيل الاحتياط والأخذ بالأسباب المطلوبة شرعاً. وما كاد الإخوة يدخلون مصر للمرة الثانية حتى التقوا عزيز مصر ومعهم أخوهم الصغير، وبلطف ولين ضمّ يوسف عليه السلام أخاه الصغير إليه، وأخبره سراً عن إخوته، وأنه أخوه، وأمره بكتم ذلك عنهم، وسلّاه عما كان يلقاه منهم من الإساءة والأذى.

لم يكن مراد يوسف عليه السلام التقاء أخيه الصغير فقط، بل كان مراده وغرضه أبعد من ذلك، وهو أن يلتئم شمله بأهله أجمعين أباً وأماً وإخوة، يجتمعون في مصر تحت راية التوحيد وحكم الحق. غير أن الظروف لهذا الاجتماع لم تكن مواتية بعد، فإخوة يوسف ما زالوا على حقدهم القديم، وهو يريدهم على غير هذه الحالة، لذلك خطط يوسف عليه السلام لجلب أهله إلى مصر بعد أن تتهيأ نفوس إخوته للتحلي بالحق، والتخلي عن أسباب الحسد والحقد والضلال، ولتحقيق ذلك رسم يوسف عليه السلام خطة لإبقاء أخيه الصغير عنده، وعدم

إرجاعه إلى أبيه، لينقذه من شرور إخوته؛ وليكون حلقة الصلة بينه وبين أهله التي يتم من خلالها نجاح الخطة في استقدام أهله إلى أرض مصر، بعد أن تطيب نفوس إخوته بقبول الحق والتزامه.

بدأ يوسف عليه السلام خطته بتجهيز إخوته، حيث أمر غلمانه أن يملأوا لهم أوعيتهم بالحبوب، فلما ملأوها جعل يوسف عليه السلام صواع الملك في وعاء أخيه الصغير.

وما كاد إخوة يوسف ينطلقون بالجهاز والميرة حتى نادى مناد فيهم: «أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» (يوسف/70).

فوجئ إخوة يوسف بهذا الاتهام وصدموا به، فأقبلوا على غلمان يوسف وجنوده قائلين لهم: «مَاذَا تَفْقِدُونَ» (يوسف/71)، فأخبرهم الغلمان أنهم يفقدون صواع الملك، وأن من يأتي به ويرجعه فله حمل بعير من الميرة والطعام جائزةً له.

أنكر إخوة يوسف التهمة بشدة، وأكَّدوا إنكارهم لها باليمين، وبمعرفة القوم لأمانتهم بعد أن خبروهم وجربوهم.

عندها رد غلمان يوسف عليهم السؤال: فما جزاء السارق إن ظهر أنكم كاذبون؟ قال إخوة يوسف: إن جزاء السارق أن يُسْتَرَقَّ ويصبح عبداً للمسروق منه. وكان هذا جزاء السارق في شريعة يعقوب عليه السلام.

وإحكاماً للخطة، وإتماماً للحيلة، وفي حضرة يوسف عليه السلام، بدئ بتفتيش أوعية الإخوة الكبار «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ»(يوسف/76). ثم إنه بعد الفراغ من تفتيش أوعيتهم فتَّش وعاء أخيه فأخرج منه السقاية. وهكذا تمت الخطة، واكتملت الحيلة بأمر الله عز وجل ووحيه وإلهامه. ولهذا قال الله تعالى: «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» (يوسف/76).

وقد تسأل -عزيزي الدارس- كيف نسب الله الكيد إلى نفسه بقوله «كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ»؟

والجواب عن ذلك أن الكيد يطلق على التدبير في الخفاء، وقد يكون للخير أو للشر، فالكيد منه سبحانه: هو التدبير بالحق، لدفع السوء والمكروه، وهو خير؛ كما قال تعالى: «إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا» (الطارق/15-16).

لما عُثِر على الصاع في رحل الأخ الصغير، بُهِت إخوة يوسف، وأُحرجوا إحراجاً شديداً،

لا سيما أنهم نفوا السرقة عن أنفسهم نفياً شديداً. وبدل أن يسعى إخوة يوسف لإثبات براءة أخيهم، «قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ» (يوسف/77)، فأثبتوا بمقولتهم هذه سرقة أخيهم الصغير، واتهموا يوسف الصديق - وهم كاذبون - بالسرقة.

غضب يوسف عليه السلام لهذه التهمة، ولكنه كظم غيظه وأخفى انفعاله وقال في نفسه: «قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا» (يوسف/77)، ثم إن الإخوة أخذوا في استعطاف يوسف عليه السلام واسترحامه لإطلاق سراح أخيهم، فإن أباه شيخ كبير لا يحتمل فراقه. وعرضوا على يوسف -وهم لا يعرفونه- أن يأخذ واحداً منهم بدل أخيهم، غير أن يوسف عليه السلام أبى عروضهم، وسفّه اقتراحهم، فإنه لا يجوز ترك المتهم وأخذ البريء.

ولما يئس الإخوة من إجابة يوسف عليه السلام لمطلبهم، اعتزلوا وخلَوْا إلى بعضهم، يتحدثون سراً، ويتشاورون، فذكرهم كبيرهم بالموثق المأخوذ عليهم، كما ذكّرهم بتفريطهم في يوسف من قبل وقرر ألاّ يفارق مصر، وألاّ يواجه أباه، إلاّ أن يأذن له أبوه أو يقضي الله بأمر ما، وطلب إلى إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه صراحة وصدقاً بما حدث.

ولما كان الكذّاب لا يصدَّق ولو كان صادقاً، فإن يعقوب عليه السلام قال لهم حين أخبروه الخبر المفجع مقولته الأولى: «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» (يوسف/83)، ثم تمنى على الله أن يعيد كلا ولديه إليه.

ثم إن يعقوب عليه السلام أعرض عن أبنائه، وانصرف إلى آلامه وأحزانه، واشتد به الحزن حتى فقد بصره وامتلأ قلبه حسرةً وأسى. غير أن أمله في الله بقي عظيماً، ورجاءه فيه ظل كبيراً.

لذلك أمر أولاده أن يعودوا مرةً ثالثة إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه، وألاّ ييأسوا من رحمة الله في العثور عليهما، فإن رحمة الله واسعة، وفرجه دائماً منتظر.

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة، ويَفِدُون على يوسف عليه السلام، وبذلّ وانكسار يشكون له سوء حالهم ونفاد زادهم، وشدة حاجتهم وفاقتهم فيرقّ يوسف لحالهم، ويرحم ضعفهم وانكسارهم، ثم إنه يعرّفهم بنفسه، وأنه يوسف أخوهم الذي صنعوا به ما صنعوا واقترفوا بحقه ما اقترفوا، ثم ها هو وأخوه قد منّ الله عليهما بالاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلة، والأمن بعد الوحشة، فالله عز وجل يكرم من اتقاه، ويكافئ من صبر له، ويعلي قدر من أحسن عملاً.

أخجل هذا الموقف العظيم الإخوة وأحرجهم، إذ تذكروا ما فعلوا بيوسف، وما فعل يوسف معهم فبادروا إلى الإقرار بفضله عليهم، والاعتراف بذنبهم وخطئهم.

وبكرم المحسنين وفضل المتقين عفا يوسف عنهم وصفح، ولم يكتف بالصفح الجميل، الذي لا لوم فيه ولا عتاب، بل زادهم فوق ذلك دعاءً لهم، فسأل الله لهم المغفرة على ما صدر منهم بحقه؛ فيا له من كرم عظيم يسطّره الكريم ابن الكريم!

«ثم أمرهم يوسف عليه السلام أن يسرعوا بالبشرى إلى أبيه قائلاً: «اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ» (يوسف/93).

هذه هي المرة الثالثة التي تذكر فيها الآيات قميص يوسف، وهو في هذه المرة لا يحمل دماً كذباً، ولا دليل براءته، وإنما حمل الدواء والشفاء لعيني أبيه يعقوب اللتين ابيضتا من الحزن على فراقه. فما سر هذا القميص؟ إنه قميص يوسف، يحمل أثراً من جسد نبي الله يوسف عليه السلام. جعل الله تعالى فيه الشفاء لعيني يعقوب عليه السلام، فالأمر معجزة أكرم الله تعالى بها نبيّيْن كريمين، وهو سبحانه قادر على خلق الشفاء دون دواء، وما الدواء إلا سبب للشفاء، أما المسبب الحقيقي فهو الله تعالى» (طهماز، الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف، ص (108-107)).

حمل الإخوة قميص يوسف عليه السلام، وساروا به، ولما صاروا خارج حدود مصر، قال يعقوب عليه السلام لمن حوله من الأهل والأحفاد: إني لأشم رائحة يوسف الزكية الندية، أما أنتم فلا تجدون تلك الرائحة لذلك لن تصدقوا قولي، وربما اتهمتموني بالخرف، ولقد حدث ما توقعه يعقوب «قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ» (يوسف/95). فلما وصل حامل القميص ألقاه على وجه يعقوب، فعاد من فوره بصيراً.

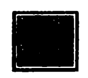
شاهد الجميع هذه المعجزة التي حصلت مع هذا النبي الصابر المصابر، الذي لم ينقطع أمله بوجود يوسف بسبب رؤياه التي رآها، والتي أوّلها يعقوب عليه السلام، وعرف مضمونها، ولهذا قال يعقوب لأولاده عقب الإبصار: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (يوسف/96).

عندها أقرَّ الأولاد بذنوبهم مع أبيهم وأخويْهم، وطلبوا إلى أبيهم -يعقوب- أن يستغفر لذنوبهم فوعدهم بذلك.

وتمضي الآيات تحدثنا عن مفاجآت القصة، طاوية الزمان والمكان، «فتحدثنا عن مجيء أسرة يعقوب بأسرهم إلى مصر، ودخولهم على يوسف، وهو في عز السلطان، وعظمة الملك، وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحد عشر له مع أبيه وأمه، واجتماع الشمل بعد الفرقة، وحلول الأنس بعد الكدر» (الصابوني، قبس من نور القرآن الكريم، (5: 206)).

«وقبل أن يُسدل الستار على المشهد الأخير المثير، نشهد يوسف ينسحب من اللقاء

والعناق والفرحة والابتهاج والجاه والسلطان، والرغد والأمان، ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر، كل دعوته - وهو في أبهة السلطان، وفي فرحة تحقيق الأحلام - أن يتوفاه ربه مسلماً، وأن يلحقه بالصالحين: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» (يوسف/101) (قطب، في ظلال القرآن، (4: 2029)).



نشاط (3)

لسورة يوسف شخصيتها المتميزة والمستقلة، وقد ظهر هذا الاستقلال والتميز في صور كثيرة منها: انفرادها ببعض الاستعمالات البلاغية والتعبيرات الخاصة التي لم تتكرر في سورة أخرى. سجل عشرة من تلك الاستعمالات والتعبيرات.

2.8 من وجوه القراءات في آيات الدرس

1.2.8 في قوله تعالى: ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾

قرأ ابن كثير بالنون «حيث نشاء» بضمير المتكلم العظيم، وقرأها الباقون بالياء «حيث يشاء» أي يوسف عليه السلام. وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، فما يشاؤه يوسف عليه السلام بإرادته الحرة، لا يتحقق له في الواقع إلا إذا شاءه الله جل جلاله وعظم سلطانه، وهكذا كل مشيئات العباد.

2.2.8 في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾

قرأ حفص وحمزة والكسائي (لِفتيانِه)، وقرأ الباقون (لِفتيَتِهِ). ومؤدى القراءتين واحد.

3.2.8 في قوله تعالى: ﴿نَكْتَلْ﴾

قرأ حمزة والكسائي (يكتل) بالياء، أي يكتل هو بنفسه، كما نكتال لأنفسنا.

وقرأ الباقون (نكتل) بالنون، أي نكتل نحن وهو.

4.2.8 في قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ حَافِظًا﴾

قرأ حمزة والكسائي وحفص: «فَاللّٰه خَيْرٌ حَافِظًا».

بالتنوين والألف في حافظاً؛ والحافظ تفسير (تمييز) للخير، أي خيركم حافظاً. كما يقال: هو خيرٌ رجلا.

وقرأ الباقون: «فالله خير حفظاً» بدون ألف، على المصدر؛ أي الله خيركم حفظاً.

5.2.8 في قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾

قرأ حمزة وعاصم والكسائي: «نرفع درجاتٍ من نشاء» بتنوين (درجات). والمعنى: نرفع مِن نشاءِ درجاتٍ ومراتبَ في العلم، كما رفعنا يوسف. و(من) هو مفعول به للفعل (نرفع). و(درجات) تمييز.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو «نرفع درجاتِ من نشاء» بإضافة (درجات) إلى (من). و(درجات) مفعول به، وهو مضاف، و(من) مضاف إليه.

والمعنى: نرفع منازل من نشاء رفع منازله ومراتبه في الدنيا بالعلم، كما رفعنا مرتبة يوسف بذلك في الدنيا على مراتب إخوانه.

6.2.8 في قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾

قرأ ابن كثير (إنك لأنت) بهمزة واحدة على لفظ الخبر؛ وقرأ الباقون بهمزتين على لفظ الاستفهام (أإنك لأنت). غير أن وَرْشاً يجعل الثانية بين الهمزة والياء، ولا يمد. وقالون وأبو عمرو مثله، غير أنهما يدخلان بين الهمزتين ألفا فيمدان، والباقون يحققون الهمزتين.

3.8 ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّٰهِ﴾

«لقد وردت عبارة «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّٰهِ» مرتين في قصة يوسف، وهي في كل مرة واردة في سياق خاص:

المرة الأولى: قالها يوسف عليه السلام للسجينين معه في السجن، لما عرَّفهما على الإيمان وقدَّم لهما الدعوة: «يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللّٰهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّٰهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا

إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (يوسف/39-40).

لقد وردت هذه العبارة في سياق الخضوع لحكم الله وأمره وتشريعه، أي أنه لا حاكم إلا الله، هو الذي يحكم ويشرع ويحلل ويحرم، وما على العباد إلا تنفيذ حكم الله، والالتزام بشرعه، ليحققوا العبادة والعبودية لله، ويكونوا على الدين القيم الحق.

المرة الثانية: قالها يعقوب لأبنائه وهو يطالبهم بالحذر والأخذ بالأسباب «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» (يوسف/67). ووردت هذه العبارة هنا في سياق الرضا بقدر الله، والاستسلام لقضائه، والإيمان بأن كل ما يصيب الإنسان فهو من الله؛ سواء أكان هذا ضراً أو نفعاً.

فالحكم التشريعي لله، كما قرره يوسف عليه السلام، والحكم القدري لله، كما قرره أبوه يعقوب عليه السلام» (الخالدي، القصص القرآني، (2: 196 - 197)).

إن حديث يوسف عليه السلام وتأكيده على قضية الحاكمية وهو في السجن، فيه إشارة واضحة ودلالة صريحة على أن أمر الحكم والحاكمية هو من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع. فيوسف عليه السلام لم يتحدث في بلاغه الدعوي إلا عن العقائد والأصول، فالدين القيِّم الصحيح -كما بيَّن عليه السلام- يقوم على خلوص الحكم وإخلاص العبادة له سبحانه.

لقد أشار القرآن الكريم إلى نوعين من الحكم يمكن أن يُحكم بهما الناس، وهما: حكم الله عز وجل، وحكم الجاهلية؛ وحكم الجاهلية: هو كل حكم سوى حكم الله سواء أكان حكماً بشريعة سماوية سابقة للإسلام، أو حكماً بشريعة أرضية من صنع البشر وابتكارهم. وحكم الله عز وجل المتمثل بتطبيق شريعة الإسلام الغراء هو أصل الخير والسعادة للناس جميعاً، وحكم الجاهلية هو أصل الفساد والشقاوة للناس جميعاً.

إن جعل الحكم لله -على لسان يعقوب ويوسف عليهما السلام- فيه معان ودلالات كثيرة منها:

1- «أن ما يصدر عن الطواغيت من قوانين وتشريعات يشرعونها للناس، ويحكمون الناس بها، تعتبر باطلة من أساسها، غير ملزمة لأحد من الناس، بل على الناس أن يتمردوا عليها، ويعملوا على محوها وإزالتها من الوجود. قال تعالى منكراً على الذين يشرِّعون للناس: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (الشورى/21) (أبو فارس، النظام

السياسي في الإسلام، ص 27-28).

«هذه القوانين التي فرضها على المسلمين أعداء الإسلام -السافرو العداوة- هي في حقيقتها دين آخر جعلوه ديناً للمسلمين بدلاً من دينهم النقي السامي، لأنهم أوجبوا عليهم طاعتها، وغرسوا في قلوبهم حبها، وتقديسها والعصبية لها.

حتى لقد تجري على الألسنة والأقلام كثيراً كلمات «تقديس القانون»؛ «قدسية القضاء»؛ «حرمة المحكمة»، وأمثال ذلك من الكلمات التي يأبون أن توصف بها الشريعة الإسلامية وآراء الفقهاء الإسلاميين.

ثم صاروا يطلقون على هذه القوانين ودراساتها كلمة (الفقه) و(الفقيه) و(التشريع) و(المشرِّع)، وما إلى ذلك من الكلمات التي يطلقها علماء الإسلام على الشريعة وعلمائها» (شاكر، حكم الجاهلية، ص 33-34).

«إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح لا خفاء فيه ولا مداورة، ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام -كائناً من كان- في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، و «كل امرئ حسيب نفسه»؛ ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيّابين، وليبلغوا ما أمروا بتبليغه غير مواتين ولا مقصرين» (شاكر، حكم الجاهلية، ص 29-30).

2- ادعاء الحاكمية كفر:

«يعتبر الإسلام الذي يدّعي لنفسه الحاكمية كافراً خارجاً من الإسلام، لأنه ادعى أولى وأخص خصائص الألوهية، فيكون والحالة هذه كأنه نصّب نفسه إلهاً على الناس، أو جعل نفسه نداً لله تعالى، لأن الحاكمية له سبحانه» (أبو فارس، النظام السياسي في الإسلام، ص 34).

«وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعي من دائرة الدين القيم، وتجعله منازعاً في أولى خصائص ألوهيته سبحانه، فليس من الضروري أن يقول: ما علمت لكم من إله غيري، أو يقول: أنا ربكم الأعلى؛ كما قال فرعون جهرة. ولكنه يدّعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحي شريعة الله عن الحاكمية، ويستمد القوانين من مصدر آخر، أو بمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية، أي التي تكون هي مصدر السلطات، جهة أخرى غير الله سبحانه وتعالى، ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية» (قطب، في ظلال القرآن (2:1990)).

3- رفض الحكم بما أنزل الله كفر:

«والإسلام يعتبر أن من يرفض حكم الله كافر فاسق ظالم؛ قال تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»(المائدة/44). وقال: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا

أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»(المائدة/45) وقال: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»(المائدة/47) (أبو فارس، النظام السياسي في الإسلام، ص 33).

4- التحاكم إلى شرع غير شرع الله عن رضا وطواعية كفر: «فكل إنسان يتحاكم إلى شريعة غير شريعة الله عن رضا وطواعية، يعد كافراً خارجاً من الإسلام. قال تعالى: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»(النساء/65).

وقال تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا»(النساء/60).

وقال تعالى: «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»(النساء/59) (المرجع السابق، ص 36-37). قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يُردَّ التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» (الشورى/10)، فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ولهذا قال تعالى: «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» (النساء/59) أي : ردّوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

فدلَّ على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر (شاكر، عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير (3: 208-209)).



تدريب (6)

في سورة يوسف عليه السلام كثير من وجوه البلاغة والبيان. أورد ثمانيةً من تلك الوجوه.

4.8 ما ترشد إليه الآيات

ترشد آيات هذا الدرس إلى حكم وأحكام كثيرة منها:

1- جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة.

2- يجوز للإنسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه، أو عند الضرورة لذلك.

3- إن تحقيق الغايات قد يستعمل من أجله الترغيب والترهيب معاً.

4- إكرام الضيف والإحسان إليه من أخلاق النبيين والصالحين.

5- مع أن الحذر لا يغني من القدر، والقدر لا يدفعه الحذر، فإن الأخذ بالأسباب مطلوب شرعاً.

6- جواز دفع الضرر بضرر أقل منه.

7- جواز الجعالة، وهي الالتزام بعوض على شيء معلوم أو مجهول، وهو تصرف بإرادة منفردة، مثل الإعلان عن مكافأة أو جُعْل لمن يجد شيئاً ضائعاً، أو يكتشف علاجاً لمرض معين، أو لمن يتفوق في قضية علمية أو اكتشاف علمي.

8- تفاوت الناس في العلم.

9- على العالم ألاّ يغتر بعلمه، وأن يتواضع للناس، وأن يسعى دائماً في طلب العلم والاستزادة منه.

10- إن للكبير حقاً يُتَوسَّل به، وقد ورد في الاستسقاء الخروج بالشيوخ ليستسقوا ويدعوا، فدعاؤهم أقرب الى الإجابة.

11- يحرم معاقبة غير الجاني في العقوبات البدنية كالجلد والسَّجن والقصاص.

12- جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها.

13- جواز التأسف والبكاء عند المصيبة.

14- القنوط واليأس من شأن الكافرين، أما المؤمنون فهم على رجاء دائم من رحمة الله وفرجه.

15- جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها.

16- الاعتراف بالذنب أو الخطأ سبيل الحظوة بالعفو والصفح.

17- جواز التبشير ببشائر الدنيا، واستحبابه.

18- جواز طلب الاستغفار من أهل الصلاح والتقوى.

19- لا ينبغي للولد أن يجلس في مجلس مرتفع عن مجلس والديه.

20- إطلاق سراح الأسرى والخروج من السجن نعمة من نعم الله، وإحسان منه سبحانه يستحق الشكر.

21- تفضيل الحضارة على البداوة، لما في البداوة من شظف العيش وخشونته والبعد عن موارد العلوم، وعن رفاهة المدنية، ولطف المعاشرة، والكمالات الإنسانية.

22- لا يجوز تمني الموت بقصد الخلاص من الحياة. ولكن يجوز تمنّي الوفاة على الإسلام اشتياقاً وحباً للقاء الله عز وجل.

?

أسئلة التقويم الذاتي (7)

1- بين معاني المفردات التالية:

* الجهاز * الانقلاب * كيل بعير * السقاية
* استيأسوا * الضُّر * التثريب * نزغ

2- هل طلب يوسف عليه السلام الإمارة أم أنها عُرضت عليه؟ وضح إجابتك.

3- ما المنصب الذي رشح يوسف نفسه له؟ وما الصفات التي يحتاجها هذا المنصب؟

4- ما الإجراءات التي اتخذها يوسف عليه السلام لمعالجة سنوات القحط؟

5- بم أوصى يعقوب عليه السلام أولاده؟ وما غرضه من تلك الوصية؟

6- ما الخطة التي رسمها يوسف عليه السلام لاستبقاء أخيه الصغير عنده؟

7- اذكر القراءات الواردة في قوله تعالى: «خَيْرٌ حَافِظًا».

8- ما المقصود بقوله تعالى: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» على لسان كل من يوسف وأبيه عليهما السلام؟

9- ما الدروس والعبر التي تؤخذ من الآيات التالية:

* «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ».
* «وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ».
* «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ».
* «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا».
* «وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ».

9. الدرس السابع: تفسير الآيات (102-111) وحفظها
«ذلك من أنباء الغيب....لقوم يؤمنون»

1.9 معاني المفردات والمعنى الإجمالي

أ- معاني المفردات

* أنباء: جمع نبأ، والنبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن.
* المكر: تدبير أمر في خفاء، بخير أو بشر.
* الحرص: شدة الطلب لتحصيل شيء ومعاودته.
* الغاشية: الحادثة التي تحيط بالناس، والمراد بها العقوبة الشاملة.
* الشعور: هو أدنى الإدراك العلمي لشيء ما.
* السبيل: الطريق، وكلاهما يذكر ويؤنث.
* البصيرة: العلم الصحيح، والحجة الكافية للإقناع.
* البأس: العذاب الشديد.
* العبرة: اسم مصدر للاعتبار، وهو التوصل بمعرفة المشاهد المعلوم إلى معرفة الغائب.
* أولو الألباب: أهل العقول الحصيفة النظيفة.
* يفترى: يقال لغة: افترى الحديث افتراء: أي اختلقه كذباً عن عمد.
* التفصيل: التبيين.

ب- المعنى الإجمالي

تمثل آيات هذا الدرس تعقيبات على قصة يوسف عليه السلام، فبعد أن فرغت السورة من سرد أحداث القصة، توجهت بالخطاب إلى النبي ﷺ مبينة له أن ما جاء في قصة يوسف عليه السلام من دقائق وحقائق كان غائباً عنه ﷺ، غير معلوم له، وإنما عرفه وعلمه بالوحي، فصدور ذلك من النبي ﷺ الأميّ آية كبرى على أنه وحي من الله تعالى، فهو ﷺ لم يكن شاهداً، ولا حاضراً حين اجتمع إخوة يوسف سراً ليتآمروا على أخيهم.

«ولقد كان من مقتضى ثبوت الوحي، وإيحاء القصص، واللفتات واللمسات التي تحرّك القلوب، أن يؤمن الناس بهذا القرآن، وهم يشهدون الرسول ﷺ ويعرفون أحواله، ثم يسمعون منه ما يسمعون، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وهم يمرون كذلك على الآيات المبثوثة في صفحة الوجود فلا ينتبهون إليها، ولا يدركون مدلولها، كالذي يلوي صفحة وجهه فلا يرى

ما يواجهه. فما الذي ينتظرونه؟ وعذاب الله قد يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون» (قطب، في ظلال القرآن، (4:2031)).

فرغم حرص النبي ﷺ على إيمان الناس وهدايتهم، ورغم عدم سؤاله إياهم الأجر والثواب على هدايتهم، ورغم كثرة الشواهد والبراهين على صدق نبوته ﷺ، فإن أكثر الناس آثروا الكفر على الإيمان، والغيَّ على الرشاد، والضلال على الهدى. وكأنهم لا يعلمون أن ما اختاروه لأنفسهم من كفر وغيٍّ وضلال، مصيره العذاب في الدنيا، والخزي في الآخرة.

ثم توجهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ آمرةً إياه أن يصدع، ويبين للناس أن مهمته وطريقته -هو ومن معه- هي الدعوة إلى دين الله عز وجل، بأسلوب عقلي وعلمي ومنطقي أساسه الحجة والبرهان، فالإيمان بالله يقوم على الإقناع بالحجة والبرهان، لا بالإكراه بالسيف والسِّنان، وبعد ذلك «فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ» (الكهف/29).

«ودعوته عليه الصلاة والسلام هذه ليست بدعا من دعوات الأنبياء قبله، بل هي مكملة وخاتمة لها، وكما أوحى الله إليهم أوحى إليه «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» (يوسف/109)؛ فالأنبياء رجال أوحى الله إليهم كما أوحى إلى النبي ﷺ، واختارهم من أهل المدن كما اختاره عليه الصلاة والسلام من مكة المكرمة أمْ المدن وأفضلها وأقدسها. ثم دعت الآية المعارضين والمعاندين إلى الاعتبار بآثار الأمم المكذِّبة المعارضة «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»؛ فآثارهم تدل على أن الله تعالى أهلكهم ونجّى رسله والمؤمنين، فالعاقبة الطيبة لهم في الدنيا والآخرة «وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (طهماز، الوحي والنبوة، ص (127-128)).

«وتكميلاً لموضوع الرسالة والرسل، والمواقف العصيبة التي لاقاها رسل الله جرّاء تكذيب الأقوام لهم، وتوضيحاً لبيان سنة الله عز وجل في نصرة أنبيائه وأوليائه، وأن العاقبة الحميدة تكون لهم ولأتباعهم المؤمنين، جاءت الآيات تبين أنَّ نجاة المؤمنين، وهلاك الظالمين، حق مؤكد، ولكن لا يأتي النصر والظفر لأول وهلة، بل لا بد من اشتداد الخطب، وتفاقم الأمر، حتى يلجأ الرسل أنفسهم إلى الدعاء بتنفيس الكرب، فإن من سنة الله أن يمهل ولا يُهمل، ويبتلي العباد بما شاء من أنواع المكاره والشدائد، ليظهر الصادق من المنافق، والبَرُّ من الفاجر» (الصابوني، قبس من نور القرآن الكريم، (5 : 218-219)).

ثم ختم الله تعالى آيات السورة بقوله الكريم: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (يوسف/111).

عزيزي الدارس، «في هذه الآية الختامية للسورة الكريمة ستة بيانات عن القرآن.

البيان الأول: أن في القصص القرآني عبرة لأولي الألباب.

البيان الثاني: أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون حديثاً قابلاً لأن يفتري بلفظه ولا بمضمونه.

أي: لأن يوضع وضعاً بشرياً ويدّعي أنه تنزيل من رب العالمين.

البيان الثالث: أنّ القرآن مصدق للذي سبقه من كتب الله، كالتوراة، والزّبور، والإنجيل، وصحف إبراهيم، وذلك قبل دخول التحريف عليها.

البيان الرابع: أن القرآن فيه تفصيل لكل شيء من قضايا العقائد الإيمانية، وأمهات قضايا السلوك الإنساني التي هي مطلوب الله من عباده في رحلة ابتلائهم في ظروف الحياة الدنيا.

البيان الخامس: أن القرآن هدى؛ ففيه دلالة للأفراد والجماعات على ما فيه صلاح دنياهم، وسعادتهم في آخرتهم.

البيان السادس: أنّ القرآن رحمة للمؤمنين والمؤمنات، فالقرآن أثر من آثار رحمة الله بعباده، وفي آياته عطاء ثرٌّ من عطاءات الخير للناس أجمعين، بما فيها من دلالات على كل ما فيه صلاح دنيا الناس، وسعادتهم في آخرتهم» (الميداني، معارج التفكر ودقائق التدبر، (: 759-762 10) بتصرف).

2.9 من وجوه القراءات في آيات الدرس

1.2.9 في قوله تعالى: (نوحِي إِلَيْهِمْ)

قرأ حفص بالنون وكسر الحاء، وقرأ حمزة (يوحَى إليهُم)، وقرأ الباقون (يوحَى إليهِمْ) وذلك بالياء وفتح الحاء في (يوحَى) وبضم هاء (إليهُم) عند حمزة، وكسرها عند الباقين.

2.2.9 في قوله تعالى: (أفلا تَعْقِلُون)

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي «أفلا يعقلون»، وقرأ الباقون «أفلا تعقلون» وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

3.2.9 في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾

قرأ عاصم وحمزة والكسائي (كُذِبوا) بالتخفيف، على أن فاعل ظنَّ يعود على الأقوام الكفار، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (كُذِّبوا) بضم الكاف والتشديد، على أن فاعل ظنَّ يعود على الرسل، أي: ظنَّ الرسل أنهم قد كُذِّبوا من قبل قومهم الكفار، أو من قبل بعض أتباعهم المؤمنين بهم، لشدة المحنة ولتأخر النصر.

4.2.9 في قوله تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾

قرأ عاصم وابن عامر (فنُجِّيَ من نشاء) بنون واحدة وتشديد الجيم، أي: نُجِّي من المؤمنين من نشاء نجاته.

وقرأ الباقون (فننجي من نشاء) بنونين مخففة، أي: ننجي نحن من نشاء من الرسل والمؤمنين، دون الكافرين.



تدريب (7)

ورد في سورة يوسف عليه السلام عبارات وجمل عدَّها العلماء من أمثال القرآن، اذكر عشراً منها مبيناً مواطن الاستشهاد بها.

3.9 ما ترشد إليه الآيات

ترشد آيات هذا الدرس إلى حكم وأحكام كثيرة منها:

1- في القصص القرآني إثبات نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته.

2- إن الإيمان بالله لا يتحقق بمجرد الإقرار بوجوده والاعتراف بكونه خالقاً رازقاً، إنما يتحقق بإفراده بالعبودية وطاعته سبحانه.

3- إن من يتصدر للإرشاد من تعليم ووعظ، عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه.

4- القرآن والوحي عظة وتذكرة للعالمين قاطبة، لا للعرب خاصة.

5- غفلة أكثر الناس عن التفكر والتدبر في آيات الله، ودلائل توحيده ووجوده.

6- دعوة الإسلام دعوة واضحة بينة صريحة تستند إلى الحجج والبراهين والأدلة العقلية والنقلية، وهي دعوة مفتوحة مستمرة إلى قيام الساعة، فلا تنتهي أو تموت بموت النبي الخاتم ﷺ، بل هي مستمرة بعده يحملها أصحابه وإخوانه المؤمنون برسالته إلى يوم الدين.

7- إن الرسل جميعاً كانوا رجالا، ولم يكن فيهم نساء، لأن أمر المرأة مبني على التستر، وعدم الاختلاط بالرجال، وأمر الدعوة مطلوب فيه التبليغ، والكفاح والنضال، والضرب في الأرض لتبليغ دعوة الله.

8- فرج الله ونصره للمؤمنين لا يأتي إلا بعد اشتداد المحنة واستحكام الشدة.

9- أهمية استعمال الإنسان لعقله بشكل علمي وموضوعي، ومجرد عن التعصب والهوى.

10- إن القصص القرآني جاء لتحقيق أهداف وأغراض جليلة وحكم عظيمة.

?

أسئلة التقويم الذاتي (8)

1- بين معاني المفردات التالية:

* أنباء * الحرص * السبيل * البأس * العبرة

2- في إيراد قصة يوسف عليه السلام في القرآن دليل على صدق نبوته ﷺ. وضح ذلك.

3- بين الهدف من قص القصص في القرآن.

4- في قوله تعالى: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» قراءتان. ما هما؟

5- على من يعود فاعل ظن في قوله تعالى: «وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا»؟

6- هل يتحقق الإيمان بالله بمجرد الاعتراف بوجوده؟ وضح إجابتك.

7- لماذا كان الأنبياء من أهل المدن ولم يكونوا من أهل البادية؟

8- ما الدروس والحكم التي تؤخذ من الآيات التالية:

* «وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ».
* «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ».
* «أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ».
* «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا».
* «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ».

10. الخلاصة

عزيزي الدارس، هذه هي الوحدة الخامسة والأخيرة من منهاج مقرر «التفسير»، وقد درست في هذه الوحدة تفسير سورة يوسف عليه السلام، وقد تناولت هذه الوحدة القضايا والأفكار التالية:

1- بين يدي السورة الكريمة.

2- معاني مفردات السورة الكريمة.

3- المعنى الإجمالي لدروس السورة الكريمة.

4- بعض وجوه القراءات في آيات السورة.

5- الحكم والأحكام التي ترشد إليها آيات السورة.

6- الأحرف المقطعة في فواتح السور.

7- أحسن القصص.

8- الرؤيا.

9- هل إخوة يوسف أنبياء؟

10- في ظلال قوله تعالى: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ..».

11- يوسف في السجن داعية إلى الله.

12- «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ».

11. إجابات التدريبات

تدريب (1)

السور التي سميت بأسماء أنبياء غير سورة يوسف هي: يونس، هود، إبراهيم، محمد، نوح عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

تدريب (2)

ثلاث رؤى رآها النبي ﷺ في منامه، وتحققت في عالم الواقع:

1- رؤيا النبي -ﷺ- أنه يهاجر من مكة إلى أرض ذات نخل، وظنه أن تلك الأرض اليمامة فظهر أنها المدينة، ولا شك في أنه لما رأى المدينة وجدها مطابقة للصورة التي رآها.

2- رؤياه - ﷺ- امرأة في سَرَقة من حرير، فقيل له: اكشفها فهي زوجك، فكشف فإذا هي عائشة، فعلم أنه سيتزوجها.

3- رؤياه -ﷺ- أنه يشرب من قدح لبن حتى رأى الري في أظفاره، ثم أعطى فضله عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وتعبيره ذلك أنه العلم.

تدريب (3)

أطلق الضلال في القرآن الكريم على ثلاثة أمور:

الأول: هو الذهاب عن علم حقيقة الأمر كما ينبغي، ومنه قول إخوة يوسف: «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»، وقولهم لأبيهم: «إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ».

الثاني: الضلال في الدين، أي الذهاب عن طريق الحق التي جاءت بها الرسل، وهذا أشهر معانيه في القرآن، ومنه «وَلَا الضَّالِّينَ» (الفاتحة/7)؛ «وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ» (الصافات/71)؛ «وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا» (يس/62).

الثالث: الضلال بمعنى الهلاك والغيبة، ومنه قول العرب: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه وهلك؛ ولذا تسمي العرب الدَّفن إضلالاً لأنه تغييب في الأرض يؤول إلى استهلاك العظام، ومنه: «وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» (السجدة/10).

تدريب (4)

خمس آيات في سورة يوسف اشتملت على كلمة الكيد:

1- «فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا».

2- «إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ».

3- «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ».

4- «فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ».

5- «إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ».

تدريب (5)

أربع محن تعرض لها يوسف عليه السلام:

1- محنة إلقائه في الجب من قبل إخوته.

2- محنة العبودية والاسترقاق.

3- محنة مراودة امرأة العزيز له في جو القصر.

4- محنة دخوله السجن.

تدريب (6)

من وجوه البلاغة والبيان في سورة يوسف:

1- الإيجاز والاختصار وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، كما في قوله تعالى: «يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ»؛ قال صاحب المنار: «وهذه الجملة من فرائد درر الكلام البليغ»، وكما في قوله تعالى: «وَاسْتَبَقَا الْبَابَ»، وكما في قوله تعالى: «فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا».

2- المبالغة، كما في قوله تعالى: «بِدَمٍ كَذِبٍ» فالدم لا يوصف بالكذب، والمراد: بدم مكذوب فيه أو دم ذي كذب، وجيء بالمصدر على طريقة المبالغة.

3- الطباق: كما هو الحال بين كلمتي (صدقت) و(كذبت)، وكلمتي (الصادقين) و(الكاذبين)، وكلمتي (سمان) و(عجاف)، وكلمتي (خضر) و(يابسات) ..إلخ.

4- براعة الاستهلال: كما في قوله «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ»، فقد قدَّم الثناء قبل السؤال طمعاً في إجابة مطلبه.

5- جناس الاشتقاق، كما في قوله تعالى: «وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ». وقوله: «ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ» وقوله: «يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ».

6- المجاز المرسل: كما في قوله تعالى: «أَعْصِرُ خَمْرًا» باعتبار ما يكون؛ أي عنباً يؤول إلى خمر. وقوله: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» فهو مجاز مرسل علاقته المحلية.

7- المجاز العقلي: كما في قوله تعالى: «يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ» لأن السنين لا تأكل وإنما يأكل الناس ما ادخروه فيها.

8- الإطناب: كما في قوله تعالى: «لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ» ففيه إطناب وهو زيادة اللفظ على المعنى. وفائدته تمكين المعنى من النفس. وقوله: «شَيْخًا كَبِيرًا» فيه إطناب للاستعطاف.

تدريب (7)

من أمثال سورة يوسف عليه السلام:

1- في الصبر والثبات «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ».

2- في الإغضاء والتغافل واللين «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ».

3- في الذم والإهانة والتهكم «أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا».

4- في تباين المذاهب وتفاوت الدرجات «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ».

5- في الكرم والإكرام والضيافة «ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ».

6- في الحق والباطل «الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ».

7- في كيد النساء «إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ».

8- في اليأس والتيئيس «قُضِيَ الْأَمْرُ».

9- في أداء الشهادة «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا».

10- في التبرئة «حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ».

- أضغاث أحلام: الأحلام المختلطة من الخواطر والأخيلة التي يتصورها الدماغ في النوم، فلا تومئ إلى معنى مقصود.
- تأويل الأحاديث: تفسير الرؤى والأخبار بما تؤول إليه في الوجود.
- الجعالة: هي الالتزام بعِوَض على شيء معلوم أو مجهول، وهو تصرف بإرادة منفردة، مثل الإعلان عن مكافأة أو جُعْل لمن يجد شيئاً ضائعاً، أو يكتشف علاجاً لمرض معين..إلخ.
- الحروف المقطعة: أحرف ابتُدِئت بها بعض السور القرآنية كقوله (الم) (المر)، ويقصد بها التنبيه والتحدي بأن هذه الأحرف التي نزل بها القرآن هي من جنس ما تنطقون به أيها الناس، ومع ذلك فأنتم لا تستطيعون الإتيان بمثله.
- الدين القيم: الدين المستقيم الذي لا عِوَج فيه عن الحق والخير ومحاسن السلوك.
- السجن: اسم للمكان الذي يُسْجن فيه.
- السقاية: الإناء الذي يشرب به الملك، جعلت كيلاً يكال به الطعام.
- السَّيارة: القوم الذين يسيرون في الأرض للتجارة وغيرها.
- الصبر الجميل: الصبر الذي لا شكوى فيه ولا ضجر ولا جَزَع.
- العبرة: التوصل بمعرفة المشاهَدِ المعلوم إلى معرفة الغائب.
- العزيز: لقب لأكبر وزراء الملك وأمنائه في مصر أيام يوسف عليه السلام.
- القصص: الأخبار التي قصَّها الله علينا في كتابه العزيز.
- الكيد: تدبير أمر فيه مكروه لمن دُبِّر ضده، ظاهر أو خفي، وقد يكون تدبيراً بالحق والعدل.
- الملأ: أشراف القوم وسَرَاتهم الذين يملؤون عيون العامة.



* القرآن الكريم.

1- الأصفهاني: الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم - دمشق والدار الشامية - بيروت، الطبعة الأولى 1412هـ - 1992م.

2- الخالدي: صلاح عبد الفتاح، تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» تقريب وتهذيب، خرّج أحاديثه: إبراهيم محمد العلي، دار القلم - دمشق والدار الشامية - بيروت، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.

3- الخالدي: صلاح عبد الفتاح، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم- دمشق والدار الشامية - بيروت، الطبعة الأولى 1419هـ 1998م.

4- الخلفي: عبد العظيم بن بدوي، أحسن القصص دروس وعبر، دار ابن رجب للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1421 هـ - 2001م.

5- الرازي: الإمام الفخر، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة.

6- رضا: السيد محمد رشيد، مختصر تفسير المنار، أتمه وعلق عليه: الشيخ محمد أحمد كنعان، مراجعة: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى 1404هـ - 1984م.

7- الزحيلي: وهبة، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر - بيروت، ودار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، 1411هـ - 1991م.

8- أبو زهرة: الشيخ محمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي.

9- شاكر: أحمد محمد، حكم الجاهلية، مكتبة السنة - القاهرة، الطبعة الأولى، 1412هـ - 1992م.

10- شاكر: أحمد محمد، عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير.

11- الصابوني: الشيخ محمد علي، صفوة التفاسير، مكتبة جدة.

12- الصابوني: الشيخ محمد علي، قبس من نور القرآن الكريم، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.

13- طهماز: الشيخ عبد الحميد محمود، الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف، دار القلم - دمشق والدار الشامية - بيروت، الطبعة الأولى 1410هـ - 1990م.

14- ابن عاشور: الشيخ محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر - تونس، 1984م.

15- أبو فارس: محمد عبد القادر، النظام السياسي في الإسلام، طبعة 1980م.

16- الفيروز أبادي: مجد الدين، محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز.

17- القاسمي: محمد جمال الدين، تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، تحقيق الأستاذ: محمد فؤاد عبد الباقي، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت، الطبعة الأولى 1415هـ - 1994م.

18- القرطبي: الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر.

19- قطب: سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة عشرة 1408هـ- 1987م.

20- القيسي: الإمام أبو محمد مكي بن أبي طالب، كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تحقيق د. محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة 1407هـ - 1987م.

21- ابن كثير: إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى 1406هـ - 1986م.

22- مغنية: محمد جواد، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الأولى.

23- الميداني: عبد الرحمن حسن حبنكة، معارج التفكر ودقائق التدبر، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى 1425هـ - 2004م.

24- نوفل: أحمد، سورة يوسف دراسة تحليلية، دار الفرقان للنشر والتوزيع - عمان، الطبعة الأولى 1409هـ - 1989م.

25- الهلالي: أبو أسامة سليم بن عيد، صحيح قصص الأنبياء لابن كثير، من منشورات الدعوة السلفية: كتاب رقم(83).